   
**بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين**

**وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين**

**تفسير سورة المائدة**

**للشيخ عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي**

**تمهيد: إكمال الدين وتمام النعمة**

تختلف درجات الاستجابة لدعوات الرسل عليهم السلام سرعة وبطءا، ورخاوة وصلابة، وإقبالا وإعراضا، وتدرجا نحو السمو وتدحرجا للحضيض، عبر تلاحق الأجيال وتتابع الرسالات، من نوح وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين سنة أعقبها الطوفان، إلى إبراهيم وقد كان أمة وحده يذرع فضاء الأرض وحيدا مستضعفا يكاد الطير يتخطفه، إلى موسى وقد اشترط عليه أتباعه أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة 55، ثم سألوه ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾البقرة 60، إلى عيسى وقد قال له صحابته وحواريوه:﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة 112 فلما نهاهم بقوله:﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة 112 ما كان لهم من جواب إلا أن :﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ المائدة 113، أما صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيل النبوة الخاتمة فما كان لهم مِنْ هَمٍّ إلا أن يستمعوا ما أنزل عليهم من ذكر من ربهم، ولم يَدُرْ بخَلَدهم أن يشترطوا على نبيهم أو ربهم، بل كان منتهى فرحهم أن تُسقى أرواحهم بما يُنزَّل عليهم من القرآن فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم وخشوعا مع خشوعهم وتَغْشى قلوبَهم السكينةُ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾الأنفال2. وما كان لهم من سؤال لربهم إذ سمعوا منادي الإيمان إلا أن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة285، وقالوا:﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. كانوا يفرحون بالتكاليف أمرا ونهيا وبلاء كما يفرحون بالبشرى لطفا ورحمة، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:(وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)[[[1]](#footnote-1)]، أما رسولهم صلى الله عليه وسلم فما كان أشد فرحه إلا بآية توبة ولطف بأمته، أو بشرى تمكين للدين، قال ابن عباس:" نزلت: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الفرقان 70، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح فرحا قط أشد فرحا منه بها وبـ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ الفتح1/3".

وكيف لا يفرح وقد فتحت الأولى لأمته باب التوبة من أكبر الكبائر، وجمعت الثانية أمهات سعادة الدنيا والآخرة، مغفرة، وإتمام نعمة، وهداية للصراط المستقيم، ونصرا عزيزا، وقال صلى الله عليه وسلم عنها إذ نزلت:(لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا).

ذلك سر خيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعماد استخلافها وائتمانها على الدين إلى يوم القيامة، واستشهادها على الأمم يوم الحساب كما قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة 143. لم يكن يشغلها ما تنبته الأرض، لأن نباتها كله مسخر للمؤمن والكافر وكل كائن حي فيها، (ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرا منها شربة ماء)، ولم تعلق طمأنينتها بنزول مائدة من السماء تأكل منها، لأنها تعرف أن الأرض كلها مائدة طعام لهم ولغيرهم خلقها رب الأرض والسماء، وأن تسخيرها للناس آية من آيات الله تعالى﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ البقرة 168، وما كان لهم من عيد يفرحون به إلا يوم يغفر لهم ربهم إذا ما أتموا صيامهم أو أحيوا سنة أبيهم إبراهيم، أو أكمل الله لهم أمر دينهم وأتم عليهم نعمته إذ نزلت سورة المائدة على أرجح الأقوال في عيدين عظيمين،كمل فيهما الدين وتمت النعمة بعد عصر الجمعةِ يومَ عَرَفةَ في حجةِ الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقفٌ بعَرَفاتٍ على العضباء، فكادت عضُدُ الناقة تندق لثقلها فبرَكَت، وفيها قوله عز وجل:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. قال الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد[[[2]](#footnote-2)] قالت إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذ أُنزِلت عليه المائدة كلها فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة، وقال أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "آخر سورةٍ أنزلت جملةً، سورة المائدة"[[[3]](#footnote-3)].

أما ما ورد من روايات عن نزول قوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يوم عرفة من غير أن يذكر نزول سورة المائدة كلها، كما في رواية مسلم والأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال: وأي آية؟ قال:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فقال عمر: "إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعرفة في يوم جمعة"، فإنما ذلك لكون هذه الآية كان لها أبلغ التأثير في نفوس المسلمين يوم نزولها ضمن سورة المائدة لما فهموه بها من إشارة إلى قرب انقطاع الوحي والتحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، يؤكد ذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جداً وأظهروا السرور العظيم إلا عمر رضي الله عنه فإنه بكى، كما في رواية هارون بن عنترة عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآيةُ بكى عمرُ رضي الله تعالى عنه فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: (ما يُبكيك يا عمر؟) قال: أبكاني أنا كنا في زيادةٍ من دينِنا، فإذا كملَ فإنه لا يكملُ شيءٌ إلا نقَصَ، فقال عليه الصلاة والسلام: (صدقت)، فكانت هذه الآيةُ نعْياً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يعمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إلا واحداً وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً ، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل. وهذا لا ينفي أن بعض آيات السورة ربما نزل قبل حجة الوداع ثم نزلت متكاملة فيها وأن المراد مجموع السورة لا جميعها.

لم نقف على سبب ذكره المفسرون لنزولها، إلا أن يكون السبب إشارة من رب العزة إلى قرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وإيذانا بانقطاع الوحي، لاسيما وقد أوجزت أحكام العقيدة والشريعة، وأكملت الدين وأتمت النعمة، وبينت منهج التعامل مع غير المسلمين كتابيين وغيرهم، فكانت مسك ختام للقرآن حسب ترتيب النزول، كما كانت سورة الفاتحة وسورة البقرة قبلها خير افتتاح له حسب ترتيب المصحف، إذ أوجزت الأولى مجمله عقيدة وشريعة ومبدأ ومعادا، وفصلت الثانية أحكام الأولى بما يمهد لما بعدها.

أما تسميتها بسورة المائدة في كتب التفسير والسنة فلِمَا اختصت به من ذكر للمائدة التي سألها الحواريون من عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولما ورد من هذه التسمية في حديث أسماء بنت يزيد السابق ذكره، وفي حديث عبد الله بن عمر إذ قال:" آخر سورة نزلت: المائدة والفتح"، وما روي عن عائشة أم المؤمنين من حديث جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت:"أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال، فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه".

كما أن لها من الأسماء الاجتهادية التي لم تثبت نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم: "سورة العقود" استنباطا من أول آية فيها وهو قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، و"سورة المنقذة" استنادا الى ما روي عن النبى صلى الله عليه أنه قال:(سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة، تنقذ صاحبها من أيدى ملائكة العذاب)، وهو حديث لم نجد له من سند ولم يرو في كتب السنة المعتبرة، فلا يحكم بصحته، وسورة الأخيار لما فيها من الحث على الوفاء بالعهد الذي هو من شأن الأخيار، كما ورد في كتاب "كنايات الأدباء" لأحمد الجرجاني: "يقال: فلان لا يقرأ سورة الأخيار، أي لا يفي بالعهد، وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمون سورة المائدة سورة الأخيار".

تعد هذه السورة مدنية باعتبار نزولها بعد الهجرة النبوية وإن كان في عرفة، عدد كلمات هذه السورة 2800 كلمة، وحروفها 11933 حرفا، وآياتها 120 آية عند قراء الكوفة، و122 آية عند قراء الحجاز والشام، و123 آية عند قراء البصرة. وهي في مضمونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بما قبلها من السور، بدءا بالفاتحة وقد حذرت من اتباع المغضوب عليهم والضالين فجاء في المائدة بسط حالهم ومآلهم في الدنيا والآخرة بقوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة 60، وقوله:﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة 77. وفي البقرة أباح الله تعالى الطيبات من الرزق للمؤمنين بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ البقرة 172 وحرم نكاح المشركات بقوله تعالى:﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ البقرة 221، وفي المائدة زاد تفصيلا فأباح لهم أطعمة أهل الكتاب ونكاح المحصنات منهم بقوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ المائدة 5. وفي البقرة حرم بعض اللحوم تحريما موجزا بقوله:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ البقرة 173، ثم فصل ذلك تفصيلا في المائدة بقوله تعالى:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾المائدة 3، وفي البقرة كان الأمر بالمحافظة على الصلاة مجملا بقوله تعالى:﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة 238، وفي المائدة فصل أحكام الطهارة الواجبة للصلاة بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ المائدة 6. وفي البقرة جاء رفع الحرج عن المؤمنين بالتخفيف من الصلاة عند الخوف بقوله عز وجل:﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 239، وفي المائدة جاء التخفيف عنهم بالتيمم في حالات المرض والسفر وافتقاد الماء بقوله تعالى:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ المائدة 6،

وفي البقرة ذكر أحكام الوصية للوالدين والأقربين بقوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة 180، وفي المائدة فصل أحكام الإشهاد على الوصية في حالة السفر بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية ..المائدة 106، وفي البقرة شرع القصاص في القتلى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى البقرة 178، وبين حكمته بقوله عز وجل:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة 179، أما في المائدة فقد بين أول جريمة قتل وقعت في الناس وكونها السبب في تحريم القتل تحريما مغلظا بقوله تعالى:﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾المائدة 32.

أما عن ارتباطها بسورتي آل عمران والنساء فيكفي أن هاتين السورتين أفاضتا الحديث عن العقود والعهود والمواثيق مع الله ومع الناس في العديد من آياتهما وافتتحت المائدة بالأمر بالوفاء بها جملة في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود﴾ المائدة 1. وفي سورة النساء تحريم السكر عند الصلوات خاصة بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء 43، وفي سورة المائدة تحريمه بتاتا بقوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة90. كل هذا وغيره من أوجه الارتباط المنبثة في كل السور المتقدمة عنها في المصحف يوضح أن المائدة متكاملة معها وشارحة لمجملها ومتممة لأحكامها، يبين ذلك ما أورده القرطبي عن أبي ميسرة قال[[[4]](#footnote-4)]:" المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، وفيها ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها، وهي:" ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾[[[5]](#footnote-5)]، ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾[[[6]](#footnote-6)]، ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾[[[7]](#footnote-7)]، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[[[8]](#footnote-8)]، وتمام الطهور- أي إتمام ما لم يذكر في سورة النساء[[[9]](#footnote-9)] - بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاة..﴾ الآية [[[10]](#footnote-10)]،﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[[[11]](#footnote-11)]، ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ إلى قوله:﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ﴾ [[[12]](#footnote-12)]، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[[[13]](#footnote-13)]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ الْآيَةَ [[[14]](#footnote-14)]. قال القرطبي:"وفريضة تاسعة عشرة وهي قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[[[15]](#footnote-15)]، إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة". ولذلك قال ابن تيمية في "مجموعة الفتاوى":" سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي، ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(هي آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها).

هذه الأحكام الشرعية وغيرها مما حفلت به السورة لم ترد جافة معزولة عن سياق الهدف القرآني العام الذي هو إنشاء أمة ذات تصور إيماني نير سليم ونظام تدبير اجتماعي وسياسي عادل وثقافة جديدة حية فعالة وقيم إنسانية تحفظ الكرامة والحرية وحسن الاختيار، وبناءٍ متين متماسك على أصل واحد تستند إليه وتقيم منهجها على أساسه، وناظم واحد يضبط التصرفات ويميز معادن الرجال، أصل واحد هو التوحيد الخالص لله تعالى ألوهية وربوبية، ونبذ الشرك ظاهرا وخفيا والنفاق عملا ومعتقدا. وأن ذلك كله هو الإسلام، ولا إسلام غيره، الإسلام الذي نزل به آدم عليه السلام إلى الأرض، وبشر به كل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وجدده محمد صلى الله عليه وسلم. به الحكم في الدنيا وعلى أساسه الحساب والجزاء في الآخرة. من رضيه وعمل به فهو المسلم ومن أعرض عنه ونبذ عقيدته وشريعته فليس من الإسلام في شيء. وناظم واحد هو الوفاء المطلق للمواثيق والعهود، سواء كانت مع الله تعالى أو مع خلقه، عهودَ إيمان أو عقدة بيع أو نكاح أو حلف أو مطلق معاملة مباحة لا تتعارض مع أحكام الشرع، يوضح ذلك بدون لبس أو خفاء أن السورة شددت في معظم آياتها على ذلك، وأنها أول سورة في المصحف ابتدأت بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتكرر هذا النداء فيها ست عشرة مرة من أصل 88 مرة وردت في القرآن الكريم، في كل مرة يأتي متعلقا بميثاق خاص، فكانت هذه السورة بذلك حاملة لخصائص الدين وختام الوحي وإكمال الرسالة، تعابيرها حاسمة لا تدع لمتأول حجة، ومضامينها العقدية والتشريعية متراصة متكاملة فيما بينها، ومع ما سبقها من التنزيل، لا تترك لسفيه منفذا للنيل من الدين وأهله، وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا.

على هذا النسق المعجز تتساوق في سورة المائدة تعاليم العقيدة ولاء وبراء كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ المائدة 54/56، مع أحكام العقود والمواثيق نقضا ووفاء كما في قوله تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ المائدة 7، وقوله عز وجل:﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾70/71،مع الحرص على مجادلة أهل الكتاب بمنطق العقل وتبيان صواب العقيدة والتصور الإيماني السليم كما في قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المائدة 18، وقوله عز وجل:﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾75/76، وقوله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِه﴾ المائدة 71، مع التمسكِ في معاملتهم بالحسنى والصفح والعفو كما في قوله تعالى عن بني إسرائيل:﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة 13، والاعترافِ لأهل الفضل منهم بفضلهم كما قال تعالى:﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ المائدة 82، ولزومِ العدل في حالات الغضب والرضا، للبعيد والقريب والعدو والحبيب، كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ المائدة 8، وقوله عز وجل:﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ المائدة2، كل هذا تحت حاكمية منهجٍ واحد هو منهج الدين الواحد، دين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وشريعةٍ محمدية غراء ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ المائدة 44، ويحكم بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده، قال تعالى:﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة 49، بهذا المنهج وهذه الشريعة يوم القيامة يحاسبون وعلى أساسهما يكون جزاء المتقين:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾المائدة 69.

تحت مظلة هذه الأصول العقدية يتم تنزيل الأحكام الشرعية العملية تنزيلا واضحا بأسلوب حاسم لا لبس فيه، بما لا يشق على المؤمن أو يحرجه ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة 6، مع بيانِ مسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم في التبليغ بقوله عز وجل:﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ المائدة 99، ومسؤولية ورثته من العلماء والدعاة إذا أدوا الأمانة ونصحوا للأمة بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾المائدة 105، وبيانِ غناه تعالى عمن أعرض عن الدين أو ارتد بعد الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة 54، محذرا من يوم للجمع لا ريب فيه، يوم لا يعفى من السؤال نبي ولا مرسل، كلهم يشهدون على أقوامهم، قال تعالى:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة 109، وتختم هذه السورة المباركة بموقف مهيب يسأل فيه عيسى عليه السلام وهو الذي آتاه الله البينات وأيده بروح القدس، وهو الوجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، موقف تقشعر له المشاعر وتذوب به المهج والأفئدة تنقله إلينا هذه الآيات الكريمة من قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة 116/120.

الولاء والوفاء قوام الشخصية المسلمة السوية

|  |
| --- |
| قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1)﴾ سورة المائدة |

السواء في الخَلق هو حسن التقويم وسلامة التكوين فيما أبدعه الحق سبحانه وتعالى، والمرء السوي هو الذي خلقه الله على فطرته الأولى كما في قوله تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين 4، وكان ولاؤه لربه علما وعملا وقدماه على المحجة البيضاء. وهو النموذج الذي تمثل به الروح الذي أرسل إلى مريم عليها السلام في قوله تعالى:﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم 17.

والسواء في منهج الحياة هو الإسلام عقيدة وشريعة ونظام تدبير عام للفرد والمجتمع، وهو الصراط المستقيم في قوله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الروم 30، وقوله عز وجل:﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الملك 22. والشخصية السوية ما كان بناؤها وسيرها على الفطرة السليمة، وما الفطرة السليمة إلا الإنسان في حسن تقويمه واستقامة نهجه. وقد جعل الخالق عز وجل لذلك معالم في الكتاب والسنة لا يتيه من اتبعها ولا يضل من اهتدى بهديها، وقال:﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المائدة15/16.

ولئن تعذر تحديد واضح للسواء في شخصية الإنسان على كل المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماعيين، ممن حاد عن منهج الإيمان فحدد كل منهم لها معالم ومرتكزات وشروطا متضاربة متشاكسة لم تفلح في الاتفاق على منهج لتعريفها أو رسم لملامحها أو علاج لحالات شذوذها وانفلاتها، فما ذلك إلا لإعراضهم عن رسالة الخالق عز وجل وهو الذي ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ التغابن 3.

ولئن وظف الساسة والحكام مفهوم السواء توظيفا مغرضا لترويض الشعوب وإخضاعها فتعددت مفاهيم السواء بتعدد الأنظمة والأحزاب، والزعماء والقادة، وأصبح السوي في دولة الحزب الواحد ليس هو السوي في دولة التعددية الحزبية؛ والسوي لدى الدولة العلمانية ليس هو السوي لدى الدولة المذهبية؛ والسوي لدى الدولة الملكية ليس هو السوي لدى الدولة الجمهورية؛ والسوي لدى الدولة الاشتراكية ليس هو السوي لدى الدولة الرأسمالية؛ والسوي لدى هذه الطائفة ليس هو السوي لدى الطائفة الأخرى... وكل من خرج عن سواء هذه الدولة أو تلك، أو هذه الطائفة أو تلك، وجد نفسه تحت طائلة التصفية المادية أو المعنوية، فإنما ذلك لافتقادهم صدق التوجه وإخلاص النية وموضوعية التفكير، وتجاهلهم أن السواء الحق قيمة مجردة تبنى على أساس عقدي سليم من مصدر موثوق، وليس لهم في ذلك إلا الخالق الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والذي خاطب الإنسان إذ أهبطه إلى الأرض ووعده بالرشد والهداية فقال:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة 38، ثم وفى بعهده فأرسل الرسل وأنزل الرسالات وعلم الكتاب والحكمة والبينات وقال:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد 25، فتمت بذلك كلمة االله صدقا وعدلا، وانبنت بذلك الشخصية السوية التي تستنير بنور ربها وتركن إلى بارئها على ركيزتين من نور، ولاء لله عز وجل ووفاء بعهده.

الولاء لله سمة الكون كله منذ خُلِقَ عبدا ساجدا لربه طوعا وكرها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾الرعد15، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ 93، والوفاء بعهد الله سمة الصالحين الأسوياء منذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾الأعراف 172، ثم أمرهم به على ألسنة الرسل والأنبياء، وذكرهم به ضمن آخر ما نزل من الوحي إلى الأرض بقوله تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ المائدة 7.

من ثم كان الولاء لله وحده والوفاء بعهد الله امتثالا لأوامره ونواهيه وانخراطا طوعيا في دورة الكون الخاضع لأمر الله نقطة الارتكاز في بناء الشخصية السوية، فلا ولاء بدون وفاء ولا وفاء بدون ولاء، ولذلك دأب الوحي الكريم في أغلب خطاباته كلما أراد تذكيرا أو تكليفا أن يخاطب أولياءه بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كما في قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾البقرة 208، أو بقوله:﴿ أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كما في قوله عز وجل:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور31، وإذا أراد دعوة الجاهلين إلى إعادة بناء شخصيتهم المختلة المضطربة خاطبهم بقوله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾النساء 170.

ومن ثم أيضا كان الدين كله ولاء ووفاء، وكان من وفاء الله لعباده جَمِيعًا أن يتم لهم ذكر ما لا يكون الولاء والوفاء إلا به، في آخر سورة تنزل وتختم الوحي، وتؤذن بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى، وذلك بقوله تعالى في مستهل سورة المائدة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. ولفظ" أوفوا" من أصل الفعل "وفى" على وزن "وعى" فهو واف، وحروف ( الواو والفاء وحرف العلة) تدل مجتمعة على معنى الإكمال والإتمام، يقال أوفيتك أو وفيتك الشيء إذا قضيته وافيا، كما في قوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) آل عمران57، وتوفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته كله، ، وأوفى الكيل إذا أتمه، ومنه يقال للميت توفاه الله، وكل شيء بلغ تمام الكمال فقد وفى، من ذلك قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) الزمر42، أي يستوفي مُدَد آجالها في الدنيا، ومن ذلك "الوفاء" الذي هو الإتمام في كل الأمور وملازمة الإحسان والقيام بمقتضى العهود والمواثيق بين الخلق فيما بينهم، وبينهم وبين بارئهم، ومنه قوله تعالى: (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ).

أما لفظ"العقود" فجمع عقد، من أصل واحد هو:"العين والقاف والدال"، ويدلُّ على شَدٍّ وشِدّةِ وُثوق، وعَقَدَ الحَبْلَ والبَيْعَ والعَهْدَ يَعْقِدُهُ عَقْداً فانعقَدَ: شَدَّهُ، وأَصلُ العَقْدِ نَقِيضُ الحَلِّ، والعَقْدُ أيضا: الضَّمَانُ والعَهْدُ، كما أن العقود هي أوكد العهود، والفرق بين العهد والعقد أن الأول إلزام بشيء، والثاني إلزام موثق بإشهاد أو كتابة أو يمين أو غير ذلك من أصناف المواثيق والمعاقدات التي يجب الوفاء بها وعدم نكثها أو الإخلال بها، سواء تلك التي عقدها الله تعالى على عباده، أو التي يعقدها الناس فيما بينهم من نكاح وطلاق وشركة، وهبة ورهن، وعتق وتدبير، وتخيير وتمليك، ومصالحة ومزارعة، وبيوع وإجارة وغيرها، أو التي عقدها المرء مع نفسه لله تعالى من طاعة كحجٍ وصومٍ واعتكافٍ وقيام ونذر وغير ذلك، ويدخل في ذلك أيضا كل عقد يوافق الشرع سواء كان في جاهلية أو إسلام، وقد سأل فرات بن حيان العجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حلف الجاهلية فقال:( لعلك تسأل عن حِلْف لخْمٍ وتَيْم الله؟) قال: نعم يا نبي الله، قال: (لا يزيده الإسلام إلا شدة). وقال صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول:(قد شهدت مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت به اليوم لأجبت، وما أحب أن سينقضي ولي حمر النعم)، وكان القرشيون قد تعاقدوا بهذا الحلف على أنْ لا يجدوا مظلوماً بمكة من أهلها أو من غير أهلها إلا قاموا معه حتى ترد مظلمته[[[16]](#footnote-16)].

إن أول عقد في حياة البشرية هو عقد الإيمان بالله تعالى ألوهية وربوبية وقوامة، وسمعا وطاعة وولاء، منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة وأدخله الجنة على ألا يأكل من الشجرة، وأخذ من ظهره ذريته وأشهدها على ذلك، ثم أهبطه إلى الأرض مستخلَفا بشرط إقامة أمر الله فيها، ثم جدد هذه العقود كلها على تعاقب الأجيال بواسطة الأنبياء والمرسلين، كلهم يُذكِّرون بهذه المواثيق ويدعون للوفاء بها، ويُبيِّنون أنها تستوعب جميع تكاليف الدنيا بلاء واختبارا، وتنتظم كل جزاءات الآخرة جنة ونارا، وأنها وصية الله للبشرية وصفقة المبايعة بينه وبينها، وأن وجوب الوفاء بها مطلق إلا إذا أخلت بالعقد مع الله تعالى، يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ البقرة 40

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الأحزاب 7.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الحديد 8.

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ المائدة 7.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ البقرة 84.

﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ الإسراء 34.

ثم أناط عز وجل مهمة التذكير بهذه المواثيق والعهود بورثة للأنبياء هم صادقو علماء الأمة وفقهائها، فقال عز وجل ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ آل عمران 187.

كما جعل من الوفاء أداة لحفظ بيضة الدين والدفاع عن حماه، متخذا مع المؤمنين عهدا واثقهم به، وعقد معهم صفقة مربحة ومقايضة للأرواح بالجنة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ التوبة 110، وأكد تمام الوفاء منه بقوله عقب ذلك:﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة111. فصارت الجنة بمقتضى هذا العقد ملكا للشهداء، وصارت هذه الصفقة متاحة لكل الأولياء والأصفياء في كل مكان وزمان. قال شِمْر[[[17]](#footnote-17)]: ( ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة وفى بها أو مات عليها، ثم تلا (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ …الآية).

لقد كان صلى الله عليه وسلم في الوفاء القدوة الحسنة والإسوة الراقية والمدرسة النموذجية، أقوالا وأفعالا ونوايا وتصرفات، فتأسست بذلك النبوة الخاتمة على أرضية متينة من حسن رعاية المواثيق والعهود، كما شهدت بذلك خديجة الصديقة، إذ رجع إليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من غار حراء مذعورا وقد رأى الملك لأول مرة وسمع الوحي، فقالت له:( كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ)، وشهد به أبو سفيان قبل إسلامه عندما سأله هرقل عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بها قال له: (سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ). وشهدت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالت: (مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ: (أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)، قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ خَدِيجَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا)، وعنها أيضا قالت: (جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو عندي، فقال: (من أنت؟) فقالت: أنا جَثَّامة، قال: (أنت حَسَّانة، كيف أنتم كيف حالكم كيف كنتم بعدنا؟) قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال!؟ قال: (إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان)، وعن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبْعَثَ وبقِيَتْ له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه فقال: (يا فتى لقد شققتَ عليَّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك).

وكما مدح الوحي الكريم بالوفاء أولياءه وأصفياءه أولي الألباب والأبصار بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلا ينقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾الرعد 19-20، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة في ذلك، فقد ندد الحق سبحانه بالغدر والخيانة ونقض العهود متوعدا أربابها بسوء المصير فقال عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الرعد25

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، النساء155

﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾البقرة 100.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران 77.

وأجمل تعالى صفات خونة العهود وناقضيها مبينا عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة قولا فصلا غير مردود فقال:﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة 27، فوصفهم عز وجل بصفات هي منتهى النذالة والخزي والسفالة، أولها نقض العهد وما يستتبعه من فسوق وعصيان وقطع للأواصر الإيمانية معتقدا قلبيا وتعاملا بشريا، وإفسادا في الأرض، قال ابن أبي العالية[[[18]](#footnote-18)] في تفسير هذه الآية:( هي ست خصال من المنافقين، إذا كانت لهم الظهرة (أي السطوة) على الناس أظهروها: إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا اؤتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث، إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا اؤتمنوا خانوا).

لذلك كانت كل العقود والعهود والمواثيق بين الناس منبثقةً من العهد الأول مع الله تعالى، ومسؤولةً بين يديه يوم القيامة، وجوبُ الوفاء بها مطلق غير قابل للنكث والنقض إلا إذا أخلت بعهد الله عز وجل، يسأل المرء عن رفقة ساعة ولقاء لحظة، وعن كلمة عابرة يلقي لها البال أو لا يلقي، كما يسأل عن من يصاحبه السنين والحقب، ويشاركه العبادة أو الجوار أو السكن أو العمل، ويعطيه الميثاق الغليظ صريحا، أو العهد تعريضا وتلميحا، ثم يوليه الدبر إن غضب منه أو مله أو رأى مصلحة في خذلانه والتخلي عنه، أو مكرمة دنيوية في الابتعاد عنه، أو مكسبا في الإضرار به أو الاعتداء عليه، وقد سئل الإمام مالك عن الإشارة بالأمان يعطيها المؤمن للكافر في الحرب أهي بمنزلة الكلام فقال: "نعم، وإني أرى أن يُتقدم إلى الجيوش أن لا تقتلوا أحدا أشاروا إليه بالأمان، لأن الإشارة عندي بمنزلة الكلام، وإنه بلغني أن عبد الله بن عباس قال ما خَتَرَ قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو"، وعن الحسن أن رجلا قال للزبير: ألا أقتل لك عليا؟ قال: كيف تقتله؟ قال: أغتاله، فقال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ، لا يفتك مؤمن)[[[19]](#footnote-19)]، وعن أبي وائل قال:أتانا كتاب عمر ونحن بخانقين: "إذا قال الرجل إلى الرجل لا تخف فقد أمنه، وإذا قال: "مَتَرْس"[[[20]](#footnote-20)] فقد أمنه فإن الله يعلم الألسنة". وعن فضيل الرقاشي قال: حاصرنا حصنا فمكثنا ما شاء الله لا نقدر على شيء منه، وإذا هم قد فتحوا باب الحصن يوما وخرجوا إلينا، فقلنا مالكم؟ قالوا: قد أمنتمونا، فقلنا: ما أمناكم، فقالوا: بلى، فأخرجوا نشابة فيها كتاب أمان لهم كتبه عبد منا، فقلنا: إنما هذا عبد ولا أمان له، فقالوا: إنا لا نعلم العبد منكم من الحر، فكففنا عنهم وكتبنا إلى عمر بن الخطاب فكتب إلينا: إن العبد المسلم ذمته ذمة المسلمين، فأجاز له الأمان.

إلى هذا الحد من الانضباط والالتزام كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرعون حرمة الإنسان مسلما أو غير مسلم، فما ظننا بالمؤمن الذي يصبح ويمسي في ذمة الله وبيننا وبينه عهد التوحيد والإيمان؟ كيف يجوز خذلانه أو الغدر به أو الاعتداء عليه أو خيانة عقوده وعهوده ومواثيقه؟.

ولئن تساءل دعاة العصر عن سر ما يعانون من محن، وأسباب ما يشتكون من فرقة، فإن أمر ذلك واضح بَيِّن، لقد دب فيهم داء الأمم قبلهم، التنافس على الدنيا مالا وجاها وشهوات، فسارعوا إلى التخلي عن بعضهم كلما برقت لهم بارقة درهم أو منصب، متذرعين بمختلف التبريرات والظنون والأوهام، ونسوا أنهم بذلك يخسرون آخرتهم، ولا يكسبون من الدنيا إلا ما قُدِّرَ لهم الاختبار به، ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر جرعة ماء.

لقد ورد الأمر بالوفاء بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ في أول سورة المائدة التي هي الخامسة في الترتيب المصحفي، وقد تقدمتها فيما سبقها أحكام لعقود الإيمان والشرائع في جميع مجالات الحياة، وكذلك شأنها مع جميع السور مطلقا، إذ هي من آخر ما ختم به القرآن وتمت به الرسالة، فكانت آية الوفاء في صدر المائدة إجمالا لما تقدمها من تشريعات وتمهيدا لما بعدها من أحكام متعلقة بالعلاقات الفردية والجماعية مع الله تعالى ومع الناس، وجسرا إلى مرحلة انقطاع الوحي والتحاق النبي الكريم بالرفيق الأعلى، ثم لم ينزل في الشريعة بعد المائدة زيادة ولا نسخ ولا تبديل ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: "أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال، فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه".

لقد قرر الحق سبحانه في صدر هذه السورة وجوب انقياد المؤمنين لجميع التكاليف التي واثقهم بها، عقودا ومواثيق تضبط علاقتهم به سبحانه، وتحفظ مروءاتهم فيما بينهم، وكرامتهم مع غيرهم من مختلف الأديان والأقوام والأجناس، وجعل هذا الأمر أصلا كليا وقاعدة مجملة، شرع بعدها في تفصيل هذه العقود، وكما عودنا الرب الرحيم أن يبادر بالعطاء قبل المنع، وبالمنحة قبل البلاء والاختبار، كان أول عقوده المفصلة في هذه السورة كرما منه وإحسانا وفضلا أن أباح من مملكته عز وجل للمؤمنين، توفيرا لحاجاتهم المعيشية، لحوم حيواناتٍ الأصلُ في ذبحها وأكلها العدوان والظلم، وصارت حلالا لهم بعد ذكر اسم الله عليها وتذكيتها فقال:

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ ولفظ"بهيمة" اسم جنس يطلق على غير الإنسان من حيوانات البر والماء، سمي بهيمة لأنه أعجم ناقص العقل والفهم ولا ينطق، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:(العجماء جُرحُها جُبار)[[[21]](#footnote-21)]، أما الأنعام فهي التي امتن الله تعالى بها على الناس بقوله تعالى:﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الزمر 6، وبَيَّن بعضَ أوجهِ الاستفادة منها فقال سبحانه:﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ النحل 66، وقال:﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل5/6، ثم فصل أصنافها بقوله:﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ الأنعام 143، وهي الكبش والنعجة والتيس والعنزة، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ الأنعام 144، وهي الجمل والناقة والثور والبقرة. وقد أضيف لفظ البهيمة - وهو اسم جنس - إلى الأنعام بقوله تعالى:﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ أي: بهيمة من الأنعام، كما يقال:"سوار ذهب" أي :سوار من الذهب، وذلك من باب إضافة العامّ للخاصّ، لبيان نوعها وتمييزها عن غيرها من حيوانات البر والبحر التي لها أحكام خاصة.

لقد أحل الله تعالى لعباده أكل لحوم كل بهيمة من الأزواج الثمانية، بعد تذكيتها وذكر اسم الله عليها، وأباح لهم جلودها وأصوافها وأوبارها وعظامها، إلا أن هذا التحليل غير مطلق، لأن من الأنعام ما يحرم أكله مما سيذكر في الآيات اللاحقة الأخرى، ولذلك قال تعالى﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي غير ما يأتيكم تحريم أكله تحريما وقتيا أو مكانيا، أو تحريما مطلقا في كل زمان ومكان، مما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم من القرآن، كما في الآية الثالثة من سورة المائدة :﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ... ﴾ الآية، أو يبينه لكم من السنة كما في قوله صلى الله عليه وسلم:(كل ذي ناب من السباع فأكله حرام).

أما ما يصاد من بهيمة الوحش وتلحق بها الطيور فالأصل إباحة صيده، إلا أن يكون الصائد محرما بحج أو عمرة أو في داخل البلد الحرام ولو غير محرم، لقوله عز وجل عقب ذلك:﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، فلا يحل للمحرم الصيد داخل الحرم وخارجه ولا يحل له أكل ما صاده لنفسه أو صاده غيره في الحرم أو خارج الحرم، لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم حمارًا وحشيًا، وهو بالأبواء - أو بوَدّان - فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: (إنا لم نرُدَّه عليك إلا أنّا حُرُم).

وأما صيد الماء بحرا ونهرا وغيره فقد استثناه الحق سبحانه من الحرمة على المحرم وغير المحرم بقوله عز وجل في آية أخرى:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ المائدة 96 فصارت هذه الآية بياناً لتلك الآية السابقة المطلقة وهي قوله تعالى:﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

وبعد أن بين الوحي الكريم في هذه الآية على وَجازَتِها ستة أحكام هي الأمر بإيفاء العقود، وتحليل بهيمة الأنعام، واستثناء ما يتلى تحريمه في الحل والحرم، وتحريم الصيد على المحرم داخل الحرم وخارجه، وعلى المحل في الحرم، وتحليل الصيد لغير المحرم خارج الحرم، وقبل أن يمضي الوحي الكريم في سرد ما حرم من المطعومات، يختم بتذكير المؤمن المتعاقد مع ربه بقاعدة الأمر كله في الخلق والتدبير والمصير، كي تبقى ماثلة في ذهنه مركوزة في قلبه، توجه نواياه وتضبط اختياراته وتقود مسيرته فلا يضل أو ينسى، وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، إرادته سيحانه وتعالى مطلقة ومشيئته حاكمة، وحكمته غالبة في الأمر والنهي والتحريم والتحليل، علة التكليف لديه سبحانه هي ربوبيته وألوهيته وليس ما يدعيه متفقهة المصالحيين والمقاصديين، يختار لعبده ما يُعبِّده به من نظم ومناهج، وما يعلي همته وينير عقله ويطهر ضميره وأخلاقه، ويعيد تربيته على الحق، وشخصيته على السواء ولاء ووفاء، الولاء لله وحده وما ينبثق عنه من ولاء للمؤمنين ولقيم الخير والمحبة، والوفاء بعهده وحده وما يوجبه من وفاء للنفس بإصلاحها، ولعموم الخلق تعاونا وتكافلا وتناصحا وإحسان قول وعمل، وذلك قوام الشخصية المسلمة السوية، إن اختل ولاؤها ضلت وإن اختل وفاؤها خانت.

حرمات الله في دينه وعباده

|  |
| --- |
| قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2) ﴾ سورة المائدة |

الوجود في الأرض تكليف يعقبه الحساب والجزاء، فلا يحسبنَّ أحد أنه عبث أو لعب ولهو، فيغفلَ عن المآل ويستهِينَ بالمصير، قال تعالىو لعب وعبثو:﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ النور 115. والعبادة علة مطلقة لهذا الوجود لقوله عز وجل:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات 56، والبلاء قدر التكليف المقدَّر وسر المنع والعطاء المقرَّر:﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء 35، وهو سبحانه في كل ذلك فعال لما يريد ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ 23، له الألوهية بلا شريك والربوبية بلا منازع، أنزل للناس منهجا يتعبدهم به، وجعل له حرمةً ذات حدود لا يتجاوزها إلا من سفه نفسه، ولا يخل بها إلا من أحاطت به شقوته، حرمةً أحل بها الحلال وحرم بها الحرام، وأمر بتعظيمها وامتثال أمرها ونهيها، فقال عز وجل:﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الحج 30، وجعلها قائمة على عقد التوحيد والإيمان فلا يكون إلا وحده مصدر التحليل والتحريم والأمر والنهي، ثم بين ذلك رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال: (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه[[[22]](#footnote-22)])،

وكما جعل الله تعالى للعبادة حرمة مطلقة، فلا تُقدَّم لغيره، ولا تُقدَّم مختلةً بنقص أو زيادة أو ابتداع، جعل من أعظم حرماته العلاقاتِ الإنسانيةَ والاجتماعية نفوسا ودماء وأموالا وأعراضا، وناط بكل امرئ مسؤولية الحفاظِ عليها ورعايتِها، واتخاذِها سبيلا لقيام مجتمع يأمن فيه الناس فلا ينالهم الأذى ولا يروعهم العدوان، فقال عز وجل:﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ المائدة 32، وقال:﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾الإسراء 33، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ النساء 29/30، وعن أبي بكرة رضي الله عنه فيما رواه البخاري، قال: خطبنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر قال: (أتدرون أي يومٍ هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: (أليس يوم النحر؟). قلنا: بلى. قال: (أي شهر هذا؟)، قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: (أليس ذو الحجة؟) قلنا: بلى. قال: (أي بلد هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: (أليست البلدة الحرام؟) قلنا: بلى. قال: (فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغتُ؟) قالوا: نعم. قال: (اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض). وعن عبد الله بن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول:(مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا).

وكما هي سنته تعالى في العطاء والبلاء، وقد أكرم عباده في الآية الأولى من سورة المائدة بإباحته لهم لحوم بهائم الأنعام بعد ذكر اسمه عز وجل عليها وتذكيتها، انتقل التشريع بهم إلى الاختبار بالحظر والتحريم، ترويضا على السمع والطاعة والانضباط ومخالفة هوى الأنفس وملذات الأطعمة والأشربة والمناكح الفاسدة. فكان النداء الإلهي للمؤمنين تذكيرا بمحارم الله تعالى ونهيا عن انتهاك أحكام دينه والإخلال بمنهجه للحياة، بقوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ولفظ "شعائر" من أصل الفعل "شعر يشعُر شعورا"، أي: أحس وعلم، ومنه قولهم: ليت شعري أي: ليت علمي، أو ليتني علمت، وليت شعري لفلان ما صنع، وليت شعري عن فلان ما صنع، وليت شعري فلانا ما صنع، وأشعره الأمرَ وأشعره به: أعلمه إياه، كما في قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام 109، وفي الحديث:(لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع)، ومنه قول بعض العباد:"من استشعر الموت حُبِّب إليه الباقي وبُغِّض إليه كلُّ فانٍ"، وقول آخر:"أشعرت نفسي تقبُّلَ أمره وتقبُّلَ طاعته". والشعار هو المَعْلَم الذي يدل على الشيء، من الإشعار وهو الإعلام، والشعيرة جمع شعائر هي كل ما جُعِل علَما لطاعة الله تعالى زمانا ومكانا، عقائد وأحكاما وعبادات ومناسك في الحج وغيره، كما في حديث جبريل عليه السلام إذ أتى النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:(مُرْ أُمتك أَن يَرْفَعُوا أَصواتهم بِالتَّلْبِيَةِ فإِنها مِنْ شَعَائِرِ الْحَجِّ).

وشعائر الدين مطلقا هي ما أشعر الله به عباده أنها حده وطاعته وحرماته التي يجب توقيرها وامتثال أمره فيها ونهيه، وقد نسبها السياق القرآني إليه عز وجل تعظيما لها وتحذيرا من انتهاكها أو الاستهانة بها أو العدوان عليها بقوله:﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، كما في قوله تعالى أيضا:﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الحج 30، وقوله:﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج32.

أما إحلال هذه الشعائر في قوله تعالى:﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فهو التهاون بحرمتها واستباحتها للأهواء السائبة والعقول الضالة المنفلتة تعبث بأحكامها تغييرا وتبديلا وزيادة ونقصا، كما كان عرب الجاهلية يفعلون بعمل النسيء في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ التوبة 37، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها).

ثم بعد أن نَهَى الوحي الكريم عن استحلال شعائر الله مجملة، نهيا عاما من غير اختصاص شيء منها دون شيء، شرع في تعداد أحكام شعائر الحج والعمرة من باب عطف الجزئي على الكلي، وهي كما وردت بها النصوص أزمنة، وذوات، وأمكنة، فالشهر الحرام من الشعائر الزمانية، والهدي والقلائد من الشعائر الذوات، والبيت الحرام والصفا والمروة والمشعر الحرام من الشعائر المكانية، وذلك لمناسبة نزول السورة في حجة الوداع فقال تعالى:

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ والشهر الحرام في هذا السياق اسم جنس للأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، قال تعالى:﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ التوبة 36، وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: (أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ). وقد سميت هذه الأشهر حُرُما باعتبار أن القتال فيها محرم وأن مبادأة العدو فيها بالقتال لا تجوز، إلا أن يكون دفعا للصائل والمهاجم، وقد نهى الحق سبحانه عن ظلم النفس بالقتال فيها، وأقام حرمتها على أمره في كتابه من يوم خلق السماوات والأرض، وجعلها من الدين القيم بقوله عقب ذلك ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ التوبة 36، وعندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن القتال فيها نزل الوحي جوابا بقوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ البقرة 217 .

ثم أضاف الوحي إلى الأشهر الحرم منسكين اثنين يحرم انتهاك حرمتهما والاعتداء عليهما بقوله عز وجل: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أما الهدي فجمع مفرده "هدْية" بسكون الدال، وهو ما يتقرب به الحاج إلى الله من النعم ناقة أو بقرة أو شاة، ليذبحها في الحرم يوم النحر آخر أيام الحج أو العمرة، ويحرم عليه نحرها لغير ما سيقت له، وأما القلائد فجمع مفرده قلادة، وهي ما كان يعلق في أعناق الهدي من ضفائر وأعلاق ليعلم أنها هدي فلا يعتدى عليها، فإن تاهت أو ضلت علم من وجدها أنها من هدي الحرم فلا يتعرض لها بسوء، وتطلق مجازا على الأنعام المقلدة لكونها نذرا لله تعالى. أما إحلال الهدي والقلائد فهو استباحتها لغير ما سيقت له من الفدية، أو إهدار حرمتها بغصب أو سرقة أو قطع طريق أو نحو ذلك.

وقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن يتقلد الرجل الخائف من عدو أو عدوان بأوراق أشجار الحرم أو أغصانها أو لحائها ثم يسافر أنى أراد فلا يُعْتدَى عليه أو على أمواله، فأبطل الإسلام بهذه الآية الكريمة هذا العرف ونقله إلى مفهومه الجديد، وهو الأنعام المقلدة المهداة إلى بيت الله الحرام.

ثم أمر الحق سبحانه بعد ذلك بصيانة حرمة وفد الله إلى بيته الحرام للحج أو العمرة، وحرم إحلال الاعتداء عليه فقال عز جل:

﴿ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ ولفظ:﴿ آمِّينَ﴾ من فعل أمَّ يؤُمُّ فهو آمٌّ، أي: قصد يقصد فهو قاصد، أما البيت الحرام فهو الكعبة المشرفة وقد سماه القرآن الكريم البيت العتيق[[[23]](#footnote-23)]، لحرمته وعلوِّ شأنه، وما اختصه الله به من الآيات، قال تعالى:﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحج 29، وقال:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ آل عمران 96/97، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعْضِد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّص بقتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيها[[[24]](#footnote-24)] فقولوا له: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب)، وروى عبيد بن عمير عن أبيه وكانت له صحبة أن رجلا قال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: سبع، فذكر منها: (استحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا)، وما كان هذا شأنه عند ربه فحري بقاصديه لنيل فضل ربهم ورضوانه أن يُوَقَّروا فلا يُؤْذَوْا، ويُحْمَوا فلا يُعْتَدى عليهم ولا تُقْطع عليهم الطريق، ولا يُحال بينهم وبين البيت الحرام لأي سبب من الأسباب، لأن أمنهم من أمنه، وحرمتهم من حرمته، وذلك هو المراد بالآية الكريمة.

لقد حرمت هذه الآية الكريمة كل عدوان على من يقصدون البيت الحرام للتعبد حجا أو عمرة، ولم تبح لأي كان أن يخل بأمنهم في الطريق أو في مكة المكرمة، فكانت فترة الحج بذلك واحة للأمن العام، الجميع في حرمة الله تعالى، لا يبادَر فيها بالشر ولا يُرَد به، يلقى الرجل فيها قاتل أبيه فلا يعترض له، ولا يهيجه أو يؤذيه بقول أو عمل، حتى الطير والوحش لا يصاد، والنبات لا يُعْضَد، يقول الحق تعالى:﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة125. ويقول:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ العنكبوت 67، حتى إذا قضى الناس مناسكهم وتحللوا من إحرامهم أبيح لهم الصيد مطلقا خارج الحرم، ممارسة وطعاما بقوله عز وجل بعد ذلك:﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، تعقيبا على تحريمه في الآية الأولى من سورة المائدة بقوله تعالى:﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

ولئن كانت المدينة الفاضلة لدى أفلاطون ومن نهج نهجها هي التي يعيش فيها الناس أحرار الشهوات متسيبي العواطف والرغبات بهيمي العلاقات والنزوات، فإن الإسلام قد أقام في مواسم الأشهر الحرم مجتمعا إنسانيا حقا وفاضلا حقا، مجتمعا يأمن فيه المرء على نفسه وماله وعرضه، في جو من المودة والمحبة والسماحة والتغافر والتطاوع، وحالة من المساواة مخبرا ومظهرا ومطعما ومشربا وملبسا، والترفع عن غرائز الانفعال الأهوج ونوازع الانتقام والثأر.

إلا أن أجواء الأمن والسكينة التي يقيمها الحق سبحانه في حرمه أربعة أشهر كاملة قد تتعارض مع ما يحتمل أن يكمن في نفوس بعض الأفراد أو سياسات بعض الدول من آثار خلافات وصراعات شخصية أو قبلية أو اجتماعية أو سياسية، فيؤدي ذلك إلى المس بحرمة قاصدي البيت الحرام بالصد والمنع أو التخويف أو الاعتقال والقتل، لذلك نبه الحق سبحانه إلى هذه الحالة وحرم الاستجابة لدواعي الإضرار بوفد الله تعالى إلى بيته الحرام فقال:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ ولفظ ﴿ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ من فعل "جَرَمَ" أي قطع، يقال:جرم النخلة إذا جنى تمرها، وجرم صوف الشاة إذا جزه وأخذه، ومما يُرَدُّ إليه قولهم: "جَرَمَ"، أي كسب، لأن الذي يحوزه فكأنما اقتطعه وكسبه، وقولهم فلان جريمة أهله أي كاسبهم. أما الشنآن فهو شدة البغض، أي لا يحمِلَنَّكم بغضكم لمن صدكم عن البيت الحرام على أن تصدوهم عنه أو تنتقموا منهم، أو لا يُكسِبَنَّكم بغضُكم إثمَ العدوان عليهم. والظاهر من سياق الآية أن بعض المسلمين بعد فتح مكة لم ينسوا ما أصابهم ممن صدوهم عن المسجد الحرام في السنة السادسة للهجرة بالحديبية[[[25]](#footnote-25)]، فهموا بالانتقام منهم أو صدهم عنه عام حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، فنزلت الآية تحرم ذلك وتنهاهم عنه وتعده عدوانا وظلما، وتحضهم على تطهير القلوب من بغضائها والنفوس من سخائمها، لأن حرمة البيت الحرام مقدمة على غرائز الثأر وشهوة الانتقام، ولأن جميع قاصدي البيت في هذا العام مسلمون، والمشركون الذين صدوهم عنه عام الحديبية قد أسلموا، والإسلام يجُبُّ ما قبله من ذنب وإساءة، وقد حرمه الله تعالى على المشركين من قبل في السنة التاسعة للهجرة بقوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ التوبة 28، فلم يحج البيت بعد هذه السنة مشرك، لما رواه الطبري عزوا إلى ابن عباس والسدّي ومجاهد وقتادة وابن جريج من أن النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يوم عرفة وهو يلقي خطبته على المسلمين نظر أمامه فلم ير إلّا موحّدا ولم ير مشركا فحمد الله...

وكعادة التربية القرآنية إذ تطهر القلوب من أدرانها وأضغانها، لا تتركها فارغة جوفاء تائهة، ولكن تمدها بالبديل الرباني تزكية وترقية وإعلاء، وكما نهاهم الحق سبحانه عن إحلال شعائر الحج أمكنة وأزمنة وأناسي وشجرا وحجرا وعن التمسك بسخائم النفوس ضغائن سائبة وأحقادا دفينة، عوضهم بخير من ذلك فقال:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ والبر لغة هو الصدق والإحسان إلى الخلق، والبِرُّ: خلاف العُقوقِ، والمَبَرَّةُ مثْله. وقَدْ بَرَّ والِدَه يَبَرُّه ويَبِرُّه بِرّا ، فهو بَرٌّ به وبارٌّ، وجمع "البَرّ": أَبْرارٌ، وجمع الأبرار: بَرَرَة.

والبِر ُّشرعا هو حسنُ الصلة مع الله والناس، أصل الكلمة كما قال الراغب في مفردات القرآن من " البَرّ " بفتح الباء، خلاف البحر، وتُصُوِّر منه التوسُّع فاشتق منه البِرّ، أي التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو قوله تعالى﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾الطور28، أي العظيم واسع الرحمة صادق الوعد جزيل العطاء، وإلى العبد تارة فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسع في طاعته، فهو من الله تعالى سعة الإحسان وجزيل الثواب، ومن العبد الطاعة والامتثال وحسن القصد، والمراد به مطلقا طاعة الله عز وجل وامتثال أمره في دقيق العمل وجليله. إذ لا صلةَ خيرٌ مِن جَعْل توجيهاته في الكتاب والسنة دليلا ومرشدا ونبراسا، ويشمل بِرَّ المعتقد توحيدا وتصورا إيمانيا سليما واضحا، وبرَّ العبادة صلاة وصوما ونسكا، وبرَّ المعاملة صدقا وخلقا رفيعا وإحسانا، ومن ثم يتسع معناه لكل خير وصلاح.

وإذا كان البر عملا للخير ومواظبة عليه، فإن التقوى هي اتقاء الشر واجتنابه، ولا شرَّ أشد من الكفر والمعصية، لذلك جمع الله تعالى في هذه الآية بين البر والتقوى لتتم بذلك للمؤمن الصالحات فقال﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، أي لِيُعِنْ كلٌّ منكم غيرَه على فعل الخير ونشره واتقاء الشر واجتنابه، عبادة ومعاملة في جميع المجالات الدينية والدنيوية. وذلك ما أجمله القرآن الكريم بقوله عز وجل:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ البقرة 177.

وفي مقابل ذلك نهى الحق سبحانه عن كل ما ينافي البر والتقوى فقال عقب ذلك:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ولفظ "الإثم" من أصل واحد ذي ثلاثة أحرف هي الهمزة والثاء والميم، وتدل على البطء والتأخر، والإثم مشتق منه، وهو اسْمٌ للأفعال المبطئة عن الثواب - كما يقول الراغب-، والآثم بطيء عن الخير متأخر عليه، ثم أطلق لفظ "الإثم" على كل ذنب ومعصية، ولفظ "الآثم" على متحمل الإثم. أما العدوان فهو تجاوز الحدود التي أمر الشارع بالوقوف عندها سواء في العبادات أو المعاملات.

والمراد بالآية حث المؤمنين في حالات التباغض والشنآن على التغافر والتسامح ونبذ نوازع الانتقام والتشفي، لأن الأصل في علاقة المؤمن بأخيه هو التعاون على طاعة الله، وعلى كل خير وبر وإحسان لخلقه، والتناهي عن ارتكاب الذنوب والآثام، وعن الاعتداء على الحدود الشرعية المقررة في الكتاب والسنة، وعن المس بحقوق الغير مبادأة ومجازاة، فعلا ومشاركة، أو دعما وتشجيعا، أو إقرارا وسكوتا، ويستوجب ذلك عليهم الدعوةَ إلى المعروف من المعتقد والقول والعمل، وإعانةَ من آثره ورغب فيه، ونُصْحَ من رغب عنه ونأى بجانبه، لقوله تعالى:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران 104، وقوله:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ التوبة 71، وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)، وقوله:(من أعان على خصومة بظلم، أو يعين على ظلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع)، وقوله:(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)، وقوله: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه)،

ثم ختم الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بإنذار الذين يقرون الإثم والعدوان أو يشاركون فيهما أو يمهدون لهما السبيل إعانة أو سكوتا بقوله عز جل:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: اجتنبوا الإثم والعدوان واحذروا أن تخالفوا أمر الله تعالى لكم بالتعاون على البر والتقوى، فإنه عز وجل شديد العقاب لمن خالف أمره وآثر عصيانه واتبع غير صراطه المستقيم.

لقد حرم الحق عز وجل تحت طائلة العقاب الشديد انتهاك كل الحرمات وأضافها إليه، تهويلا لأمر الاستهانة بها أو إحلالها، وجعل كل مس بها عدوانا على حقه وعلى حقوق عباده من كل جنس ولون ودين، أحكامُ شرعه عز وجل يَحرُم تجاوزُها، ودماءُ خلقه وأعراضهم وأبشارهم وأموالهم يحرم إهدارها واستباحتها، وحرياتهم واختياراتهم تحرُم مصادرتُها أو الاستبداد بها، وجَعَل المحافظةَ على أمن الناس وسلامة المجتمع أمانةً في عنق المؤمن، وأمَرَ بأداء هذه الأمانة إلى أهلها في مجالَي التدبير الشخصي والعام، فقال عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ النساء 58، وقال صلى الله عليه وسلم:(أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك). ولا شك أن من استخف بشيء من حرمات الله أو حرمات عباده لا يؤتمن على عرض أو مال أو دماء أو حقوق، ومن خان الله تعالى فالأجدر به أن يخون عباده.

من الفسق استحلال ما حرم الله

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المائدة 3 |

جرت عادة الفصحاء والحكماء أن يجعلوا خاتمةَ ما يُنجِزون ويدبِّجون، ملخِّصةً لما سبق إنجازه ومتممةً بالشرح والبيان لما يحتاج إلى شرح وبيان، ومضيفةً ما لا يكمل الأمر إلا به تذييلا وتعقيبا، سواء كان ذلك قولا أو عملا، دراسة علمية أو فكرية أو عقدية أو أدبية أو مرافعة جدلية، من أجل ذلك كان بناء سور القرآن الكريم وترتيب آياته وسلاسة ألفاظه ودقة تعابيره وبلاغة معانيه مَعْلَمةً تشرئب إليها أعناق العلماء عاجزة، وتتسامى نحوها همم الحكماء حسيرة، وتتطلع إليها أبصار البلغاء كليلة، تتضح هذه الظاهرة القرآنية بجلاء لكل من ألقى نظرة متأنية متدبرة فاحصة لسورة المائدة، وقد كانت آخر سورة في البناء العقدي والنفسي والتشريعي للأمة المسلمة، لم ينزل بعدها إلا سورة النصر كما ورد في بعض الروايات، وكلتاهما نذير بتمام الدين وانقطاع الوحي والتحاق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى.

لذلك بادر الوحي الكريم في هذه السورة إلى إنزال ما بقي من تشريعات الأطعمة كي يكتمل للمؤمن أمر دينه في هذا المجال، فتنفسح له أبواب السماء بالقبول، وأبواب الجنان بالترحاب، لا سيما والمطاعم الفاسدة بعد الشرك من أهم عقبات الطريق وعوائق السلوك، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نبَتَ منَ السُّحْتِ وكلُّ لحمٍ نبَتَ منَ السُّحْتِ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ).

ولئن كان الحق سبحانه قد امتن على المؤمنين في سورة "يس" وهي مكية بخلق الأنعام وتذليلها لهم إذ قال عز وجل:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس 71/73، ثم قرر عز وجل تنزيل أحكامها لطفا وتيسيرا وتدرجا، فحث في الفترة المكية أولا على الأكل مما ذكر اسم الله عليه عند التذكية بقوله تعالى:﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الأنعام 119، ثم حرم عليهم ثانيا أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، ويعُمُّ ما ذُبح متروكَ التسمية وما مات حَتْفَ أنْفِه من غير قتل وهو الميتة وما قُتِل بسبع أو تَرَدٍّ أو غير ذلك فقال تعالى:﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الأنعام 121، ثم أضاف في نفس المرحلة المكية بتفصيلٍ أكثرَ محرماتٍ أخرى مع ثبات تحريم متروك التسمية بقوله تعالى:﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الأنعام 145، وقوله عز وجل:﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل115. فإنه سبحانه وتعالى قد استهل الآية الأولى من سورة المائدة بذكر ما أحل لهم من لحومها، وآذنهم بتَذَكُّرِ ما تُلِيَ وما يُتْلَى عليهم من محرماتِ بعضِها بقوله عز وجل:﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ المائدة 1، ثم وضع في الآية الثانية قاعدة عامة مطلقة للتحريم مطبَّقة على بعض جزئياتها في أحكام الحج والعمرة بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ المائدة 2، ثم أكمل في الآية الثالثة عقب ذلك تشريع محرمات اللحوم مضافا إلى ما تُلِيَ من القرآن المكي سابقا من غير أن ينسخه، وذلك بقوله عز وجل:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾

أما ﴿الْمَيْتَةُ﴾ فهي كل ما مات حَتْفَ أنفه من غير سبب خارج عنه، مما أباح الله أكله من حيوانات البر أهليها ووحشيها وطائرها، وقد كان عرب الجاهلية يقولون:"تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله"، وقد استثنى الشرع الحكيم ميتة البحر وميتة الجراد من الحرمة إذا ثبت عدم تلوثهما أو إضرارهما لقوله صلى الله عليه وسلم: (أُحِلَّتْ لنا مَيتتان: الحوت والجراد)، وقوله: (ما ألقى البحر أو جزر عنه فكلوه، وما مات فيه وطفا فلا تأكلوه)، والجمع بين الحديثين يقتضي تحليل ميتة البحر إذا كان موتها بخروجها منه لمجرد قوة مده أو جزره وتحريم ما مات بمرض أو تسمم أو تلوث قاتل. ويقاس عليها ميتة الجراد إذا لم يمت بالمبيدات السامة التي يرش بها في هذا العصر.

أما الانتفاع بجلد الميتة ففيه خلاف بين المذاهب، وداخل كل مذهب على حدة، ما بين محرم لذلك مطلقا، وبين مجيز له في جلود الأنعام كلها دون السباع، وبين مجيز له مطلقا في ميتة كل حيوان إلا الخنزير، وبين مجيز لجلد الخنزير نفسه استعمالا لحديثه صلى الله عليه وسلم:(أيُّما إهاب دبغ فقد طهر)، في تفاصيل كثيرة لا يتسع لها منهج التفسير ويرجع إليها في فقه الفروع.

﴿وَالدَّمُ﴾ وقد ورد تحريم الدم في هذه الآية مطلقا، كما ورد في آية أخرى مقيدا بقوله تعالى:﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ الأنعام 145، أي سائلا، فوجب تحريمه بهذه الصفة ولو ركد بعد خروجه من البهيمة حملا للمطلق على المقيد، شربا وأكلا، مطبوخا وغير مطبوخ، سواء كان استخلاصه بالفصد أو التذكية أو غيرها، وقد كان المشركون يملؤون الأمعاء بالدم ويسمونها "الفصيد" ويشوونها ويأكلونها، وأحيانا في المجاعات يفصدون الإبل ويأكلون أوبارها مغموسة في دمائها. أما الدم الجامد بأصل الخلقة وهو الكبد والطحال، وما يتخلل اللحم عادة فإنه لا يعد مسفوحا.

﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ حرام كله، لحما وعظما وجلدا وشعرا، بيعا وشراء، بريا كان أو مستأنسا، وقد نَفَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجرد لمسه إذ قال: ( من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه )

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والإهلال رفع الصوت كما في الحج بالتلبية بقولهم:"لبيك اللهم لبيك.."، ومنه استهلال الصبي إذا صرخ عند الولادة، وفي الحديث: (لا يرث الصبى حتى يستهل صارخا، واستهلاله أن يصيح أو يعطس أو يبكى)، والمعنى أن ما يذبح قربانا لغير الله أو معه، وما لم يذكر اسم الله عليه تعمدا، محرم أكله على المسلمين، وكان الكفار يذبحون لآلهتم ويرفعون أصواتهم باسم اللات أو باسم هبل أو غيره، أو باسم بعض الأنبياء والملائكة، كما يفعل بعض الجهلة عندنا بقولهم عند الذبح "هذه ذبيحتك يا سيدي فلان". وفي الحديث الصحيح: (لعن الله من ذبح لغير الله)، وروى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة). ومن ذلك ذبائح التفاخر والتنافس على السمعة والمجد، وهي ما كانت تسمى في الجاهلية "معاقرة الأعراب"[[[26]](#footnote-26)] التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود عن ابن عباس، وطعام المتبارِيَيْنِ الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن أكله فيما رواه عكرمة عن ابن عباس.

وسبب التحريم في كل هذه الحالات عقدي محض، لأن الإهلال فيها لغير الله شرك، وأكل المسلم منها إقرار لهذا الشرك.

وهذه المحرمات الأربعة هي التي ورد تحريمها من قبل في المرحلة المكية بقوله تعالى:﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنعام 145، وقوله عز وجل:﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل 11، وفي بداية المرحلة المدنية بقوله عز وجل:﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ 173البقرة، وترك الوحي تفصيل ما يندرج تحتها من الخبائث إلى ما بعد فتح مكة في حجة الوداع، تدرجا في التحريم كما كان الحال في التدرج لتحريم الخمر، لئلا ينفر العرب من شدة هذه التكاليف، أو يشق ذلك على حديثي العهد بالإسلام، أو على فقراء المسلمين في فترة استضعاف المشركين لهم وطمعهم في أن يرتدوا عن دينهم إن أحرجتهم تكاليفه. ثم أعيد التذكير بها وتأكيدها في سورة المائدة، لتضاف إليها وتبنى عليها بقية محرمات اللحوم التي لم تذكر من قبل، وأولها قوله تعالى:

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي ماتت خنقا بسبب خارج عنها، كالتي يخنقها الرجل من أجل أكلها كما كان يفعل أهل الجاهلية، أو التي يخنقها الغاز في مكان مغلق، أو التي يستدير حبل على عنقها فتموت به، أو التي تدخل برأسها بين عودين من شجرة فتخنق فتموت، وكل منخنقة بأي سبب أكلها حرام.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ أصل الكلمة من فعل: وَقَذَهُ يَقِذُهُ وَقْذاً أي: ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت، ووقذ الحية إذا شارف بها على الموت، يقال: وقذه النفاق أو المرض إذا أوهنه وأضعفه فهو وقيذ، وأوقذه النعاس إذا غلبه، والوقيذ من الرجال: البطيء الثقيل، ومنه الموقوذة، وهي التِي تُضرب بعصا أو مطرقة أو حجارة حتَّى تُشرف على الْموت ثمَّ تُتْرك تَمُوت بِغَيْر ذَكَاة، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية. ومن ذلك الخذف وهو الرمي بالحصا أوالخزف أو الطين اليابس سواء كان الرمي باليد أو المخذفة أو المقلاع، وقد نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنه لا يصيد صيدا ولا ينكأ عدوا ولكنه يكسر السن ويفقأ العين).

ووقْذُ الحيوان مطلقا محرم لأنه تعذيب له، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته). وقد حرمت هذه الآية أكل موقوذة الأنعام وكل ما يحل أكله من الوحش والطير، لأنها تدخل في عموم الميتة.

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ من أصل الفعل:"رَدِيَ" يَرْدَى رَدىً فهو رَدٍ أي هالِكٌ، والردى هو الموت، وأردى الحصان راكبه إذا أسقطه، وتردى في الحفرة أو البئر أو من جبل إذا سقط، والتردي هو السقوط من علٍ، والمتردية هي البهيمة التي وقعت من مكان مرتفع كجبل أو حائط أو غير ذلك فماتت، وهي في حكم الميتة يحرم أكلها.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي البهيمة تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح، فيحرم أكل لحمها.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي أكيلة السبع، وهي ما بقي من لحم البهيمة التي افترسها السبع، والسبع هو كل ذي ناب ومخلب من آكلات اللحوم.

وهذه الأصناف الخمسة وهي: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع إن أدركها صاحبها حية غير ميؤوس من بقائها فله أن يذكيها ليحل أكلها. أما إن كانت مما يموت عادة بما أصابها فلا تصح تذكيتها، لقوله تعالى عقب ذلك:

﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والتذكية هي الذبح أو النحر أو العقر بالطريقة الشرعية، يقوم به مسلم عاقل عارف بالذبح، قاصدا به التذكية، وغيرَ قاصدٍ لهوا أو إتلافا أو تجريبا لسلاح أو غير ذلك، على أن يسمي الله ويستوفي قطع الحلقوم والودجين.

أما الذبح والنحر ففي المقدور عليه، سواء كان مستأنسا أو وحشياً، وأما العقر ففي غير المقدور من الوحش والبهيمة النافرة. وسنة ذكاة الغنم والبقر الذبح، وسنة ذكاة الإبل النحر ويكون في اللَّبَّة، وهي موضع القلادة من الصدر وموضع النحر من الإبل، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الذكاة ما بين اللَّبة واللَّحْيَيْن) وهما الفَكَّان.

ثم أضاف الحق سبحان صنفا آخر من اللحوم المحرمة غير ما سبق بقوله:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾والنُّصُب من فعل"نصب ينصب" العلمَ أو الرايةَ إذا أقامها وثبتها في مكان ما، والنَّصْب والنصُب العلم المنصوب، وفي التنزيل:﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ المعارج 43، والنُّصُب في هذه الآية جمع أنصاب، وهي حجارة أَو أصنام كَانت الْجاهلِيَّة تنصبها وتعبدها وتذبح قرابينها عليها، وتصبُّ عليها دماء ذبائحها، وتشرِّح عليها لحومها، فحرم الحق سبحانه ما ذبح على هذه الحجارة ولو ذكر اسم الله عليها عند الذبح لما في ذلك من الشرك وشبهاته.

أما الصنف الحادي عشر من محرمات اللحوم في هذه الآية الكريمة ففي قوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾والاستقسام من فعل "قسم" مزيدا بالألف والسين والتاء للطلب، أي طلب قسم الرزق والنصيب والحاجات، والأزلام هي القداح واحدها زَلَم على وزن قلم وأقلام، وهي حجارة كانوا يستقسمون بها بطريقتين، إحداهما لمعرفة الغيب في زعمهم، فيكتبون على إحداها:"أمرني ربي" وعلى الثانية "نهاني ربي" ويتركون الثالث بينهما ليس عليه كتابة، فإن خرج الذي كتب عليه "امرني ربي" مضى لما عزم عليه، وإن خرج الذي عليه "نهاني ربي" كف عن المضي لذلك، وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعادوا الاستقسام.

وثانيتهما إذا أرادوا أن يقتسموا لحما استقسموا عليه بها، فيجتمع عشرة أنفس بعدد الأزلام، ويشترون جزورا، ويجعلون لحمه على تسعة أجزاء، ويعطي كل واحد منهم سهما من سهامه، ثم يجمعون السهام عند واحد منهم، ثم يُخرج هذا الرجل السهام واحداً واحداً، فكل من خرج سهمه يأخذ جزءاً من ذلك اللحم، فإذا خرج تسعة من السهام لا يبقى شيء من اللحم لعاشرهم ويكون ثمن الجزور كله عليه. لذلك حرمت الآية هذا الاستقسام بنوعيه، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من عاقبته بقوله: (لن ينال الدرجات العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سفره تطيرا).

وبتحريم الاستقسام تم عدد محرمات اللحوم في هذه الآية الكريمة أحد عشر محرما، أضيفت إليها في نفس سورة المائدة شروح وتفاصيل موجزة متعلقة بتشريع صيد البر والبحر في الآيات: 4 و94 و95، و96، وبإنكار الحق سبحانه وتعالى على مشركي العرب تمسكم بأوهام وخرافات حرموا بها على أنفسهم الانتفاع ببهيمة الأنعام التي أحلها لهم بقوله عز وجل:﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المائدة 103،

كما حرمت السنة النبوية أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، والخطفة والمُجَثَّمة والنُّهْبَة لما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ) وما رواه أبو ثعلبة الخشني قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخَطْفَةِ والمُجَثَّمَة والنُّهْبَة وعن أكل كل ذي ناب من السباع)، والخطفة هي مَا اقتطعه السَّبع من الدَّابَّة فاختطفه، وكُلُّ مَا اقْتُطِع من الحيوان وهو حي يعد ميتَة لَا يحل أكله، وَالْأَصْل فِي ذلك أَنه صلى الله عليه وسلم قدم الْمَدِينَة وَبهَا نَاس يَعْمِدُونَ إِلَى أسنمة الْإِبِل وأليات الْغنم فيجبُّونها – أي يقتطعونها – فقال صلى الله عليه وسلم: (مَا وَقع من الْبَهِيمَة وَهِي حَيَّة فَهُوَ ميتَة). وأما المجَثَّمة فهي الحيوان تربطه وتجثِّمه ثم تتخذه هدفا ترميه حتى تقتله، كما هو معمول به في بعض مباريات الرماية المعاصرة، وأما النهبة فهي مَا يُؤْخَذُ سَلْباً ومُكَابَرَةً.

ولقد بذل بعض المفسرين غاية جهدهم من أجل استنباط حكمة الإباحة والتحريم في التشريع الإسلامي الخاص بهذه اللحوم على اختلاف أصنافها، إلا أن الأنسب إيمانيا أن يَكِلَ المؤمن ما لم يبينه القرآن والسنة منها إلى من بيده الأمر والنهي عز جل، ثم لا يجد حرجا في نفسه مما قضى ربه ويسلم تسليما. ويكفينا أنه تعالى حرمها وجعل استحلالها فسقا وقال:

﴿ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ ولفظ "الفسق" مصدر فعل: فسق يفسُق ويفسِق فِسقا، وفسوقا، يقال فسقت الرطبة عن قشرها أو الفاكهة عن غمدها إذا خرجت، وفسق الرجل إذا خرج من طاعة ربه، والفسق مطلقا مخالفة أحكام الدين، إلا أنه في الشرع نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة هو رديف الكفر الأكبر كما في قوله تعالى:﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة 26/27 ، وفسق أصغر غير مخرج عن الملة كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ الحجرات 6. وعلى ذلك فإن موقف المؤمن من أكل اللحوم المحرمة على حكمين، إن أكلها مستحلا لها كان فسقه أكبر، وإن أكلها مختارا غير مضطر وغير مستحل لها ففسقه أصغر، وهو بذلك عاص مذنب لم ينتف عنه مطلق الإيمان. والعاقل من آثر النجاة في آخرته فكان مطعمه حلالا ومشربه حلالا، ذلك أزكى له وأطيب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا من مخاطر الأطعمة المحرمة وناهيا عنها:(أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ المؤمنون 51، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ البقرة 172، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك)

إكمال الدين وإتمام النعمة

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)﴾ المائدة |

في ليلة شديدة الخوف تحت حصارِ تحالفِ المشركين ويهود، عند الخندق، يقول صلى الله عليه وسلم:(مَنْ رجل ينظر لنا ما فعل القوم؟ جعله الله رفيقي في الجنة)، يقول حذيفة:يشرط رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة والرجوع، فما قام منا أحد، ثم عاد يقول ذلك ثلاث مرات، وما قام رجل واحد من شدة الجوع والقر والخوف، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لا يقوم أحد، دعاني فقال:(يا حذيفة)، قال حذيفة:"فلم أجد بدا من القيام حين فَوَّهَ باسمي، فجئته ولقلبي وَجَبَانٌ في صدري"، فقال: (تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟)، ثم قال: (اذهب فانظر ما فعل القوم، ولا ترمِيَنَّ بسهم ولا بحجر ولا تطعن برمح ولا تضرِبَنَّ بسيف حتى ترجع إلي) فقلت:"يا رسول الله ما بي يقتلوني، ولكني أخاف أن يمثلوا بي"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس عليك بأس)، ثم انطلق حذيفة لما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

 هذه الحالة التي عاشها المسلمون يومئذ من الخوف والترقب والجوع والقر، لا أبْلَغَ في وصفها من قول الحق سبحانه:﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الأحزاب 10/11.

وعندما حيل بين المسلمين وبين نسكهم يوم الحديبية وهم مكتئبون حزانى محبطون أنزل الله تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح1/4 ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد أنزلت علىَّ آيةٌ أحب إلي من الدنيا جميعا).

وعند الإعداد لفتح مكة يراسل البدري حاطب بن أبي بلتعة سرا مشركي قريش محذرا، فيخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، فيقول له:(ياحاطب، ما حملك على هذا؟)، فيقول حاطب:" يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم". فيغضب عمر بن الخطاب ويقول:"يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل نافق". إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكفه قائلا:(وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

هذه ثلاث نماذج مما عاشه المسلمون الأوائل وهم يؤسسون مع نبيهم صلى الله عليه وسلم أول مثال وأكمله لأمة حملت أمانة الدين، وإمامة البشرية نحو مجد الدنيا والآخرة، كانوا بين خوف ورجاء وتضحية وفداء، وترقب عدو وجوع وفقر ولأواء.

واستمر الوحي الكريم يرعاهم ويصبرهم، يرفع معنوياتهم، ويرشد تصرفاتهم، ويزكيهم ويحررهم، ويسكن روعتهم، حتى إذا ما فتحت مكة وآذن الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالالتحاق بالملأ الأعلى كانت حجة الوداع ونزول آخر تشريعات من القرآن الكريم، فتم لهم بذلك الدين وكسرت شوكة الخوف وذل الشرك ودانت لهم العرب، ولم يبق مبرر للخوف على مال أو ولد أو أهل كما كان حال حاطب بن أبي بلتعة إذ خاف على ذوي رحمه،  ولم يبق عذر لمداهنة في أمر الله أو تستر على دعوة للعقيدة أو كتمان للحق. ولأن من طبيعة النفس البشرية أن تغفل عن النعمة إذا ما غمرتها فلا تذكرها إلا حين تفتقدها، وتستسلم للرخاء إذا عمها فلا تنهض إلا عند زواله، فقد كان من رحمة الله بالمسلمين أن ينبههم إلى ما أفاض عليهم من فضل القوة والتمكين وما هداهم إليه من كمال الدين، وما ائتمنهم عليه من إمامة للبشرية وما ناط بهم من شهادة في الدنيا والآخرة، إعدادا لما ينتظرهم في مرحلة ما بعد النبوة، واستنهاضا لاستلام مسؤولية الرسالة بعد غياب صاحبها، وتبليغها بعد وفاة رائدها صلى الله عليه وسلم، وذلك بقوله عز وجل لهم ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وقد نزلت هذه الآية الكريمة في نفس يوم عرفة من حجة الوداع بعد العصر، وسرعان ما أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم باختتام رسالته ودنو أجله، فكانت هِجِّيرَاه[[[27]](#footnote-27)] من عصر ذلك اليوم إلى الغروب جوابا منه عليها قوله تعالى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران 18.

أما لفظ ﴿الْيَوْمَ﴾ في هذه الآية فيعني يوم عرفة من حجة الوداع،  وهو الذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته يومئذ بقوله:(إن الزمان قد استدار كهيئتِهِ يومَ خلق الله السماوات والأرض)[[[28]](#footnote-28)]، وهو اليوم الذي تم فيه بنزول سورة المائدة بناء الدولة الإسلامية عقيدة وشريعة ونظام تدبير عام متماسك، له قيمُه التي تحدد الحقوق والواجبات الفردية والجماعية، ومبادئُه التي تضع صفاتِ المواطنةِ الصالحة وشروط التعايش السليم الآمن، وتحدد الآليات الشوروية الخاصة باتخاذِ القرارات وبناءِ الأجهزة الخدمية التنفيذية، فتكامل بذلك التصور الإسلامي الذي يتوج مسيرة الإنسانية بالرشد، ويعيدها إلى الوضع السوي الذي تنبذ فيه ضلالات الاستبدادِ والتحكم والقهر، وإلى ما فطرت عليه يوم خلق الله السموات والأرض، وبَرَأَ آدمَ وذريتَه على أحسن تقويم. فكان حريا بالأمة في ذلك اليوم أن تبلغ مرتبة عالية من الثقة بربها وبمنهج دينها وتصورها الإيماني المستنير وبما أعدها به وله نبيها صلى الله عليه وسلم من حسن تربية وتعليم، ولذلك ربط الوحي الكريم بين هذا اليوم وبين ما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة دائما إزاء عدوها بقوله عز وجل:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ وفعل﴿ يَئِسَ﴾ من اليأس، وهو انقطاع الرجاء والأمل، أي: إن ما بلغه المسلمون يومئذ من قوة الإيمان والعلم والعمل والثبات على الصراط المستقيم قد أيأس الكفار من أن يزحزحوهم عن عقيدتهم أو يشككوهم فيها، أو يحملوهم على تغيير  دينهم ونقضه، أو النيل منه بتحريف أو نقص، أو يستدرجوهم لنسيان بعض أحكامه  أو كتمانها أو المتاجرة بها كما فعل أهل الكتاب الذين بدلوا دينهم ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِه﴾ المائدة 13،  وأبطل ما كانوا يتناجون به سرا وعلانية، ويرجون تحققه من انهيار لحركة الدعوة الإسلامية عند كل موطن من مواطن المحنة والبلاء، كما حدث يوم حنين إذ انكشف المسلمون فظنها المشركون الهزيمة، وأخرجوا ما في أنفسهم من الضغينة، وقال أحدهم:"لا تنتهى هزيمتهم دون البحر"، وقال آخر:"ألا بطل السحر اليوم"، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في نفس خطبة يوم عرفة: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا دُونَ ذَلِكَ فِيمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ).

لقد أضفى الله تعالى على المسلمين في حجة الوداع من مصادر القوة والمنعة والإعداد النفسي والحركي والتشريعي ما يقوي زخم اندفاعهم نحو الغاية التي خلقوا من أجلها، تتولاهم وتسدد خطواتهم عناية الله تعالى ومعيته، توفيقا ونصرا وثقة واستعلاء إيمان، وإن أمة بهذه الصفات لجديرة بأن يخاطبها الحق سبحانه بقوله عقب ذلك:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾  أي لا تخافوا هؤلاء الأعداء المتربصين بكم، فأنتم أقوى منهم بعقيدتكم وولائكم لربكم وثقتكم بنصره لكم، أنتم أولى بالأمن منهم لأن الله معكم، وهم أولى بالخوف منكم لأن كيدهم من الشيطان وكيد الشيطان ضعيف، وقوتكم من الرحمن وهو القاهر فوق عباده، ومن كان هذا حاله فالأولى به الخوف من ربه وحده، قال تعالى:﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات41، والأجدر به الاستعلاء بإيمانه والاعتزاز بعقيدته، قال عز وجل:﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران139.

ولئن كان هذا الخطاب موجها للمسلمين في حجة الوداع، فإنه في جوهره موجه للمسلمين كافة في كل عصر ومصر إلى قيام الساعة، إن تمسكوا بالحق وعملوا به وكان خوفهم من الله وحده لم ينل منهم عدو، وما هزائمهم في عصرنا هذا إلا بما نقضوا من العهود وما استحلوا من الحرمات، وما قطعوا من أواصر الأخوة الإيمانية، والإسلام يبقى في كل الأحوال محفوظا على رغم انخذال أهله، وقويا بمنهج ربه، له من يؤمن به ومن ينتصر له، لا تخلو أرض من رجاله ولا زمن من مجدديه، قال الحق سبحانه:﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ محمد 38، وقال صلى الله عليه وسلم:(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) وقال: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

ثم انتقل الوحي الكريم إلى ثلاث منن أخرى يمنها الحق سبحانه على المؤمنين بعد منة يأس الكفار من اضمحلال أمر الإسلام، أما أولاهن فقوله عز وجل:

 ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ولفظ أكملت من فعل كمل، والكاف واللام والميم أصل واحد يدل على تمام الشيء، والكَمال هو التمام القابل للتجزئة فتقول: نصفه وبعضه، وأكملتُ الشيء: أجملته وأتممته، والمعنى أن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في هذا اليوم بتمام شرائع دينهم عقائد وعبادات وأحكاما وآدابا إلى يوم القيامة، قال ابن عباس :"﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هو الإسلام، أخبر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً".

 ولا شك أن الشريعة الإسلامية لم تنزل جملة واحدة كما قرر القرآن ذلك وبين حكمته بقوله تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ الفرقان32، وإنما كان الابتداء في مكة بواجب الإتيان بالشهادتين، والإيمان بالبعث والجنة والنار وركعتين غدوة وركعتين عشية، والصبر على أذى المشركين والكف عن القتال، ثم في ليلة الإسراء والمعراج فرضت الصلوات الخمس كما ورد في حديث البخاري ومسلم، وبعد الهجرة فرض الجهاد والزكاة والصوم والحج تباعا، ثم في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة نزلت آية إكمال الدين وإتمام النعمة في ثنايا سورة المائدة التي لم ينزل بعدها شيء من الأحكام، وتوفي صلى الله عليه وسلم بحوالي إحدى وثمانين ليلة في الثاني عشر من ربيع الأول على أرجح الروايات.

وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصا قبل حجة الوداع ثم أكمله تعالى، لأنه ما كان ناقصا أبدا، وإنما هو تام بالنسبة لكل مرحلة من مراحل نزول الوحي، مراعاة للتدرج في التربية والتعليم، ثم في حجة الوداع أتم الله إنزال شريعته وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، والدين على ذلك كامل أبدا، بدأ كاملا إلى زمن مخصوص وفترة معلومة، ثم كمل وصار مؤبدا وصالحا لكل زمان ومكان.

وأما المنة الثانية فقوله تعالى:

﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ والنعمة اسم جنس لكل فضل وعطاء وكرم من الله للناس في أمر دينهم ودنياهم مما يستوجب الحمد والشكر، وتمامها أنه تعالى أفاضها بدون نقص على المسلمين ما التزموا بمنهجه وتمسكوا بحبله، كما أن كمال الدين يعني أنه غير قابل للزيادة لقوله صلى الله عليه وسلم: (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)، فمن أحْسَنَ العمل بدينه وأُلْهِمَ رشْدَه وحِيزَتْ له كفايتُه وأوزَعَه الله الشكر وزُحزِح عن النار ودخل الجنة فقد كمل له الفضل وتمت له النعمة، قال الحق سبحانه:﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل18، وقال:﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان 20.

وأما المنة الثالثة فقوله تعالى:

 ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ والأمر في كلمة﴿ وَرَضِيتُ﴾ أمر تكليف وإيجاب، وإنما عبر بها تلطفا بالمؤمن الذي بلغ شأوا عاليا من الإيمان والطاعة والحرص على مرضاة الله تعالى، لأنه عز وجل جعل الإسلام دينا للكون كله، فقال:﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الرعد 15، وقال:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ 19 آل عمران، وقال:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران85.

إن هذا الدين الذي ارتضاه الحق سبحانه لعباده منذ خلق السماوات والأرض وما فيهن هو ما واثق به جميع الرسل والأنبياء، وإنما كان لحكمة من الله ينزل لكل قوم على لسان نبيهم، تبعا لما يحتاجون إليه من أمر دنياهم وآخرتهم، ويتكامل حسب الحاجة على تعاقب الرسالات، وهو في كل تلك الأحوال كامل بالنسبة لزمانه ومكانه وقومه، ثم ختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا للناس كافة، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، ولم تبق حاجة إلى أحكام أخرى بعد سورة المائدة، ولم تبق للأمة حاجة إلى نبوة أخرى بعد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الأحزاب 40.

وإن هذا الدين الذي اصطفاه الحق سبحانه لعباده واجتباهم له مُيَسَّر لمن آمن به، عقيدته سمحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وشرائعه منزهة عن الظلم، ترعى حق الله وحق الناس وحق الجسد والمال والأهل والولد، وما يخل بها عند تنزيلها في واقع الحياة إلا إحدى آفتين، آفة الإفراط والغلو وآفة التفريط والتقصير، أولاهما تتجاوز بصاحبها حدود الأمر والنهي، والثانية تمنع صاحبها عن كمال الطاعة، والمرء في غنى عن ذلك كله، فما يريد به ربه تعالى إلا اليسر، قال تعالى:﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة 185، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الدين يُسْر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيءٍ من الدُّلْجَةِ)، وقال: (إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)

ولئن كانت ظروف المؤمن تتقلب بين العافية والسقم والاختيار والاضطرار، واليسر والعسر والظعن والمقام والأمن والخوف، فإن الله تعالى قد ختم هذه الآية بجزئيها، جزئها المتعلق بالأحكام الشرعية العملية وجزئها المتعلق بكمال الدين وتمام النعمة، بنعمة شاملة أخرى خامسة، تخفف على المؤمن  جميع ما ينتابه من حالات الشدة والضيق، وما يواجهه من نصب ومحنة وفتنة بقوله عز وجل:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولفظ:﴿مَخْمَصَةٍ﴾ معناه المجاعة، من الخمص وهو ضمور البطن من الجوع، ولفظ:﴿مُتَجَانِفٍ﴾ من فعل:"جنف" عن الحق إذا مال عنه وجار في قول أو عمل، وجنف إلى الإثم آثره واختاره ومال له، وقوله تعالى:﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي غير مائل للإثم أو متعمد له، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر للمؤمن إثم تناول الطعام المحرم في حالة اضطراره إليه، إذا لم يستحله أو يتجاوز حاجته إليه، أو يأكله على سبيل التلذذ والاستطابة.

إن اضطرار المؤمن في الحياة محتمل الوقوع في أي لحظة يقدره الله تعالى عليه اختبارا وابتلاء أو رفع درجة أو تطهيرا من الذنوب، لذلك عمت آيات اللطف والرحمة والمغفرة والتخفيف كلتا مرحلتي مكة والمدينة: ففي مكة نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل 115، وقوله عز وجل:﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنعام 145.

وفي المدينة نزل قوله سبحانه:﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة 173وقوله:﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة 185، وقوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الأنفال 66. ثم في حجة الوداع ختمت آية كمال الدين وإتمام النعمة بقوله عز وجل:﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتمت نعمة الله تعالى على المؤمنين مغفرة ورحمة ويسرا.

حلال الأطعمة والأنكحة

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾ المائدة |

في السنة العاشرة للهجرة كان المسلمون قد بلغوا من السمو الإيماني مبلغا عاليا رفيعا، بفضل ما نزل عليهم من القرآن الكريم وما تلقوه من سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وما استشعروه من أمانة الدين تحملا وأداء، وما ينتظرهم يوم العرض حسابا وجزاء، لاسيما والمسؤولية تعظم بعظم المخاطر، وعلى قدر الأهداف والغايات تجري الهمم، وتزكو الأخلاق والشيم، وتتبلور المبادئ والقيم، ومن خاف جد واجتهد، واتقى مزالق الطريق، وتمسك بضرورة التروي واستقصاء مظان الصواب في القول العمل.

على هذا النهج نشأ الجيل القرآني الأول وعلى هذه المعايير الصارمة والقيم السامية كانت تربية خير القرون، أفئدتهم مشربة بالإيمان، وقلوبهم مفعمة بالصدق والإخلاص، وعيونهم شاخصة للآخرة، وجوارحهم لا تني تبحث عن سبل لمرضاة ربهم واتقاء مسخطته، تحذوهم الثقة بكرم الله وعدله ومرحمته، واليقين بحسن عاقبة من آمن وعمل صالحا ثم اتقى وأحسن، وما على العبد إلا أن يستشعر مسؤولية الأعمال طاعة وعصيانا، ويستنير بالشرع في خلجات النفس وتصرفات الجوارح ظاهرا وباطنا، ويستحضر في سره وعلانيته أنه مُلاقٍ عملَه لا محالة ونائلٌ جزاءَه لا ريب، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ المزمل 20، وقال:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة 7/8.

لذلك ما أن استوت تربية الصحابة الكرام واستنارت قلوبهم وانشحذ حسهم الإيماني حتى أخذوا يمطرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسئلتهم عن كل ما يجدون فيه حرجا أو غموضا أو لبسا، احتياطا منهم لعواقب تصرفاتهم أقوالا أو أعمالا، مآكل ومشارب ومناكح ومعاملات.

بدأت هذه الأسئلة في المرحلة المكية محاولة لاستكشاف ما ليس لهم استكشافه بقوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ النازعات 42، وتطورت بتدرجهم في مراقي العرفان، واستقامت على الطريقة بعد أن ميزوا ما لهم وما عليهم، ثم عندما تبينوا أن الإباحة هي الأصل في مكاسب الدنيا وزينتها، مأكلا ومشربا واستخداما وانتفاعا مما لا يحيط به الحصر، لقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾البقرة 29، وأن المحرمات محدودة لكونها رهنا بالنصوص كتابا وسنة، خشوا أن توقعهم كثرة المباحات في الحرام أو شُبَهِهِ، وسألوا رسولهم صلى الله عليه وسلم أن يفصل لهم ما أُحٍلَّ لهم مما هو ضروري لحفظ الذات والحياة مشربا ومأكلا، وحفظ النوع تزاوجا وتناسلا، وكان سؤالهم لشدة حيائهم منه تلميحا لا تصريحا بما حكاه عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ والسائلون في هذه الآية زمرة من المؤمنين خافوا على أنفسهم الشطط في التفريط، والغلو في الإفراط، بعد أن اقتصر الوحي في الآية السابقة من سورة المائدة على أحد عشر محرما من الأطعمة بقوله تعالى:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِير..﴾ الآية، وأباحت لهم الآية قبلها بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليهم، فهُرِعوا إلى نبيهم صلى الله عليه وسلم للسؤال عما سوى ذلك من المباحات خشية الوقوع في الحرام غفلة أو جهلا، وكان جوابهم من رب العزة تعالى بواسطة الوحي ذا شقين، مجمل ثم مفصل:

أما الجواب المجمل فقوله عز وجل مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي أبلغهم يا محمد أن الله تعالى أحل لكم كل الطيبات، والطيبات لغة اسم يتناول معنيين من طريقين، من طريق الدين وهو الحلال، ومن طريق الطباع وهو المستلذ، إلا أن في الحلال ما هو غير مستلذ كالضب مثلا وقد استقذره الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يأكله ولم يحرمه، كما أن من المحرمات ما قد يستلذها أصحابها، كبعض التصرفات الطائشة المحرمة والمطعومات المؤذية للأجساد والعقول والأعراض، وعليه تكون الطيبات المباحة على وجهين أولهما أن تكون حلالا، وثانيهما أن للمرء أن يختار من الحلال ما يستطيبه ويستلذه من غير إثم عليه أو مساءلة عنه، كما قال تعالى في طعام أهل الجنة - والقياس مع الفارق - :﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الواقعة 20/21، وبذلك وضع الحق سبحانه حدودا موسعة للحلال فلم تحرم نصوص الشريعة إلا ما كان خبيثا أو ضارا، وأطلقت لطباع الأقوام والأجناس والشعوب وعاداتهم وأذواقهم حرية الاختيار في دائرة ما أبيح لهم، من غير تضييق عليهم أو إضرار بهم أو بغيرهم، وهو معنى قوله تعالى:﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف 32.

وأما الجواب المفصل فمتعلق بثلاثة مواضيع أولها أحكام الصيد بالكلاب والفهود والبزاة وغيرها من الحيوانات المعلمة، وكان ذلك عقب تحريم الرسول صلى الله عليه وسلم اقتناء الكلاب لغير ضرورة، والثاني متعلق بأطعمة أهل الكتاب، والثالث بنكاح المؤمنات والكتابيات، لا سيما وقد أخذ الفتح الإسلامي في التوسع ووصل إلى مؤتة بوابة الشام المسيحي آنئذ، واطلع المسلمون على عادات القوم وتقاليدهم في الأطعمة والأنكحة.

أما تحريم اقتناء الكلاب فكان بعد أن تكاثرت وآذت الساكنة واعتادت المرور من داخل المسجد النبوي وربما لوثته أحيانا كما روى البخاري عن ابن عباس، فقال صلى الله عليه وسلم: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها)، ثم لما وعده جبريل عليه السلام بزيارته فلم يزره، لقيه فسأله:(كنت وعدتني أن تلقاني الليلة؟!) فقال جبريل: (أجل ولكنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة)، وكان تحت فسطاطه صلى الله عليه وسلم جرو فأخرجه وأمر بقتل الكلاب، ثم عاد فرخص في اقتناء كلب الصيد والماشية، كما روى ذلك ابن مغفل إذ قال: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب ثم قال: ما بالهم وبال الكلاب، ثم رخص في كلب الصيد وكلب الغنم)، فسئل عن الصيد بالمعلَّم منها ومن غيرها فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ ولفظ:﴿ الْجَوَارِحِ﴾ من فعل "جرح"، وله معنيان: أحدهما شق الجلد ومنه قوله تعالى:﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ المائدة 45، وثانيهما الكسب، ومنه قوله تعالى:﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾الأنعام 60، أي ما كسبتم من حسنات أو آثام، ومنه جوارح المرء وهي أعضاءه التي بها يكسب منافعه أو مضاره كاليد والرجل، واحدتها جارحة، وأطلقت مجازا على ما يستعمله الإنسان في الصيد من الطير والسباع، كلابا وفهودا وصقورا وغيرها، لأنها تكسب لأصحابها، أي تصطاد لهم.

ولفظ:"مكلِّبين" مفرده مكلِّب، وهو سائس الجوارح ومُضَرِّيها بالصيد لصاحبها لا لنفسها. اشتق اللفظ من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب، والمعنى: أحل لكم صيد الجوارح إذا كلبتموها ودربتموها على الصيد لكم، وعلمتموها بحسب ما عرَّفكم الله من طباعها وطرق تضريتها وترويضها.

ثم بين الحق سبحانه شرطين يجب توفرهما لجواز أكل صيد هذه الجوارح المعلَّمة، أولهما أن تمسك لصاحبها لا لنفسها، وثانيهما ذكر اسم الله عند إرسالها نحو الطريدة، وذلك بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وإمساك الجارح على صاحبه أن لا يأكل منه، أما إن أكل منه فقد أمسك على نفسه، أما ذكر اسم الله عليه فلقوله تعالى في آية أخرى:﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الأنعام 121، وقد أجمل أحكام صيد الجوارح حديث البخاري ومسلم وأحمد وأبي داود وابن ماجه والبيهقي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: (إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن، إلا أن يأكل الكلب فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل). على أن للصيد بالجوارح أحكاما أخرى ومجالات اختلاف بين الفقهاء ميدانها فقه الفروع فليرجع إليه.

وأما الموضوع الثاني المتعلق بأطعمة أهل الكتاب فقد قال عنه تعالى عقب ذلك:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ والذين أوتوا الكتاب هم اليهود أهل التوراة والنصارى أهل الإنجيل، وعند الشافعى هم بنو إسرائيل من اليهود والنصارى دون من دخل في دينهم بعد الإسلام لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الجاثية 16، أما طعامهم فثلاثة أقسام، أولها ما لا معالجة لهم فيه بإعداد أو طبخ مثل الفواكه وسائر ثمار الأرض والعسل وما في حكم ذلك ولا حرج على المؤمن في تناوله بشرط رضا مالكه. والثاني ما عالجه أهل الكتاب مما لا ذكاة فيه بمختلف المعالجات التي تحتمل إضافة بعض المحرمات إليها، ولا يجوز تناولها ما لم يتأكد خلوها من ذلك. أما القسم الثالث فهو ذبائحهم من غير ما حُرِّم على المسلمين تناولُه كالخنزير وذوات المخلب والناب من الطير والوحش، ولا شك أن المتدينين منهم يسمون على ذبائحهم بالإله الذي ليس معبودا حقيقة مثل عزير والمسيح. بل حتى لو ذكروا اسم الله لم تكن تسميتهم بنية العبادة مما لا أثر له في إباحة أكلها، أما العلمانيون المعاصرون منهم فإنهم لا يذكون البهيمة ولا يسمون عليها وإنما يقتلونها وقذا بالصعق أو بغيره من الوسائل التقنية، وقالت طائفة من الصحابة والتابعين منهم علي وعائشة وابن عمر، وطاوس والحسن:إذا سمعت الكتابي يسمي غير اسم الله عز وجل فلا تأكل، متمسكين بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الأنعام 121، والفيصل عندي أن المؤمن يحل له من كل أصناف طعام أهل الكتاب ما هو حلال له في الإسلام، ولا ينبغي أن يستنكف من أكله لمجرد أنه طعام أهل الكتاب بل لأن به ما هو محرم عليه في الإسلام.

ثم قال تعالى:﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي طعامكم أيها المسلمون حلال للكتابيين، عطاء لهم أو هدية منكم إليهم أو استضافة لهم أو صدقة عليهم أو بيعا أو مقايضة... وكانت هذه الإباحة منه تعالى لحفظ المودة بين المسلمين وأهل الكتاب، وربط أواصر التعاون على الخير والتكافل والأمن داخل المجتمع بجميع مكوناته.

ثم انتقل الوحي الكريم من تشريعات استبقاء الحياة مطعما ومشربا إلى تشريع استبقاء النسل السوي بالنكاح الشرعي فقال عز وجل:

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ولفظ "المحصنات" من أصل الفعل"حصُن الشيء يحصُن حصانة" إذا كان منيعا لا يوصل إليه، ومنه الحصن أي القلعة المنيعة، وحصنه صاحبه وأحصنه فهو محصن، والمرأة حَصان إذا كانت عفيفة بفطرتها وطبعها، ومحصَنة بفتح الصاد أعفها دينها أو زواجها، وقوله تعالى:﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي أحل لكم نكاح العفائف المؤمنات، وحرف "من" في هذه الآية لبيان الجنس وليس للتبعيض، ومعناها أحل لكم نكاح المحصنات اللواتي هن المؤمنات، لأن الأصل في جميع المؤمنات الإحصان بالإسلام.

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ كذلك أحل لكم التزوج من عفائف نساء أهل الكتاب يهودا ونصارى، معاهدين وحربيين. إلا أن الإقبال على هذه الرخصة قد تغري بالانحراف عن الدين والتهاون فيه كما نرى في عصرنا هذا، ولذلك كان عمر رضي الله ينهى عنه سدا للذريعة إلى إضعاف الدين، لأن الفساد قد يبدأ بالمعاشرة وينتهي بالأعمال والتصرفات والعقيدة، أما إن أسلمت اليهودية أو النصرانية أو غيرهما فقد يكون في التزوج بها أجر مضاعف لقوله صلى الله عليه وسلم: (والله لأن يهدي الله بهداك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم).

إلا أن للزواج أركانا وشروطا لا بد من توفرها في الزوج بينها الوحي عقب ذلك بقوله تعالى تباعا:

أولها تمكين الزوجة من الصداق، لقوله تعالى:﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والصداق حق واجب للزوجة عطاءً وتكرمةً من الله تعالى لها، ولا حق لأحد في مصادرته أو إلغائه.

والثاني أن يقصد الزوج بذلك إعفاف نفسه وإحصانها عن الفواحش لقوله تعالى:﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي متعففين بالزواج عن اقتراف الفواحش.

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير معالنين بالفاحشة، لأن السفاح هو الزنا، وسمي الزاني مسافحا لأنه سفح ماءه في غير محله، أي صبه آثما.

﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ ولفظ أخدان مفرده خِدْن، من المخادنة وهي المصاحبة، وخص بها مصاحبة الزوجة لغير زوجها، وكانوا فِي الجاهليَّة لا يمتنعون منها، فجاء الإسلام بتحريمها على الرجال والنساء بهذه الآية، وبقوله تعالى في الآية 25 من سورة النساء:﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، وذلك ما يعرف عند الغرب بمصطلح "فريند" وما استنسخه بعض المسلمين المعاصرين الذين يحومون حول الحمى ويوشكون أن يقعوا فيه، وسموه"زواج الفريند" فجمعوا بين فسق التحايل على الدين وفسق بدعة التسمية.

وختم الحق سبحانه هذه الآية الكريمة محذرا من مخالفة أحكامها بقوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والإيمان هنا هو شرائع الإسلام وأحكامه، أما الكفر بها فهو الاستهانة بقدسيتها والتهاون في الأخذ بها، وحَبْطُ العمل بطلان ثوابه، أي من يكفر بأحكام الدين ولا يذعن لتعاليمه ضاع ما كان يرجوه من خير في الدنيا، وخسر في الآخرة ما كان يؤمله من ثواب.

لقد أثبت الجيل القرآني الأول من الصحابة أهليتهم لقيادة مسيرة البشرية وفق ما تركهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بحرصهم على متابعة السؤال عن دينهم، واستقصاء واجباتهم، ومعرفة ما لهم وما عليهم نحو أنفسهم ونحو أمتهم، وشعورهم العميق بشرف الأمانة التي حملوها وخطورة المنهج الرباني الذي آمنوا به، وثقل المسؤولية التي ألقيت على كاهلهم، وكانوا بذلك بعد انقطاع الوحي وتمام الرسالة على مر التاريخ إكسير الرشد الذي يتجدد به الدين على مر الحقب، فيحفظ للكتاب والسنة فهمهما السليم، وللأجيال المتعاقبة قدوتها الحسنة عقيدة وشريعة وعبادة. فرضي الله عنهم جميعا وجزاهم عن المسلمين كل خير.

الطهارة ورفع الحرج أصلان في التشريع الإسلامي

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)﴾ المائدة |

إن في فطرة المؤمن شوقا لا يرويه إلا الإقبال على الله تعالى، وفي قلبه تلهفا لا يرضيه إلا التوجه إلى الخالق عز وجل، وفي نفسه فاقةً لا يسدها إلى الوقوف بين يديه، وحاجةً لا تقضيها إلا الإنابة إليه، ووحشةً لا يزيلها إلا الأنس به، وحزنا لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وقلقا لا يسكنه إلا الالتجاء إليه وطرق بابه وانتظار جوابه.

وإن الله تعالى لأشدُّ فرحا بعبده المقبل عليه، وأوسع مغفرةً للمذنب التائب بين يديه، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود: لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِيَّةٍ[[[29]](#footnote-29)] مَهْلَكَةٍ معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته)، وقال الحق سبحانه فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: (من عمل حسنة فله عشر أمثالها أو أَزِيد ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أَغفر ومن عمل قِراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يشرك بي شيئا جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا، ومن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)

ولئن كان الإقبال على الله توبة وإنابة، واللجوء إليه رهبا ورغبا وافتقارا واحتياجا من أعظم أسباب نيل الرضا وإدراك القُرَب، وتسنُّم الرُّتب، فإن ذلك ليس بالأمر الهين، أو النوال السهل، إذ ما كل من يُقبِل مقبول، ولا كل طالب وصل بموصول، ولا بد لطارق الباب من تَحَلٍّ وتَجَمُّل، تحلٍّ بحسن سمْتٍ وآداب، وتجمُّلٍ يباشر القلوب ويغشى النفوس والعقول والألباب، وجُمَّاع ذلك كله الطهارة مظهرا ومخبرا، طهارة الأرواح من خبث المشاعر والأهواء والعادات، والأجساد من سنخ الأدران والمحرمات، والجوارح من آثام الأعمال والأقوال والتصرفات.

وما دام أشرف إقبال للمرء على ربه وأعلى مقامات قنوته ببابه أن يقف بين يديه للصلاة، لكون الصلاة عماد الدين وأشرف عباداته، ولا تؤدى على حقها إلا بالخالص من النوايا والأقوال والأعمال، والطاهر الطيب من الأبدان، فقد كانت الآيات الأولى في سورة المائدة مقدمة وممهدة لهذه العبادة الجليلة، إذ بينت للمؤمنين ما يحل لهم وما يحرم عليهم من المآكل والمشارب والمناكح، حماية للأجساد من السحت وتحصينا للأنفس من الفواحش، وللسرائر من أمراض القلوب، وحذرتهم من الظلم والعدوان ابتدء ومجازاة، وأمرتهم بالتعاون على البر والتقوى تكافلا وتغافرا ومعاملة حسنة وكلمة طيبة، وأهلتهم بذلك لأعظم الطاعات بعد الإيمان، للصلاة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله)، ثم عقبت ببيان ما يجب الإعداد به لهذا المقام الرضي المحمود من طهارة للأبدان وضوءا وغسلا وتيمما بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ والنداء في هذه الآية موجه للمؤمنين، لأن غير المؤمنين يُدْعَوْن للإيمان أولا قبل أن يُؤمروا بالصلاة، ولأن الصلاة ركن الإسلام الركين، أجمع المسلمون على أن من أنكر فرضها كافر. أما القيام في قوله تعالى:﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ فقد عبر به عن قصد الصلاة ونية التوجه لها، لأن الوضوء عبادة ولا بد فيه من النية وهي ركنه، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات)، وهو ما عليه مالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد وإسحاق بن راهويه وأئمة آل البيت.

والمعنى أنكم أيها المؤمنون إذا قصدتم القيام للصلاة بنية أدائها أو قضائها، فرضا أو نفلا أو تطوعا، فعليكم بالوضوء لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور)، وذلك إن كنتم محدثين حدثا أصغر، أما غير المحدث إذا كان متوضئا من قبل فلا وضوء عليه إلا أن يتطوع، لحديث أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة حدثها (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أُمِرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ فَلَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ وَوُضِعَ عَنْهُ الْوُضُوءُ إِلَّا مِنْ حَدَثٍ)، وحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الخلاء فقرب إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوَضوء قال: (إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة)، ولما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد صلى يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد ومسح على خفيه، فقال له عمر: إني رأيتك صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه، قال: (عمدا صنعته).

ثم أخذ الوحي الكريم في بيان أفعال الوضوء المفروضة متتابعة بقوله تعالى:

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وحدُّ الوجه من منابت شعر الرأس إلى أسفل الذقن طولا، وما بين الأذنين عرضا، مع تخليل شعر اللحية، والغسل في الوضوء مطلقا عند مالك هو إمرار المتوضئ الماء على العضو ودلكه باليد وإلا لم يكن غاسلا.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ والمرافق جمع مفرده مَرفِق ومِرفَق، وهو ملتقى الذراع بالعضد، ويتناول الغسل من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى من اليد، والجمهور على دخول المرفق في المغسول احتياطا.

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي امسحوا رؤوسكم بأيديكم المبللة بالماء،والواجب مسح الرأس كله من منبت شعر الجبهة إلى آخر القفا أخذا بالاحتياط كما عند المالكية وتبعهم في ذلك الحنابلة.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وقوله تعالى:﴿ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وردت فيه قراءتان متواترتان أولاهما بالفتح وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب، على اعتبارها عطفا على قوله تعالى:﴿ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، وأن قوله عز وجل:﴿ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ﴾ جملة اعتراضية بينهما للإشارة إلى ضرورة ترتيب غسل أعضاء الوضوء، ولا خلاف حسب هذه القراءة في غسل الرجلين، إذ تقدير القول هو: (وامسحوا برءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين)، لأن الأصل في الطهارة التنظف والتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى، وذلك يقتضي غسل الرجلين وهما أكثر تعرضا للوسخ، والنبي صلى الله عليه وسلم نادى بأعلى صوته من لم يحسن غسل رجليه: (ويل للأعقاب من النار).

أما القراءة الثانية:﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بكسر اللام عطفَ مجاورة ومتابعةٍ على قوله تعالى:﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، فقراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة وأبي بكر عن عاصم وخلف، والمعنى كذلك هو الغسل لا المسح، حملا للقراءة بالكسر على القراءة بالفتح. وهو ما أجمع عليه فقهاء السنة والجماعة، لما روي صحيحا عن عبد الله بن عمرو قال: رجعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا ببعض الطريق تعجل قوم عند العصر فتوضأوا وهم عجال، قال: فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء)، وما أخرجه الترمذي صحيحا من قوله صلى الله عليه وسلم (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار)، وهو ما يدفع قول من قال بمسح القدمين ليس عليهما خفان أو جوربان.

وبعد بيان حكم التطهر من الحدث الأصغر بما ذكرته هذه الآية فرضا، وبما زادته السنة النبوية التابثة التي يرجع فيها إلى كتب الفقه المعتمدة[[[30]](#footnote-30)]، بَيَّن الحق سبحانه موجبات الاغتسال، أي غسل الجسد كله بنية التطهر من الحدث الأكبر الذي سببه التقاء الختانين من الذكر والأنثى، أو خروج المني في اليقظة والنوم، بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ولفظ "الجُنُب" يطلق على من أصابته الجنابة، سواء بإنزال الماء أو بالتقاء الختانين، من قولك جنبتك عن الشيء أي: أبعدتك عنه، يقال جَنُب الرجل وجُنِب وأجنب فهو جُنُب إذا وجب عليه الغسل من الحدث الأكبر، لأنه يجتنب الصلاة والمسجد والطواف وقراءة القرآن حتى يتطهر، ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، فيقال: رجل جنب، وامرأة جنب ونساء جنب ورجال جنب، ومن ذلك لفظ الجنابة لأنها تبعد عن هذه العبادات. أما التطهر المأمور به في هذه الآية فهو الاغتسال الشرعي المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى عن عائشة رضي الله عنها (أن النبي كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيُخلل بها أصول شعره، ثم يَصب على رأسه ثلاث غرف بيديه، ثم يفيض على جِلده كله)، وعن ابن عباس عن ميمونة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: (توضأ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُضوءه للصلاة غير رجليه، وغسل فرجه وما أصابه من الأذى، ثم أفاض عليه الماء ثم نحّى رجليه فغسلهما).

ثم بين الحق تعالى رخصة التيمم بدلا من الوضوء والاغتسال مبينا أسبابها فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾تخافون أن يؤذيكم الماء، أو يستفحل به المرض أو يزداد به الألم أو يؤخر الشفاء، أو كنتم عاجزين عن الحركة لاستعمال الماء وليس معكم من يوضئكم وخفتم خروج وقت الصلاة.

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي في حالات سفركم، والمسافر قد يجد ماء زائدا عن حاجته للشرب وقد لا يجد، وقد يكون الطقس باردا فيمرضه الاغتسال أو الوضوء إن وجد الماء.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ والغائط لغة هو المكان المطمئن المستور من الأرض يلجأ إليه المقيم أو المسافر لقضاء حاجته، يقال غاط في الأرض يغيط ويغوط غاب فيها ليقضي حاجته بعيدا عن الأعين، وكان الرجل إذا أراد التبرز ارتاد غائطاً من الأرض يستتر فيه، فكان التعبير كناية مهذبة، ثم شاع استعماله حتى ساوى الحقيقة وأطلق على الحدث نفسه فابْتُذِل. ويعني في مصطلح العصر المرحاض ودورة المياه والكنيف.

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ملامسة صغرى ناقضة للوضوء أو ملامسة كبرى توجب الاغتسال.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ لم تجدوا ماء، أو لم تجدوه صالحا للوضوء، أو ليس لكم ما فوق حاجتكم للشرب، ولا تستطيعون الحصول عليه بأي سبيل.

في هذه الحالات كلها تكون رخصة التيمم إذا خيف خروج وقت الصلاة بقوله تعالى:

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ والتيمم لغة هو التوجه والقصد، من قولك: تيممت فلانا بعطائي أو صدقتي إذا قصدته دون سواه، والصعيد المكان عليه تراب، ووجهُ الأرض سواءٌ كان ذا ترابٍ أو لم يكُنْ، والمعنى أن المرء إذا حضر وقت الصلاة وعجز عن الوصول إلى الماء أو عن استعماله للأسباب المذكورة في الآية توجَّهَ إلى صعيد طيب طاهر واستعمله في التطهر بديلا عن الماء، قال صلى الله عليه وسلم:( الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين، فإذا وجدت الماء فأمِسَّه جلدك، فإن ذلك خير). وقال:( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل)، وفي لفظ: (فعنده مسجده وطهوره)، وقال:( فضلنا على الناس بثلاث:جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء).

أما كيفية التيمم فيشرحها حديث البخاري عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزَى عن أبيه قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني أجنبتُ فلم أصب الماء. فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنّا كنا في سفر أنا وأنت، فأمّا أنتَ فلم تصل، وأما أنا فتمعّكت فصليت، فذكرتُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كان يكفيك هكذا) فضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

وصِفَتُه أن يعقد المرء نية التيمم ثم يضرب التراب بيديه مفرجتي الأصابع، ثم يمسح وجهه بباطنهما، ويمسح كفيه براحتيه، ويعمم الوجه والكفين بالمسح، قال عمار بن ياسر: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التيمم فأمرني ضربة واحدة للوجه والكفين"، وإن ضرب الصعيد بضربتين على قول من قال بذلك ومسح بإحدهما وجهه، وبالثانية مسح كفيه جاز ذلك، لكن الصفة الأولى هي الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد روى البخاري في كتاب التيمّم أن أبا موسى قال لعبد الله بن مسعود: أرأيتَ إذا أجنب فلم يجد الماء كيف يصنع؟ قال عبدُ اللَّه: لا يُصلّي حتّى يجد الماء، فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمّار حين قال له النبي: (كان يكفيك هكذا)، وضرب بكفّيه الأرض ثم مسح بهما وجهه وكفّيه، قال ابن مسعود: ألم تر عُمَرَ لم يقنَعْ منه بذلك، قال أبو موسى: فدَعْنَا من قول عمّار، كيف تصنع بهذه الآية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فما درى عبد الله ما يقول.

وبغض النظر عن اختلاف الفقهاء حول بعض أحكام التيمم فإنه مشروع بالكتاب والسنة والإجماع، ومن أراد تفاصيل فرائضه وشروطه ونواقضه فليطلبها في مظانها من كتب الفقه.

ثم ختم الحق سبحانه آية التيمم هذه بذكر حكمته من هذه الرخص التي امتن بها على عباده مشيرا إلى قاعدة ثابتة في التشريع الإسلامي وهدف ظاهر منه بقوله عز وجل:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

أما القاعدة الثابتة فمتعلقة برفع الحرج عن الأمة بقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ومعناه أن المضار مرفوعة عن المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم، وهو ما ثبت بنصوص أخرى من الكتاب والسنة كقوله تعالى:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة 185، وقوله:﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج 78، وقوله:﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾الفتح 17، وقوله صلى الله عليه وسلم:( لا ضرر ولا ضرار)، وقوله: (لا ضرر ولا ضرار من ضارَّ ضارَّه الله ومن شاقَّ شاقَّه الله).

وأن الأصل في منافع الدنيا وطيباتها الإباحة ما لم تحرم بدليل، والأصل في المضار والخبائث الحرمة، ويدل عليه قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾البقرة 29، وقوله:﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾الأعراف 157. والمراد بهذه الآية إشعار المخاطبين بأن الله تعالى لا يريد بتشريعاته التضييق عليهم أو إحراجهم فيما أباح لهم وما حرم عليهم وما أرشدهم إليه في منهج الإسلام، وأما الهدف الظاهر من أحكام القرآن وتشريعاته جملة فهو تطهير المؤمن طهارة بدنية وروحية بقوله تعالى:﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، يطهركم من خبائث المطاعم والمشارب والأنكحة والمعاملات، وخبائث المعتقدات والنوايا والتصرفات. وذلك سبيل إتمام نعمة الله لمن يطلبها، وذلك ما يوجب شكرها على من سألها أو استدامها أو استزادها، لقوله تعالى عقب ذلك: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فإن امتثلتم لما أنزله الله تعالى عليكم في منهجه المتكامل، وشكرتم فضله عليكم تمت لكم نعمته التي كتبها لأوليائه، حياةً طاهرة طيبة رضية في الدنيا وحياة هنيئة خالدة في الجنة. نسأله سبحانه وتعالى أن ينعم بهما علينا وعلى جميع عباده المؤمنين.

﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ - الأنعام 68 -

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)﴾ المائدة |

يقال له الذاكرة، ويقال له العقل الباطن، ويعجز العلم البشري عن تحديد مكمنه من الجسم البشري، فلا يُعرِّفه إلا بأثره وأعماله، لأن لله في هذا المخلوق العجيب أسرارا وآيات لم يحن أوان كشفها، ويكفينا من العلم به أن نستعين به على تبين الصواب من الخطأ وسبل الهداية من سبل الضلال، وأن نحفظ حيويته فلا يكسل أو يموت، ونظافته فلا يتسخ أو يتعفن.

إن ذكرت القلب في قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق 37، فالذاكرة منه، وواعظ الله فيه، وإن ذكرت الفطرة في قوله تعالى:﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾الروم30، فالذاكرة كامنة فيها، وإن ذكرت الاستقامة فالذاكرة السوية عون عليها ولَمَّةُ المَلَك فيها ، وإن ذكرت الضلال فالذاكرة المظلمة المتسخة سبيله ولَمَّة الشيطان المُرْكِسَة فيه[[[31]](#footnote-31)].

لذلك كان جوهر دعوات الأنبياء مبنيا على تذكير الناس بما واثقهم به ربهم في الملأ الأعلى إذ قال عز وجل:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾الأعراف 173، وكانت استجابتهم سرعةً أو بُطئاً، إقبالا أو إعراضا على قدر حيوية ذاكرتهم الفطرية وسلامتها ونظافتها. أسْرَعُ الناس استجابة لدعوة الإيمان الأنبياء والرسل عليهم السلام ولكنهم غير مستغنين عن التذكير، ولو استغنى أحدهم عنه لكان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أولى، وقد خاطبه ربه عز وجل في فجر الدعوة بمكة بقوله :﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الإنسان 25، وقوله:﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ الأعراف 205، وقوله:﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام 68، واستمر تذكيره بما نال إخوته الأنبياء من محن وبلاء في عدد من سور القرآن الكريم، من ذلك قوله عز وجل:﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الأحقاف 21، وقوله:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ مريم 41.

كما جعل الحق سبحانه من عملية تحفيز الذاكرة أو تنبيهها أو محاولة إحيائها منهجا للأنبياء في دعوتهم إلى التوحيد، وبوابة الالتحاق بركب الإيمان على مدار الوجود الإنساني في الأرض، بقوله عز وجل:﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق 45، وقوله:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات 55.

إن المرء لتنتابه أحيانا غفلة عن المبدأ والمعاد والحال والمآل، فيهيم في أودية العماء عن معالم الحق، ومهامه جحود آيات الله ونعمائه، وتتقاذفه عواصف الفتن وزوابع البلاء، فإن أراد الله به خيرا انتعشت ذاكرته بدعوة صادقة مباركة أو رفقة طيبة صالحة، أو نفس لوامة نادمة، أو عين بصيرة لماحة ألقت به إلى سفينة الذكرى النافعة، وجادة التفكر المبصر، وأسرعت به إلى التوبة، وفي ذلك يقول الحق سبحانه:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف201.

ولئن كان التذكيرُ بالمبدأ والمعاد والثواب والعقاب أبْلغَ في قلوب أهل الخوف، فإن التذكير بنعم الله وفضله أبلغُ في نفوس أهل الرجاء، لذلك نجد الوحي الكريم في سورة المائدة يخاطب الفئتين، رهبا ورغبا، فبعد الأمر بالوفاء بالعقود نِذارةً، عقَّب بشارةً بذكر نعمته تعالى على أهل الإيمان بإباحة الطيبات وتحريم الخبائث، مآكل ومشارب ومناكح، وبما امتن به عليهم من منهج العدل والأمن والطهارة، ثم بنى ذلك كله على أول ميثاق غيبي واثقهم به في الملأ الأعلى وما تلاه من مواثيق مشهودة بواسطة الأنبياء والرسل عليهم السلام على تتابع الرسالات، وتعاقب الأجيال، آمرا بتذكرها محذرا من نسيانها أو الغفلة عنها أو نقضها فقال عز وجل:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ يذكر الحق سبحانه العباد بآصرتين تجعلان العقلاء منقادين لما فرضه عليهم من تكاليف:

أولهما نعمته عليهم بقوله تعالى﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، والمراد كثرة نعمه، لأن كلمة"نعمة" اسم جنس لكل فضل وعطاء مادي ومعنوي في الدنيا والآخرة، مما لا سبيل لِعَدِّه وحصره، ومعلوم أن كثرة النعم ولا محدوديتها والعجز عن إحصائها إذا لم يستطع غير الله توفيرها تهدي إلى وحدانيته تعالى وتوحيده، وتقتضي شكره وتوجب اتباع منهجه والانقياد لشريعته، وأن من آفات كثرتها واستدامتها أن يألفها المرء ويتعود عليها فينسى مصدرها أو قيمتها، ولذلك أمره تعالى بتذكرها واستحضارها فى الوعي فؤادا وسمعا وبصرا، وفي العقل تفكرا فيما أمده به ربه من حياة وقدرات مادية ومعنوية، وخيرات عامة مآكلَ ومشارب ومناكح وذرية، وما سخره له في الكون من الآيات والكائنات، وما ينتظر المطيعين في الآخرة من نعيم وما أُعِدَّ للعصاة من الجحيم.

أما الآصرة الثانية التي تشد المرء إلى الإيمان فهي ميثاقه مع ربه عز وجل على توحيده واتباع هديه وإفراده بالعبادة، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وذلك مُؤَدَّى ما أُخِذ على آدم عليه السلام عندما أهبط مع زوجه إلى الأرض بقوله تعالى:﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ طه 123، وما واثق به الحق سبحانه ذرية آدم إذ أخذهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على توحيد ربوبيته وألوهيته، وما أخذ على الأنبياء والرسل عليهم السلام بقوله عز وجل:﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ آل عمران81، وما أخذ على أهل الكتاب كافة بقوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ آل عمران187، ومن ذلك ما أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين بقوله تعالى:﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الحديد 8، وما بايع عليه نقباء الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة، وما أخذ على أصحاب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفرّوا أو يُولُّوا الدبر فنزل قوله تعالى:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح 18، وكل هذه المواثيق ملزمة للمسلم من كل جيل، بصفته وارث مواثيق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع ربهم على التوحيد ووارث دينهم الإسلامي الذي لا يقبل عند الله غيره، قال تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾آل عمران 19، وقال:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران 85.

ثم بين عز وجل ما يقتضيه الوفاء بحق هاتين الآصرتين نعم الله ومواثيقه فقال:

﴿ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إذ أعلنتم العزم على شكر نعم الله تعالى والوفاء بميثاقه، وقلتم سمعا وطاعة، وذلك يقتضي استيعاب ما أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، واستيعاب ما ترشد إليه السنة النبوية استيعابا يفضي للمسارعة إلى العمل والتنفيذ، عقيدة وشريعة واتباعا واقتداء، ومحبة صادقة وموالاة تامة لله ولرسوله والمؤمنين.

وحذر من الجراءة على دينه بنقض هذه المواثيق أو نسيانها أو الغفلة عنها فقال عز وجل:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قُوا أنفسكم غضب الله تعالى وعقابه، فلا تنقضوا ما أبرمتم من عقوده، ولا تخِلُّوا فيما تخفونه أو تبدونه بما عاهدتموه عليه، لأنه عز وجل يعلم سركم كما يعلم علانيتكم﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لاتخفى عليه خطرات قلوبكم ولا خلجات صدوركم.

وكيلا يُظَنَّ أن الوفاء بهذه المواثيق متعلق فحسب بما سبق في هذه السورة من التشريعات الفردية في المأكل والمشرب والمنكح حلالا وحراما، وطهارة الأنفس صفاء وتسامحا وتغافرا، وطهارة الأبدان وضوءا وغسلا وتيمما، عقب الحق سبحانه بفروض العبادة الجماعية للأمة الإسلامية التي أخرجت للناس كافة وأوجزها في ثلاثة تكاليف هي القوامة على تنزيل منهج الله في الحياة، وشهادة الصدق على البشرية، وإقامة العدل بين الناس.

أما التكليف الأول فقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ ولفظ:"قوامين" صيغة مبالغة تعني المبالغة في القيام بالشيء والمداومة عليه، من فعل"قام" أي نهض، نقيض جلس، ويستعمل مجازا بمعنى المحافظة، ومنه قوله تعالى:﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ أي محافظون عليهن، وبمعنى الملازمة والثبات في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً﴾ ورجل قائم على الشيء وقوام به إذا ثبت عليه وتمسك به وواظب على رعايته، ولا يكون كذلك إلا إذا أتى به تاما مقوَّما لا نقص فيه ولا اعوجاج. ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا).

وقوله تعالى:﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ حذف منه ما أمر الله بالمبالغة في القيام به، للعلم به فيما سبق وهو الوفاء بميثاقه العام الشامل لكل أعمال الدنيا والدين، وصرح فيه بما لا يقبل العمل إلا به وهو الإخلاص في الأمر كله بقوله تعالى:﴿لِلَّهِ﴾، فدلت الآية الكريمة على وجوب الإخلاص في العمل على إقامة أمر الإسلام ومنهجه في الأرض، أمة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، ودولة عزيزة مستعلية بإيمانها مستقوية بربها، ومجتمعا متماسكا متكافلا متعاونا على البر والتقوى، وأفرادا متكاملين فقها وعلما وثقافة وصدقا مع ربهم وأمتهم.

وأما التكليف الثاني فقوله سبحانه:

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط هو العدل نقيض الجور، وشهادة العدل الواجب أداؤها على الأمة الإسلامية هي الإسلام تبليغا وبيانا وتوريثا لكافة الأجيال على قدم المساواة من دون تمييز أمة على أمة أو عرق على عرق أو لون على لون، وعملا على إقامة أمره في النفوس والمجتمعات كاملا غير منقوص ولا مزيد، من قوله تعالى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران 18/19. وقوله عز وجل:﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الأنعام19، وقوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ المعارج 32/33.

وأما التكليف الثالث فهو إقامة العدل بين الناس بقوله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾أي لا يحملنَّكم على الظلم أو يستدرجنَّكم إليه بغضُ غيركم لكم أو بغضُكم لغيركم من أي دين أو جنس أو لون أو قوم كانوا، لأن ظلم الغير ظلم للنفس وتنكر للوحدة الإنسانية، ونقض للميثاق مع الله تعالى، وعاقبة الظلم وخيمة العواقب في الآخرة، يقول تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾سبأ 31، والخطاب بذلك عام في المسلمين وغير المسلمين، فلا يجوز أن يتعامل الناس فيما بينهم إلا بالعدل والإنصاف، ولذلك أكده الحق تعالى بقوله عقب ذلك:﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي إذا كانت غايتكم تقوى الله ومرضاته فاعدلوا، فإن العدل أقرب طريق تبلغكم درجة الأتقياء﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه فلا تنقضوا ميثاقه ولا تراقبوا سواه﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم خفي أعمالكم وظاهرها فيجازيكم بها، وتكرير الإخبار في هذه الآية بعلم الله تهديد للعصاة الظلمة وتأكيد لأهمية العدل ووجوب توفيره في المجتمعات الإنسانية.

وحيث كان مضمونُ هذه الآية الكريمة وعدا للمطيعين ووعيدا للعصاة عقَّب الحق سبحانه بذكر ثواب من امتثل وأطاع وعدل فلم يظلم بقوله:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعد الله الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والعدل في الرضا والغضب بما لهم عنده﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تغفر خطاياهم ويقبل صالح عملهم ويثابون أعظم الثواب في الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (المقسطون على منابر من نور يوم القيامة).

ثم شفع وعد المطيعين بوعيد العصاة وفاء بحق البشارة والنذارة وإقامة للحجة فقال:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: والذين كفروا بالله إلحادا أو شركا أو إنكارا لما هو معلوم من الدين بالضرورة، وكذبوا بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم والسنة الثابتة مصيرهم جهنم هم أصحابها والمصطلون بجحيمها.

وبعد التذكير بنعم الله تعالى العامة ومواثيقه الغليظة، وبما أعد للأبرار من النعيم وللعصاة من الجحيم، أعيد التذكير بنعمة خاصة أغدقها الحق سبحانه على المسلمين فيها سلامتهم من أعدائهم، وهي نعمة نصرهم بإلقاء الرعب في قلوب المتربصين بهم من الكفار والمشركين فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ هم أعداؤكم﴿أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أن يبطشوا بكم، من فعل بسط لسانه إليه إذا شتمه، وبسط يده إليه إذا بطش به﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ رد شرهم عنكم، وأنقذكم منهم في كل مرة أوشكوا على الإيقاع بكم.

وقد ذكر لسبب نزول هذه الآية الكريمة روايات مختلفة منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق الناس عنه وعلق سلاحه بشجرة فجاء أعرابي وسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه وقال: ما يمنعك مني؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: الله، قالها ثلاثا، فأسقط جبريل عليه السلام السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:(من يمنعك مني؟)، فقال: لا أحد. إلا أن الخطاب في الآية موجه لجميع المسلمين زمن البعثة النبوية مما يشير إلى مواطن كثيرة كف الله تعالى فيها أيدي الكفار عنهم، ومنها يوم أحد ويوم الأحزاب، ويوم حنين ومن قبل كف الله عنهم أيدي قريش وهم مستضعفون في مكة قبل الهجرة.

ولذلك ختم الحق سبحان هذا التذكير بحثهم على شكر النعم، وخير الشكر التمسك بالتقوى وحسن التوكل فقال:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، إذ ليس للمؤمن من حصن يحميه في الدنيا والآخر إلا تقوى الله والتوكل عليه.

العاقل من اتعظ بغيره واستيقظ قبل أن يوقظ

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)﴾ المائدة |

الدين عند الله واحد هو الإسلام، والميثاق بينه وبين عباده على التوحيد اعتقادا راسخا وتصورا إيمانيا واضحا سليما، وعبادة خالصة أساسها الكتاب والسنة، لذلك كان خطابه تعالى للأمم والشعوب في كل عصر أمرا واحدا بتطبيق منهج هذا الميثاق في حياة الفرد والجماعة، تنشئة وتربية وأسرة ونظام اجتماع وسياسة واقتصاد، وكانت بذلك حياة المؤمنين في كل عصر حلقات متتابعة من تجربة الوفاء والتدين، وكان لا بد لهذه التجربة كي تثمر لدى كل أمة من مراجعةٍ نزيهة وتذكُّرٍ يقظٍ يجعلانها على بينة من أمر دنياها وآخرتها، معتبرة بما سلف ومن سلف، كي يتجنب اللاحقون أخطاء السابقين، فتسير البشرية صُعُدا في مدارج أولي النهى والعرفان، ومعارج أولي التُّقى والإيمان. لذلك حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بذكر أخبار الأمم السابقة في علاقتها بما نزل إليها من الدين وفاء به أو نقضا له، إيمانا به وثباتا عليه أو جحودا به وتنكرا له، وبالتحذير من الوقوع فيما وقع فيه السابقون كما في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾الحشر 19، وقوله أربع مرات في سورة القمر:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ القمر 17، وجعل هذه الآية فاصلة تتلى بين فقرات من السورة، عقب خبر إهلاك قومِ نوح عليه السلام، وعقب خبر إهلاك عاد قوم هود عليه السلام، وعقب خبر إهلاك ثمود قوم صالح عليه السلام، وعقب خبر إهلاك قوم لوط عليه السلام.

لذلك بعد أن ذكَّر الحق سبحانه عباده المؤمنين في الآيات السابقة من سورة المائدة بنعمته عليهم، وأمرهم بالوفاء بما عاهدوه عليه وقال:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ المائدة 7، عقب بما نقض بنو إسرائيل من عهدهم، وما نالهم لذلك من ذلة وصغار ولعن، تحذيرا للمؤمنين من أن يفعلوا فعلهم، أو يسيروا على نهجهم، فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وبنو إسرائيل هم نسل أسباط[[[32]](#footnote-32)] إسحاق بن إبراهيم من ولده يعقوب عليه وعلى أنبياء الله السلام، وكانوا اثني عشر حفيدا هم يوسف وإخوته، وقد أخبر القرآن الكريم أن والدهم عندما حضره الموت أخذ عليهم موثقا على التمسك بالإسلام توحيدا وعبادة، بقوله تعالى:﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة133، ونشأت منهم لتفرق كلمتهم وعدم الألفة بينهم اثنتا عشرة قبيلة هي المذكورة في قوله عز وجل:﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ الأعراف 160، أي اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام. وكان بنو إسرائيل لِمَا جبلوا عليه من التردد والتمرد كلما جاءهم نبي أو ارتكبوا خطيئة أُخِذ عليهم عهدُ التوبة والثبات على الإيمان والعمل الصالح، كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ البقرة 63/64، وقوله عز وجل:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ البقرة 93.

أما قوله تعالى:﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ فالنقيب من فعل "نَقَب" الرجلُ و"نَقَّب" إذا بحث عن شيء خفي، ونقَبَ على قومِه - من باب ضَرَبَ وَعَلِمَ - نقابةً أي: صارَ نقيباً، والنقيب على أي جماعة في لغة العرب بمثابة قائدها والشاهد عليها وأمينها والمطلع على أحوالها، يليه العريف ثم المنكب، وهو عونه في جميع ما يحتاج إليه. والإشارة في الآية إلى ما أمر به موسى بني إسرائيل من أن تتخذ كل قبيلة منهم نقيبا يرعى شؤونها ويكون كفيلا عليها وضامنا لوفائها بما عاهدت عليه، وهم النقباء الإثنا عشر الذين ذكر أصحاب الأخبار والسير أن موسى بعثهم إلى الأرض المقدسة لمعرفة أخبار الجبارين وقدراتهم ومبلغ إعدادهم القتالي، وأخذ عليهم موثقا بألا يخبروا أحدا سواه بما يطلعون عليه منهم، فلما رأوا قوة الجبارين وسطوتهم خافوهم ونقض عشرة منهم ميثاق موسى فحدثوا قومهم بما رأوه ونهوهم عن القتال، ثم عندما أمر الله تعالى بني إسرائيل بقتال الجبارين وقال لهم موسى:﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة21، وعدهم عز وجل على ذلك بالنصر والتمكين ما وفوا بعهدهم معه وجاهدوا في سبيله بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وكان هذا الخطاب لبني إسرائيل من الله على لسان موسى عليه السلام ترغيبا لهم في الطاعة وترهيبا لهم من المعصية، ومقدمة لميثاقه معهم تطمئن قلوبهم وترفع معنوياتهم، وتعني أنه تعالى معهم بالعلم والقدرة والنُّصرة ما أقبلوا على الجهاد، عليم بنواياهم وأعمالهم، قدير على نصرتهم ما وفوا بالميثاق، وعلى معاقبتهم ما نقضوه.

ثم فصل شروط هذا الميثاق فقال عز وجل:

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ وحرف اللام في قوله تعالى:﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، و"إن" شرطية، ودلت الآية على أنها تضم قسما وشرطا، جوابهما معا هو قوله تعالى عقب ذلك:﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وتقديرهما أنه سبحانه يقول: "وعزتي لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر عنكم سيئاتكم". أما الوفاء بشرط هذا القسم فمتعلق بخمسة أمور هي قوله تعالى:

﴿ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ وإقامتها تقتضي أداءها كما فرضت به احتسابا وإحسانا، وواجبات وسننا وأركانا، وبما تؤدي إليه من التطهر أخلاقا وأروحا وأبدانا، لقوله تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت 45.

﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ وهي الزكاة التي كانت مفروضة على بني إسرائيل كما يبدو من صريح الآية.

﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ بكل الرسل الذين بعثوا قبل موسى عليه السلام والذين يأتون بعده ممن أخبرهم به الوحي، وفي مقدمتهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهو شرط مأخوذ على كل أمم رسالة الإسلام لا يقبل بدونه عمل، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ النساء150/151.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وتعزيرُ الأنبياء والرسل في هذا السياق يُفيد تعظيمَهم وتبجيلَهم ونصرتهم وإعانتهم وتأييدهم والدفاع عنهم ونشر دعوتهم واتباع ما أَمَروا به واجتناب ما نَهَوْا عنه.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾والإقراض الحسن هو الصدقات المندوبة مما سوى الزكاة المفروضة، خصها الحق سبحانه بالذكر لشرفها وعلو مرتبتها، كيلا يكتفي الناس بالزكاة وحدها، قال تعالى:﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ الذاريات 19، وفي صحيح مسلم عن مُطرّف عن أبيه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ:﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: يقول ابن آدم: مالي مالي!"، قال: (وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟).

أما جزاء الوفاء بهذه الشروط الخمسة فتضمنه قوله تعالى عقب ذلك:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والتكفير لغةً السترُ، وهو سنة مطردة في عفو الله تعالى على المذنبين من عباده إن تابوا وتمسكوا بصحيح الإيمان لقوله عز وجل:﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ هود 114. أي: لَيسترَنَّ الله سيئاتهم ويمحوَنَّها ما وفَّوا بهذه الشروط، ولَيجزيَنَّهم بأحسن مما عملوا من الطاعة فيدخلهم الجنة: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

ثم عقب الحق سبحانه ترهيبا من عاقبة الإخلال بهذه الشروط فقال:

﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ فمن نقض الميثاق وكفر بوجوب الصلاة والزكاة والإنفاق في سبيل الله، والإيمان بالرسل اتباعا ونصرة وتأييدا ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أضاع الطريق إلى الحق وإلى الجنة، وتاه في سبل الشقاوة والضلال.

فهل استوعب بنو إسرائيل ترغيب الله تعالى لهم في الوفاء والطاعة، وتحذيره لهم من الخيانة والعصيان إذ خاطبهم بقوله:﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ؟، إن القرآن الكريم إذ يبين قوة ما واثقهم به بقوله تعالى:﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ النساء 154، وخطورة ما ارتكبوه بقوله تعالى:﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ المائدة 70، فإنما ليعلن عاقبة أمرهم وتناسب عقوبتهم مع ذنوبهم تحذيرا للمسلمين من السير على نهجهم، ولذلك عقب الحق تعالى بقوله:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: بنقضهم الميثاق ﴿ لَعَنَّاهُمْ﴾ واللعن هو الطرد والإبعاد، أي: أبعدهم الله من رحمته، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ ران عليها ما اكتسبت من الإثم فصارت صماء لا تلين لذكر الله ولا تخشع لما نزل من الحق، ومردت على العصيان والبغي والضلال كما وصفها الحق سبحانه بقوله:﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ البقرة 74، ديدنهم أن يحرفوا ما ينزل إليهم من كلام الله تعالى وكلام أنبيائه ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ بالتغيير وسوء التأويل والتلبيس والتدليس والزيادة والنقص، تبعا لأهوائهم وشهواتهم وزيف مصالحهم.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والنسيان في هذا السياق ورد بمعنى الترك عن غفلة والترك عن قصد، أما "الحظ" لغةً فيدل على النصيب الكبير الذي يعد من يناله محظوظا، أي أنهم تركوا أكثر وأخطر نصيب مما نزل عليهم من الذكر، عقيدة ومواعظ وأحكاما شرعية، كفرا بها أو تهاونا وغفلة عنها أو انصرافا عن العمل بها، كما هو الشأن مثلا في خلو التوراة التي بين أيديهم بعد تحريفها من ذكر اليوم الآخر ومافيه من نعيم دائم وعذاب مقيم.

ثم يتجه الوحي الكريم ملتفتا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم محذرا من الثقة بهم أو الاغترار بمعسول كلامهم بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ ولفظ: ﴿خَائِنَةٍ﴾ ورد بمعنى المصدر أي خيانة، كما في قوله تعالى:﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ الحاقة 5، أي بالطغيان؛ وقوله عز وجل:﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ الواقعة2، أي كذب، وقوله:﴿لَا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ الغاشية11، أي لغوا. ويجوز أن يكون لفظ ﴿خَائِنَةٍ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: "ولا تزال تطلع على فرق خائنة من اليهود فاحذرهم. وفي الآية إشارة للرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما سبق من خيانات يهود المدينة له ونقضهم عهوده،ومحاولاتهم قتله وتسميمه. إلا أنه سبحانه وتعالى مع تحذيره من غدرهم يحضه على معاملتهم بالتسامح والصفح وعدم مؤاخذتهم بما صدر عنهم، ما حافظوا على مواثيقهم وجنحوا للمسالمة وعدم العدوان، ويخاطبه عز وجل بقوله:﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ عن أخطائهم، تأليفا لقلوبهم وتجاوزا عن زلاتهم واستدراجا لهم إلى الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أنت يا محمد قدوتهم وأسوتهم ورائدهم إلى الإحسان.

ثم لما بين الحق سبحانه ما جبل عليه أكثر اليهود من نقض للعهود وجراءة على الخيانة عقب بذكر الطائفة الثانية من أهل الكتاب وهم النصارى، وأنهم لم يكونوا في أخذهم الإنجيل بأحسن حال من اليهود مع التوراة فقال عز وجل:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ في الإنجيل ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا أخطر تعاليمه وأهمها، تركوا التوحيد الخالص فاختلفوا عقيدة وشريعة ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فتفرقوا طوائف متعادية متباغضة متحاربة، بينها من الشقاق والأحقاد ما سالت به على أيديهم دماؤهم، سواء بسبب خلافاتهم العقدية حول التوحيد والتثليت، أو تناحرهم حول الزعامة الكنسية أو المصالح السياسية والاقتصادية، منذ تنصر إمبراطور القسطنطينية الوثني وعمل على تغيير التوحيد المسيحي بسطوة الملك وقهر السلطان، وما زالت هذه الفتنة ماضية فيهم إلى يوم القيامة كلما قيل نامت استيقظت أو قيل خمدت ثارت ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ويوم القيامة سوف يعرفون فساد ما صنعوا ويلقون جزاء ما أحدثوا.

وبعد، فلقد كان مراد الخطاب القرآني من هذه الآيات الكريمة كلها أن يتعظ المسلمون في كل عصر بحال أهل الكتاب ، ويعتبروا بما آل إليه أمرهم من نقض للعهود وترك لأحكام الدين، وتمزق طائفي وتناحر دموي، والعاقل من اتعظ بغيره، والجاهل من اتعظ بنفسه، والنبيه يستيقظ قبل أن يوقَظ، ويَعتبِر قبل أن يُعتبَر به، وقصص القرآن الكريم وأخباره معالم لليقظة والاعتبار، قال تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يوسف 111؛ فهل استوعب مسلمو هذا العصر قوله تعالى:﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر 2 ؟ وهل حذِروا ما حذَّرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: (لتتبعن سنن الذين كانوا من قبلكم حذو النعل بالنعل حتى إن أحدهم لو دخل جحر ضب لدخلتموه)؟

واقع الحال أن كثيرا من مسلمي هذا العصر شعوبا وحكاما – إلا من أراد الله بهم خيرا - نقضوا ما عاهدوا الله عليه، ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. ولئن خاطب الحق سبحانه أهل الكتاب إذ لم يحكِّموا في حياتهم التوراة والإنجيل بقوله عز وجل:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المائدة 68، فإن كثيرا من دول المسلمين أيضا ليست على شيء من تحكيم شريعة القرآن الكريم في أمرها، لاستبدالها القوانين الوضعية واستغنائها بها. ولئن قتل اليهود بعضهم فخاطبهم تعالى بقوله:﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ البقرة 85، وطاردوا أنبياءهم واغتالوهم فقال لهم:﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾البقرة 87، فإن المسلمين ارتكبوا ويرتكبون نفس الآثام بقتلِهم خلفاءَهم الراشدين وعترةَ نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم، واضطهادِهم في كل عصر ومصر دعاةَ الحق سجنا وقتلا ونفيا وتشريدا للأهل والذرية. ولئن حذرهم القرآن من الفرقة والتمزق الطائفي بقوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران 105، فإنهم الآن فرق متناحرة وطرائق متنافرة ونحل تدَّعي وصلا بالدينِ والدينُ لا يقر لهم بما يدعون، فلا عجب أن يتجرعوا حنظل الندامة بعد أن استهانوا بصادق النصح ولطف العتاب ولين الملامة، ولم يعبؤوا بجميل البشارة أو صريح النذارة، وأن تقرعهم قوارع الفتن والمحن لإعراضهم عما نزل إليهم وإصرارهم على ما تهوى أنفسهم، وأن يصيبهم ما أصاب القرون الأولى ذلا وخسارا، والأمم السالفة صغارا ودمارا.

أخطاء السلف عبرة وتربية للخلف

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) ﴾ المائدة |

دأبت سورة المائدة من أول آية فيها على التمهيد لالتحاق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى وإعداد المسلمين لتحمل مسؤولية الدعوة إلى الإسلام ونشره بعده، لذلك كان لابد من تذكيرهم فيها بما أُخِذ عليهم من عهد الإيمان والسمع والطاعة، مقرونا بإتمام ما بقي من أحكام شرعية عملية، إشعارا بأن الدين اعتقاد وعمل لا ينفصلان ولا تقبل بدونهما عبادة، وتحذيرا مما أخل بمعتقدات أمم الرسالة قبلهم مما شرحناه في الحلقات السالفة.

وبما أن الدعوة إلى الإسلام منوطة بالمؤمن قولا وعملا وتعاملا ، فقد كان عليه أن يكيف نفسه عند مخاطبة غيره من أتباع الديانات الأخرى بما يناسب هذه المهمة، ويجعله قدوة حسنة لغيره فيما يدعو إليه، تسامحا ولين حديث وعشرة، وتجاوزا عن الأخطاء وعفوا عن الإساءة، وحوارا منطقيا مبنيا على العقل المتوازن السليم، والتناسب بين المقدمات والنتائج والمنطلقات والغايات، ولذلك بعد أن بين الحق سبحانه في الآيات السابقة ما ارتكبه اليهود في حق الرسول صلى الله عليه وسلم من غدر وخيانة ومحاولات اغتيال وتسميم لم يأذن له بأن ينتقم منهم أو يؤذيهم مع أنه كان في حالة نصر وتمكين وقدرة بعد أن فتح مكة ودانت له العرب، بل خاطبه الحق سبحانه بقوله:﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة 13.

بذلك كان خلق العفو من أهم صفات الداعية إلى الإسلام، العفو الذي لا يستفزه غضب ولا يستثيره عدوان، ولا يستخفه جهل أو عصيان، وقد كان تعالى يأمر به نبيه صلى الله عليه وسلم كلما آذاه خصوم الدين من أهل الكتاب والمشركين، قال عز وجل:﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ الأحقاف35، وقال:﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الشورى 43، وقال:﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت 34.

وكان الأمر بالعفو في سورة المائدة تمهيدا للانتقال من تذكير المسلمين بعهودهم وضرب المثل لهم بمن نقضها قبلهم كما في الآيات السابقة، إلى تعليمهم منهج الدعوة إلى الله حسنَ أدب وجميلَ صفح وتسامح، وجدلا علميا حسنا لا تلغى فيه العقول ولا تهان فيه الكرامة، لذلك قال تعالى مخاطبا أهل الكتاب ومبينا مهمة رسوله صلى الله عليه وسلم إليهم، وما جبل عليه من خلق كريم وخلال حميدة، وما ينبغي أن يكون عليه ورثة دعوته:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، والنداء في هذه الآية موجه في عمومه لغير المسلمين من كل الطوائف والديانات، ولكنه اختص اليهود والنصارى لِمَا كانوا يمتازون به عن غيرهم من معرفة بالقراءة والكتابة، وما لديهم من بقايا علم الكتاب الذي نزل عليهم.

ولئن كان النداء خطابا للحاضرين منهم في زمن البعثة النبوية وما بعدها فلأن ما يدينون به من تحريف لكلام الله تعالى إخفاء وتركا وتلبيسا كان من فعل من سبق من أحبارهم ورهبانهم، ولذلك كان الالتفات في هذه الآية الكريمة من صيغة الغائب إلى مخاطبة الحاضرين الذين ورثوا ضلالات أسلافهم وتمسكوا بها.

وقد تضمن النداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ تصريحا مؤكدا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى اليهود والنصارى كما هو مبعوث إلى الناس كافة، وردا على زعمهم أن دعوته خاصة بالأميين، وأن أهل الكتاب في غنى عنها بما لديهم من تراث أحبارهم المحرف، وذلك شبيه بما يدعيه بعض القوميين المعاصرين من أن القرآن الكريم تراث عربي لا يخاطب غير العرب.

كما تضمن قوله تعالى عقب ذلك:﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ بيان هدفين من أهداف البعثة النبوية الشريفة، أولهما :

تجديدُ دينهم الإسلامي الذي ورثوه مبتورا ومحرفا، وتذكيرُهم بحقيقة العقيدة التي أتى بها موسى وعيسى عليهما السلام، فأخفاها رهبانهم وأحبارهم وحرفوها ونسوا أحكامها، وردُّهم إلى التوحيد الخالص والتصور الإيماني السليم الذي كانوا عليه قبل أن يدخل عليهم الشرك بسبب أهواء ألفوها وشهوات استطابوها وفتن لم يصمدوا لها.

أما الهدف الثاني لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة فهو قوله تعالى:

﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يصفح ويتجاوز عن كثير مما ارتكبوه من ظلم وعدوان على الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وكثير مما اجترحوه في حق رسالة الأنبياء والرسل عليهم السلام تحريفا وكتمانا وافتراء، لا سيما وقد نصره الله عليهم، وأقدره على معاقبتهم، وأفضل العفو عند المقدرة، والكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح.

ثم أوجز الحق سبحانه جوهر ما جاءت به الرسالة النبوية مجملا فقال:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ والنور هو الإسلام دينا ومنهج حياة، أنوار الهداية إلى الحق فيه ظاهرة لمن تدبرها واستبصر ضياءها وانشرح صدره لها، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ الزمر22، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف 8، وقوله:﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾الأعراف 157.

أما الكتاب المبين فهو القرآن الكريم الذي يبين أحكام الإسلام وقواعده وتشريعاته ومواعظه وحكمته، وكان بذلك دليلا ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ يأخذ بيد الباحثين عن الحق والراغبين فيه والساعين إلى رضوان الله تعالى فيبلغهم ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المؤدية إلى سلامة النفس في الدنيا توازنا وسكينة وطمأنينة، وسلامة القلب من مشاعر السوء ومزالق الأهواء، وسلامة العقل من العماء والغباء، وسلامة الجوارح من الآثام، وإلى السلام مع الكون انسجاما وتفاعلا إيجابيا رضيا، ومع الإنسانية سعيا للخير ونشرا للمحبة والوئام، ومع المجتمع تكافلا وتعاونا وتناصحا، ومع الأسرة زوجا وولدا وبناء للأجيال الصالحة، وإلى السلام في الآخرة حسابا يسيرا وانقلابا إلى الجنة فرحا وسرورا.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يخرجهم من الظلمات الموحشة المضلة، ظلمات الشهوات الفاسدة، والقيم الهابطة، حيث عماء الرؤية وغبش التصور ومزالق الحيرة والتيه والتعارض والاصطدام والاقتتال، وزلل العقول والأفئدة وموجبات الإحباط والعذاب، ﴿إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ إلى نور الوضوح في البصر والبصيرة، وضوء المعرفة واليقين في القلب والسريرة، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يأخذ بهم إلى طريق غير ذي عوج نحو جنة الخلد بفضل الله تعالى، هو طريق الاعتقاد الصحيح، ألوهيةً وربوبية وتصورا إيمانيا واضحا، علما وعملا، امتثالا للأوامر واجتنابا للنواهي، قال تعالى:﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إبراهيم 1.

من خلال هذه الآيات الكريمة تبينت وحدة دين الإسلام لدى كل الأنبياء والرسل، واتضحت وحدة ميثاقه تعالى مع جميع عباده على الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعلى العمل بما فرض عليهم من عباداتٍ فردية وجَماعية في جميع المجالات، علميةً كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ، صلاةً وزكاة وصدقة ونُسُكا وجهادا في سبيل الله.

ومادام الخطاب موجها لأهل الكتاب، فقد تم الالتفات عقب ذلك بصيغة الماضي إخبارا بما نقضوا به عهدهم مع الله تعالى، وتحذيرا للمسلمين من أن ينهجوا نهجهم أو يعملوا عملهم، لا سيما وقد نال الخلل لديهم كل معالم العقيدة، فسادَ تصور وعلانيةَ جحود ووقاحةَ خطاب لموسى وجلافةً في الحديث عن الله تعالى.

أما خلل العقيدة لديهم فقد مس ركنين أساسيين فيها:

أولهما تصورهم الإيماني لله تعالى، في قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والنصارى في هذا الخلل طوائف، طائفة جعلت عيسى عليه السلام ربّاً، وطائفة جعلته ابنا للرب، وأخرى جعلته ثالث ثلاثة. دخل هذا التحريف عقيدتهم بعد أن فُقِد الإنجيل الأصلي الذي نزل على عيسى عليه السّلام، فاختلفت معتقداتهم، ثم تخلوا عن التوحيد الخالص رسميا في مؤتمر نيقية[[[33]](#footnote-33)] سنة 325 ميلادية، وتبنوا عقيدة التثليت بناء على توجيهات الإمبراطور قسطنطين الأول، فأحرقوا كتب"آريوس" داعية التوحيد لديهم وقتلوه، وطاردوا أتباعه واضطهدوهم لإنكارهم ألوهية عيسى عليه السلام، وإيمانهم ببشريته ونبوته، واعتقادهم أن الروح القدس من مخلوقات الله تعالى. وكذلك اليهود من قبلهم إذ فتنوا بكاهن منهم يدعى عزيرا[[[34]](#footnote-34)]، سكن بابل حوالي سنة 457 قبل الميلاد بعد خراب بيت المقدس، وأعاد جمع أسفار التوراة وعمل على إحياء اليهودية، فقدسه اليهود ووصفوه بأنه ابْنُ اللَّهِ. تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

ولذلك أنكر عليهم الحق سبحانه ما زعموه بقوله عز وجل:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة30/31، وقوله سبحانه:﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة 72، وقوله:﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ النساء 171.

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم، ومجادلتهم ببديهيات العقول السوية وسلاسة المنطق السليم ومشاهدات الحس والتجربة فقال:

﴿قُلْ﴾ قل لهم يا محمد: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من يملك من أمر الله وقدرته شيئا يدفع به الهلاك عن عيسى وأمه إن أراده الحق سبحانه لهما، أو عن سائر أهل الأرض إن أراد إفناءهم جميعا، والاستفهام في هذه الآية لإنكار جراءتهم على مقام الألوهية، وإبطال دعواهم الحلول والاتحاد والتثليت، وتسفيه تصورهم لوحدانية الله وصمديته، وتوبيخهم على ما اقترفوا، إذ الأمر كله له تعالى وحده، مشيئته نافذة وإرادته مطلقة، وسلطانه شامل قاهر، لا يملك جلب النفع أو دفع الضرر أو خلق الموت والحياة في جميع الكائنات إلا هو تبارك وتعالى، ولا تملك نفس لنفس شيئا إلا بدعاء صادق يقبله عز وجل، أو شفاعة يأذن بها لمن ارتضاه، لأنه تعالى صاحب الملك المطلق التام للسماوات والأرض وما بينهما:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتصرف في الكون بما تقتضيه حكمته ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ في السماوات والأرض، إبداعا لأجَل يشاؤه وإفناء في أجَل يقدِّره، لا يشترط عليه أن يخلق بطريقة معينة أو هيئة مخصوصة، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ العنكبوت 19، وهو لذلك يخلق من العدم، ويخلق من ذكر وأنثى، ويخلق من ذكر دون أنثى، ومن أنثى دون ذكر، والآية في آدم عليه السلام إذ خُلق من دون أب ولا أم أشدُّ وضوحا وإعجازا منها في عيسى عليه السلام إذ خُلق من أم بلا أب، وليس لمن يؤمن بالله تعالى وقدرته المطلقة أن يفتن بأحدهما، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا حد لقدرته ولا معترض على إرادته.

أما الركن الثاني من التصور الإيماني الذي أصابه الخلل لدى أهل الكتاب، فهو العلاقة بين الخالق والمخلوق، في قوله تعالى عنهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ولذلك يزعمون أنه سوف يعاملهم معاملة الأب لأبنائه والحبيب لحبيبه، فلا يعذبهم بذنوبهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يدخلهم النار إلا أياما معدودات كما في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ آل عمران 24. وهذا خلل في تصورهم لعلاقتهم بالله تعالى وفي تصورهم لعدله المطلق الذي لا يحابي ولا يميز بين العباد إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولذلك أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله عز وجل:

﴿ قُلْ﴾ اسألهم يا محمد سؤال تنبيه لهم من غفلتهم وزراية بمستوى تفكيرهم: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إذا كنتم أبناءه وأحباءه فلم كان ينزل بكم أصناف العذاب الدنيوي عبر تاريخكم الطويل كلما لججتم في المخالفة وأغرقتم في الانحراف والجحود؟ ولم سيعذب منكم في الآخرة من أصر على الكفر ومات عليه؟، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بل أنتم بشر من جملة ما خلق الله تعالى في الكون كله، عبيد له عز وجل، والعلاقة بينكم وبينه علاقة عبودية محضة وعدل مطلق، ينالكم ما ينال جميع المخلوقات مما يشاؤه ويختاره سبحانه كما قال في آية أخرى:﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ مريم93/95، له أن يغفر من ذنوب عباده ما يشاء مما سوى الشرك فيدخلهم الجنة، ويعذب منهم من يشاء فيدخلهم النار. يتصرف في السماوات والأرض وما بينهما بحكم ملكيته للكون كله ومقتضى علمه وقدرته وحكمته وعدله وفضله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو الخالق المالك ذو التصرف المطلق والمشيئة الحرة، فلا يغفُلَنَّ أحد عن هذه الحقيقة ولا يَنْسَيَنَّ أن العبرة في الأمر كله بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، لا بما يدعي الأسلاف والأخلاف من علاقة وهمية وتصور إيماني فاسد ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾وإليه سبحانه رجوعكم يوم القيامة للمحاسبة والجزاء، كي تعلموا بطلان ما تدعون وفساد ما تزعمون وعاقبة ما تجحدون.

ثم عقب الحق سبحانه على هذا التصحيح العقدي لتصورهم الفاسد عن ربهم تعالى وعلاقتهم به، يذكرهم بأن الحجة قد قامت عليهم ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وإتمامه الرسالة لهم وللناس كافة، فلم يبق لهم عند الله عذر إذ يصيرون إليه يوم القيامة متلبسين بمخالفة أمره، فقال عز وجل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ما أخفاه عنكم رهبانكم وأحباركم، وما نسيتموه أو أخفيتموه من الدين﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ بعد فترة طويلة من انقطاع الوحي وبعث الرسل غابت بها معالم العقيدة والشريعة، هي ما بين بعثة عيسى وبعثة محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كيلا تلتمسوا الأعذار بغياب الرسل في هذه الفترة، وتدعوا يوم القيامة أن الله لم يرسل لكم من يبشركم بما عنده من مغفرة ونعيم مقيم لمن آمن، وينذركم مما أعده من عذاب لمن جحد وكفر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم يبلغكم بشارة ربكم ونذارته، ويرفع عنكم عذر الجهل ومبرر الإعراض، ويقيم الحجة لكم أو عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على أن يفعل بعباده ما يشاء، عفوا وعقوبة، قبولا لأعذارهم أو ردا لها.

أما خلل العقيدة لدى أهل الكتاب بجحود النعمة فقوله تعالى عقب ذلك مذكرا خلَف بني إسرائيل بما فعله سلفهم في عهد نبيهم موسى عليه السلام، ومحذرا عباده في سوء فعلهم وعاقبة ما حل بهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ ومن نعمته تعالى عليهم أن جعل أكثر أنبيائه من ولد أبيهم يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ منهم داوود وسليمان عليهما السلام وغيرهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي)، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ لم يقيد عطاءه لهم إلا بشرط توحيده والوفاء بعهده والقيام بدينه والمحافظة على شريعته فلا تحرف أو تبدل أو تنتقص. وكان تذكير قوم موسى بهذه النعم تمهيدا لاختبار إيمانهم وثقتهم بربهم وأدبهم مع نبيهم وطاعتهم له، لذلك أمروا عقب ذلك مباشرة بالجهاد في سبيل الله تعالى لتخليص الأرض المقدسة من قومها الوثنيين، وإقامة منهج التوحيد ودين الإسلام عليها، وقال لهم موسى عليه السلام:

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ادخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الرب لكم، فاتحين مجاهدين في سبيله مقبلين على القتال غير مدبرين ولا مترددين ولا خائفين ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا تفروا من الزحف ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فتخسروا الدنيا والآخرة.

فما كان منهم إلا أن بدت عليهم أسوأ أربع خصال هي: العصيان الناتج عن الخوف مما سوى الله تعالى، وعدم الثقة بوعده عز وجل لهم بالنصر، وسوء الأدب عند مخاطبة الأنبياء، والوقاحة في الحديث عن الله تعالى جل ثناؤه.

أما أولاهن فبرفضهم دعوة الجهاد خوفا من الكنعانيين جباري الشام وفلسطين عندما أحسوا بالخطر على خواء قلوبهم من حقيقة الإيمان، وطغت عليهم مشاعر الجبن التي جبلوا عليها، لا سيما وهم لم يألفوا في مستهل أمرهم مع نبيهم إلا الغنائم الباردة والمكاسب السهلة، كما في فلق البحر لخروجهم إلى سيناء وإهلاك عدوهم فرعون على غير أيديهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، وانبجاس الماء من الصخر لشربهم، وحمايتهم من حر الشمس بالغمام، فما كان من ردهم على أمر ربهم إلا أن:﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، وفي الآية إشارة إلى ما كان منهم عندما ساروا نحو الشام عقب خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من قومه اثني عشر نقيبا، يبثهم إلى الأرض المقدسة ليتحسسوا أحوال الكنعانيين الجبارين بها، تمهيدا لغزوهم كما شرحنا ذلك سابقا في الآية الثانية عشرة من هذه السورة.

وأما عدم الثقة بوعد الله لهم بالنصر، ووقاحتهم في الحديث عن الله جل ثناؤه، وسوء أدبهم عند مخاطبة الأنبياء فبرفضهم أمر الجهاد وقد وعدهم تعالى بأن تكون الأرض المقدسة لهم إن دخلوها فاتحين بقوله عز وجل:﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ثم بإصرارهم على العصيان عندما ذكرهم رجلان صالحان منهم بوعد النصر الذي وعدهم الله به على لسان موسى، وحرضاهم على اقتحام باب مدينة عدوهم عنوة مجاهدين متوكلين على الله وحده، كما أخبر بذلك الحق سبحانه عقب ذلك بقوله:﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فلجوا في التمرد والرفض المقرونين بسوء الأدب مع نبيهم إذ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، ثم أوغلوا في الوقاحة بحديثهم عن الله تعالى كأنه رب موسى وحده وليس ربا لهم، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. والإشارة في وصف الرجلين الصالحين بالخوف من الله تعالى تشي بما لهذا الشعور النبيل في بناء الشخصية المسلمة المستعلية بإيمانها في ميادين مواجهة طواغيت الأرض وجبابرتها ماضيا وحاضرا، لأن الخوف من الله وحده لا يجتمع مع الخوف مما سواه في قلب المؤمن أبدا، وبما في هذا الوصف من تعريض وزراية بأهل الجبن والهلع وخور العزيمة والحرص على الحياة.

أسقط في يد موسى عليه السلام بما رأى من سفاهة قومه وتخاذلهم وإيثارهم الراحةَ مع الضعة والهوانَ على عزة الجهاد واستعلاء الإيمان، فلم يملك إلا أن جأر بالاعتذار إلى ربه للشكوى مما لقي من قومه:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: يا رب إني لا أملك لنصرة دينك من بني إسرائيل إلا نفسي وأخي هارون الذي يطيعني، ثم دعا عليهم: ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فاقض بالعدل بيننا وبين قومنا العصاة الفاسقين، وبما أن دعوة الأنبياء مستجابة فقد وُصِلَت بالإجابة بقوله تعالى عقبها:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن شرط دخولها كان هو الجهاد، فلما أخلوا بالشرط تخلف المشروط ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يمكثون عقوبة لهم خارج الأرض المقدسة أربعين سنة، حائرين خائفين من مواجهة عدوهم، راكنين إلى ضعة أمن مزيف وراحة ذل مقيم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾والأسى هو الحزن، من فعل"أسِيَ يأسى أسىً" إذا حزن، أي: فلا تحزن يا موسى على قومك وقد فسقوا عن أمر الله تعالى بالقعود عن الجهاد، وفسقوا عن أمرك بالعصيان والتمرد، وفسقوا بجراءتهم على مقام الألوهية ووقاحتهم على مقام النبوة، وكان ما قدره الله تعالى من عقوبتهم استجابةً لدعوة نبيهم عليهم.

وفي فترة التيه هذه انقرض جيل الآباء، وخلفهم جيل جديد نشأ في المحنة وشظف العيش وجفاء الصحراء، لم يألف حياة الجبن والذل والخنوع التي كان عليها السابقون تحت سطوة فرعون وجنوده، فدخلوا الأرض المقدسة، مما شرحناه في سورة البقرة من قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ البقرة 58/59 .

لقد خاطب الحق سبحانه في هذه الآيات المباركة أهل الكتاب ودعاهم إلى الإيمان برسالة الإسلام المتجدد برسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل عليه من القرآن الكريم، وذكرهم بما ارتكبه أسلافهم من نقض لميثاقه وانحراف عن سبيله، وبما أصابهم من غضبه وعذابه، إلا أن هذا الخطاب الإلهي موجه أيضا لجميع المسلمين في كل عصر، تربية لهم، وتحذيرا مما عصف بعقائد غيرهم من أهل الكتاب، وأخل بوحدتهم وأمنهم في الدنيا، وسلامتهم في الآخرة، وتذكيرا بما قد يكون عليه حالهم إن نقضوا الميثاق أو خانوا الأمانة أو استحلوا الحرمات دماء وأعراضا وأموالا، ومع ذلك نرى كثيرا من مسلمي هذا العصر يسارعون الخَطوَ للحاق بمن ضل قبلهم حالا ومآلا.

نبأُ ابنَيْ آدم وتشديد عقوبة القتل على بني إسرائيل

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (32) |

من مقتضى حكمته تعالى وتمام رحمته بعباده وإحسانه إليهم أن جعل شريعته مشتملةً على مصالح عائدةٍ عليهم في الدنيا والآخرة، مبنيةً على علل منصوصٍ عليها، أو مقاصدَ مستقرأةٍ منها، أو غاياتٍ محمودة تأخذ بهم إلى الحق، لذلك نجد في القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة ما لا يكاد يحصى من الأحكام التي تقدمتها أو أعقبتها عللُها مبيَّنةً أو مستقرَأةً، وحكمتُها صريحةً أو مضمرةً، سواء تعلق ذلك بالعقيدة كما في تعليل الحق سبحانه خلق الإنسان بوجوب عبادته إذ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات 56، وقال:﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ القيامة 36، وقال:﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾المؤمنون 115، أو تعلق بإيجاب وتحريم أو أمر ونهي كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام 151، أو تعلق باستخلاص حقوق ودفع عدوان أو إقامة حدود كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة 179، أو تعلق بعقوبة ذنب أو عصيان يُرجَى الإقلاعُ عنهما وعدمُ العودة إليهما كما في الآيات السابقة التي عللت ما حل ببني إسرائيل من عقوبة التيه والحرمان بعصيانهم أمر الجهاد، وجراءتهم على مقام الألوهية، وسوء أدبهم مع نبيهم، وجعلت هذه العقوبةَ وعلَّتَها المنصوص عليها أداةً لإصلاحهم وإصلاح ذريتهم من بعدهم، وعبرةً لمن يأتي بعدهم من المسلمين، ومقدمةً بعيدة الغور لإيراد نبأ عدوان أحد ابني آدم على أخيه واتخاذ ذلك علة لتحريم قتل النفس البشرية وإيجاب المحافظة على أمن المجتمع، وتكريس حق الإنسان على أخيه الإنسان، لما بين القصتين – قصة التيه وقصة ابني آدم - من بعدٍ تربوي عميق، وتناسبٍ يحقق هدف التنزيل ومقاصده، وتماثُلٍ يربط المقدمات بالنتائج، يربط جراءةَ بني إسرائيل على ربهم وعصيانَهم أمره إذ قالوا:﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة 24، بتيههم في سيناء وحرمانهم من دخول الأرض المقدسة، ويربط قتل ابن آدم أخاه ورفضَه حكم الله عند تقديمه قربانه برفع ذنب قتل النفس الواحدة بغير حق إلى درجة قتل الناس جميعا، وذلك ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته تذكيرا وتحذيرا إذ أمره تعالى بقوله:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ والمراد بابني آدم ولداه، أما لفظ "ابن آدم" مفردا فيطلق على الواحد من البشر كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (في ابن آدم ستون وثلاثمائة سُلَامَى[[[35]](#footnote-35)] على كل واحد في كل يوم صدقة، كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة، والشَّربة من الماء يسقيها صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة)، ويطلق اسما لجنس الإنسان كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (كل كلام ابن آدم عليهِ لا لَهُ، إلاَّ أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله).

أما تلاوة خبر ولدي آدم في الحادثة المشار إليها ﴿بِالْحَقِّ﴾ فتعني سردها على حقيقتها في الواقع بحمولتها التربوية حكمة بالغة وعظة راشدة، لا كما ترويها أساطير الأولين أو ما ورد في التوراة المحرفة، من زعم أن اسميهما قابيل وهابيل، وأنهما تلاحيا بسبب طمع كل منهما في الزواج بإحدى بنات آدم، وتقرب هابيل بأحسن ماشيته فتقبله الله وتقرب قابيل بأردإ زرعه ولم يلق قبولا، فغضب وقتل أخاه، واكتفى القرآن الكريم بذكر ما يحقق الهدف من الحادثة، من دون تحديد لزمان وقوعها أو مكانه أو اسم لأحد الأخوين فيها، أو ذكر لأي تفاصيل ليست لها أهمية في المجال التربوي الذي سيقت له، وكذلك السنة النبوية إذ بينت أن وزر هذه الجريمة على من ارتكبها وعلى من سنها أول الأمر، تحذيرا للمسلم من أن يَسُن السوءَ فيُتَّبَع فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تُقْتَل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها لأنه أول من سنَّ القتل)، وقال: (من سن سنة حسنة عُمِل بها بعده كان له أجرُه ومثلُ أجورهم من غير أن يُنقَص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة فعُمِل بها بعده كان عليه وزرُها ومثلُ أوزارهم من غير أن يُنقَص من أوزارهم شيء)، وليس لنا في مجال استخلاص العبرة من هذه الحادثة إلا أن نلتزم بالنص القرآني، نستقرئ تعابيره وإيحاءاته دون تَزيُّدٍ أو مبالغة، مبتدئين بأول إشارة إلى أصل الخلاف بين ابني آدم بقوله تعالى:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ والقربان هو البِرّ الذي يتقرب به إلى الله تعالى، من فعل "قرُب قربانا"، مثل رجح رجحانا، وشكر شكرانا وكفر كفرانا وخسر خسرانا، ثم أطلق المصدر منه "قربان" على ما يتقرب به إلى الله من نُسُك أو صدقة، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجرة: (يا كعب بن عجرة الصيام جُنة والصدقة تطفىء الخطيئة والصلاة قربان). ولئن كان مضمون الآية يشي بأن ابني آدم كانا مؤمنين إذ قدما قربانهما لله كي يفصل بينهما، فإنها تكتفي بذكر هذا التقريب مجملا، فلا تبين صنفه ولا عدده ولا مكانه ولا كيفة تقديمه حرصا على عدم تحويل الحادثة إلى قصص للتسلية والتلهي، وحصرا لذهن المتلقي في العبرة منها، ووصولا به مباشرة إلى نتيجتها، بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أي فتقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الثاني، أما كيف عرفا أمر القبول من عدمه فقد يكون وحيا لأبيهما آدم أو علامة من الغيب ظاهرة، أو غير ذلك مما لا أهمية له في تحقق العبرة من الحادثة، لا سيما والغاية التربوية أخذت في الاتضاح والبروز بما دار بين الأخوين من حوار كشف نموذجين مختلفين من طباع البشر، نموذجا مسالما سمحا طيبا وديعا، ونموذجا عدوانيا حسودا حاقدا رفض نتيجة التحكيم واستسلم لغيظه فثار في وجه أخيه:

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ عالَنَهُ بالعزم على قتله إمعانا في إيذائه نفسيا قبل أن يقتله، إلا أن هذا التهديد لم يزد أخاه إلا وداعة ومسالمة وثقة بربه، وعفة عن الظلم والعدوان ورضا بقضاء الله وقدره ورجاء لحسن مصير الصابرين المحتسبين في الآخرة، فما كان من رده على أخيه إلا أن: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ تعريضا بفجور أخيه في الخصومة ورفضه حكم الله بينهما، وحرصه على الانتقام والعدوان، ثم زاد توضيحا لموقفه الإيماني وتذكيرا غير مباشر لأخيه بحق الأخوة، ورابطة العقيدة وحساب الآخرة فقال له:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾لئن تجرأت على ربك فمددت إلي يدك بالقتل ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ فلست بالذي يمد يده إليك بالقتل ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾لأنني أخاف الله ربي وربك ورب الكون كله، فلا أعصيه ولا أعتدي على عباده، ولا أتجرأ على سفك دماء حرمها، وما دمتَ قد اخترت طريق العصيان والتجبر والطغيان مصرا عليها، فإني أختار غير طريقك وأحذرك عاقبة عملك في الآخرة ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ولئن قمت بقتلي فليس لي من مطلب عند الله إلا أن تتحمل إثم قتلي وإثم رفضك حكم الله في خلافنا، فتدخل النار ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ من أمثالك.

إن ابن آدم المسالم في موقفه هذا يمثل أصالة الأخوة الإيمانية والإنسانية في صفائها الفطري قبل أن تلوثها نوازع الشر وكوامن الحسد والحقد والأثرة، وهي الأصالة التي بشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أمر بما يكون عليه العمل في الفتنة فقال:(اجلس فى بيتك فإن خفت أن يبهرك شعاع السيف فغط وجهك)، وفي لفظ: (فكن كخير ابني آدم)، وفي لفظ: (فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل).

لقد كان ابن آدم القتيل في نصحِه أخاه القاتل وتذكيرِه بعذاب الله وغضبه على من يقتل النفس البشرية بغير حق، وفي موقفه الإيماني وشعوره بأخوة الدين والرحم ما يهدئ القلوب ويرد إلى الصواب من القول والعمل والمشاعر الطيبة، إلا أن النفس الأمارة في هيجانها وعمائها عن الحق وحرصها على إرواء غليل حقدها صمَّت وعمِيَتْ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ هونت للأخ الظالم أمر القتل وجرأته وشجعته عليه فقتله في سورة غضب وحسد ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ خسر القاتل أخاه الشقيق، وخسر والديه إذ فجعهما بقتل ولدهما، وخسر عشرة هنيئة طيبة في أسرته، ونفسا مطمئنة سوية هادئة، وخسر فوق ذلك كله آخرته. فلم يدر من هول الصدمة وعنف التجربة وقد فقد توازنه النفسي وغشيت الظلمة سمعه وبصره ووعيه ما يفعل بجثمان أخيه وهو يتحلل بين يديه مكشوف العورة، إلى أن قيض الله له غرابا يستنقذه مما هو فيه ويعلمه كيف يستر أخاه ويدفنه:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ألهم الله غرابا يحفر الأرض أمامه ليدفن غرابا آخر ميتا ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ والسوءة لغة هي العورة ويكنى بها عن الفضيحة الكبيرة، أي ليعلمه كيف يستر فضيحة عدوانه فيدفن جثمان أخيه ويغطي عورته وما لا يجوز أن ينكشف من جسده.

إلا أن هذا التعليم من طائر أعجم لم يزد القاتل إلا شعورا بدناءةِ فعلته، وهوانِ قوته التي استغلظ بها على أخيه، وقصور إدراكه وهمته عن بلوغ إدراكٍ وهمةٍ لغراب وجد غرابا ميتا فبرَّه وتطوع بدفنه ومواراته التراب، فانقلب نادما على فعلته، محتقرا جهالته وعجزه، مسترجعا شعور الأخوة التي خانها، والرحم التي تنكر لها والإنسانية التي اعتدى عليها:﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا﴾ ولفظ "الويل" معناه الهلاك، تقال في القرآن لمستحقي العذاب في جهنم كما في قوله تعالى:﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الجاثية 7، وتستعمل الكلمة مطلقا عند وقوع مصيبة عظيمة، كأن قائلها يدعو الويل ليحضره ويقول:" يا ويْلُ، هذا أوانُ حضورك فاحضر، فقد تعاظمت الدواهي ولم يبق منها إلا أنت"، قالها ابن آدم القاتل اعترافا باستحقاقه العذاب، ثم عقب مستصغرا قدرته وإدراكه: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أيبلغ بي الجهل والسفاهة أن لا أبرَّ أخي وأن أقسو عليه فأقتله، وإذ قتلته ألَّا أُدْرِكَ ما أدرك الغراب، وأفعل ما فعل، فأواريه التراب وأستر عورته المكشوفة في العراء كما وارى الغراب أخاه؟

إن الله تعالى إذ خلق الإنسان من نفس واحدة وجعل منها زوجها وذريتها أضفى عليها من الكرامة والحرمة ما يحفظها من المهانة والعدوان، قال عز وجل:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء 70، فإن قُتل شخص واحد ظلما أو اعتُدي عليه أو هتكت حرمته فقد أهين مَنْ كرمهم الله جميعا، إذ لا فرق بين الواحد والجمع، وإهانة من كرمهم الله تعالى جراءةٌ عليه تغضبه، كما أن تكريم من كرمهم تُرْضيه، لذلك اتخذ سبحانه من هذه الحادثة أداة لتربية الخلق على السلم والأمن والمواطنة الكريمة والأخوة السامية، وسبيلا لقمْعِ ظواهر العدوان والظلم والاستهانة بالحرمات، فأنزل تشريعه لبني إسرائيل بمضاعفة إثم القتل بغير الحق، ثم ذكَّر به المسلمين قرآنا يتلى كيلا يفعلوا فعلهم، ولتكون الحادثة سبيلا إلى استئصال الميل للجرائم والفرح بها، ويكون ما بُنِيَ عليها من أحكام قاعدة تؤهلهم لاستيعاب روح التشريع الإسلامي ومقاصده فقال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بسبب هذا العدوان الصارخ على ما كرم الله تعالى من بني آدم وما حرمه من دمائهم، فرض على بني إسرائيل تشريعا جزائيا مشددا زاجرا لجريمة القتل هو:

﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي قتلها بغير ما تستحق به القتل شرعا، قصاصا أو دفاعا عن النفس مثلا ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإثم جريمته يعدل إثم قتل بني آدم كلهم، لأن كل نفس بشرية خلقت من النفس الأولى التي ثبت لها ولما تناسل منها حق الحياة وحق التكريم بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ النساء1، وكل قتل لواحدة من هذه النفوس أو إهانة لها هو اعتداء على ما قرره تعالى لها من الحقوق. ولذلك شددت الشريعة الإسلامية التغليظ على قاتل النفس البشرية، فقال تعالى:﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء 93، وقال صلى الله عليه وسلم محرما الجنة على من سفك دما أو ساعد على سفكه:(من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم امرئ مسلم أن يهريقه؛ كأنما يذبح به دجاجة، كلما تعرض لباب من أبواب الجنة؛ حال الله بينه وبينه)، وقال: (يأتي المقتول متعلقاً رأسه بإحدى يديه متلبباً قاتله بيده الأخرى، تشخب أوداجه دماً، حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني. فيقول الله للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار)، بل إن الإسلام جعل لدم الحيوان مهما صغر أو ضعف حرمة تمنع قتله بقوله صلى الله عليه وسلم: (ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة)،قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: (حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي به). وسواء كان القتل قتالا ومقاتلة أو غدرا وغيلة أو مباشرة أوإعانة عليه فإنه محرم تحريما قطعيا، وقد قال صلى الله عليه وسلم في المسلمين يتقاتلان: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار) قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصا على قتل صاحبه)، وقال فيمن قتل مسلما أو معاهدا – أي غير محارب - : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركا أو قتل مؤمنا متعمدا) وقال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما)، وعن أبي هريرة أن رجلا جاء إلى الزبير بن العوام فقال: ألا أقتل لك عليا؟ فقال: كيف تقتله ومعه الجنود؟ قال: أفْتِك به قال: لا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإيمان قَيَّدَ الفتكَ[[[36]](#footnote-36)]، لا يفتك مؤمن).

أما من حافظ على حياة الإنسان بأن سالمه فلم يقتله ولم يعمل على قتله فقد قال عنه تعالى عقب ذلك:

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي من حرم على نفسه القتل ولم يقتل أحدا فثوابه عند الله يعدل ثواب من أحيى الناس جميعا. وتبعا لذلك يكون تكريم النفس البشرية وتوفير حقوقها والدفاع عنها وتأمين سلامتها وإنقاذها من المهالك تكريما لجميع النفوس البشرية بسائر أنواع التكريم المشروعة.

هذا عن قتل الأفراد لبعضهم، أما تقاتل فئات االمسلمين فيما بينها عصبية لقوم أو جنس أو حزب أو لنظام حكم غاشم أو لأمير ظالم مهما كانت الشعارات المرفوعة فتلك الراية العِمِّيَة التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: (من قُتِل تحت راية عِمِّية، يدعو عصبية أو ينصر عصبية، فقتلته جاهلية). وأسوأ من ذلك وأشد ضلالا أن يقاتل المسلمون بعضهم بقرار من عدوهم يأمر به حاكما مسلما خاضعا له، فيصدره الأمير على لسان فقيه فاسق فتوى بالجهاد وما هو بالجهاد، كما هو الحال في عصرنا هذا إذ تحول شعار الجهاد إلى محرقة للشباب المسلم وتخريبا تهدر بها طاقاتهم، وتهان به أمتهم ويرتاح به عدوهم.

آية الحرابة وبنو إسرائيل

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)﴾ المائدة |

يعبر في القانون الوضعي المعمول به في بلاد المسلمين عن عقوبة القتل بلفظ "الإعدام" وهو مصطلح غربي له جذوره في عقيدتهم التي ترى القتل إعداما، من العدم الذي هو ضد الوجود، وحروف العين والدال والميم أصل واحد يدل على فقدان الشيء، والإعدام بذلك إفناء الشيء وإحالته إلى عدم، ومنه قوله تعالى: :﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ 26- 27، بينما القتل لغة من فعل: (قَتَلَ) والقاف والتاء واللام أصل يدل على إذلال وإماتة، أي إذلال المرء وإماتته، وهو في العقيدة الإسلامية مجرد انتقال إلى الآخرة للحساب والجزاء، لأن هذا الفعل لا ينتهي بالفناء ولا تطوى صفحته بالإعدام، وإنما نهايته بالعرض على المحكمة الإلهية كي يفصل فيه بين الحق والباطل والظالم والمظلوم، سواء كان القاتل أو المقتول رئيسا أو مرؤوسا، قويا أو ضعيفا، ذا جاه وسطوة أو محقرا ومستضعفا، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما فيقول: يا رب! سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش).

ولذلك ضيق الشرع الحكيم مجال عقوبة القتل، فلم يجعل حق القصاص الذي هو قتل القاتل بيد الحاكم، وإنما جعله بيد أولياء القتيل وحدهم إن شاؤا قتلوا ونفذ الحاكم إرادتهم تحت مسؤوليتهم حفاظا على الأمن والنظام العام، مع ترغيبهم في العفو عن القاتل وعدم الإسراف بقتله لقوله تعالى:﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الإسراء 33، وإن شاءوا عفوا ولهم الدية بقوله تعالى:﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البقرة 178. وكان بذلك هذا التشريع السمح رحمة بالأمة الإسلامية ما التزمت به وسارت على هديه، أما بنو إسرائيل فكان نقضهم المتوالي لميثاقهم مع ربهم، وإيغالهم في القتل والعدوان على أولياء الله من الرسل والأنبياء والصالحين سببا في تشديد عقوبة القتل عليهم كما اتضح من الآيات السابقة، ثم لما لم يرتدعوا ضاعف الله تعالى التشديد عليهم فجمع لهم في الدنيا بين أشد العقوبات وبين الخزي، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب، وعلل ذلك بكونهم تمادوا في القتل على رغم ما جاءهم من الآيات نصائح ومواعظ وتحذيرا وتهديدا وتشريعا، فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾جاءهم رسل الله الذين تعاقبوا عليهم بالشرائع التي تكرم النفس البشرية وتحرم إزهاقها أو إذلالها ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ثم إن كثيرا منهم بعد تحريم قتل النفس وتعظيم حرمتها أسرفوا في القتل وبالغوا في الفساد فسفكوا دماء الأنبياء والرسل والصالحين وأخرجوا أبناء عقيدتهم من ديارهم، كما حدثنا بذلك القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ البقرة 84/85،.

إن كثيرا منهم كما ذكرت الآية الكريمة مسرفون في القتل لا يبالون بما ضوعف لهم من عقوبته في الآخرة، لأنهم مردوا على سلوك مادي يؤمن بالملموس والمحسوس والدنيوي والآنيِّ وحسابات الربح والخسارة، وجبلوا على التعلق بالحياة الدنيا والتكالب الأعمى عليها، ومَن كانت هذه طباعه وأخلاقه لا ينزجر إلا بالعقوبات المادية الشديدة العاجلة، لذلك عقب الحق سبحانه على حالهم هذا بما هم أهله من تشريع حازم حاسم عاجل لا يمهل، فخاطب القلة الصالحة فيهم بما تستحقه الكثرة المسرفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ المائدة 32، وذلك بقوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وقبل البدء في شرح هذه الآية الكريمة ينبغي التذكير بأن سياقها القرآني يشي بأنها خطاب لبني إسرائيل بعدما أوغلوا في الفساد وسفك الدماء، وهي بذلك تشريع لهم أولا، ولا مجال للأخذ به في المسلمين إلا لمن يرون أن شرع من قبلنا شرع لنا، أو من يتأولونها تعسفا في مجال الصراع السياسي على السلطة ويعدونها نزلت في خصوم الحكام ومعارضيهم والخارجين عليهم بالحق أو بالباطل، بالقلم واللسان أو بالسيف والسنان.

أما عن أسباب النزول وهي نقطة الانطلاق في اختلاف فقه الآية وتأويلها لدى فقهاء الفروع والأحكام السلطانية، فقد وردت فيها أقوال متضاربة[[[37]](#footnote-37)]، منها أنها نزلت في قوم من عرينة مرضوا مرضا شديدا فنزلوا المدينة وأظهروا الإسلام فبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبل الصدقة يشربون ألبانها وأبوالها[[[38]](#footnote-38)] فلما صحُّوا قتلوا الرعاة وساقوا الإبل وارتدوا، ومنها أنها نزلت في قوم أبي برزة الأسلمي وكان قد عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم فمر قوم من كنانة يريدون الإسلام وأبو برزة غائب فقتلوهم وأخذوا أموالهم، ومنها أن الوعيد في الآية مختص بالكفار، ومنها أنه في فساق المسلمين، ومنها ما ذهب إليه أكثر فقهاء الأحكام السلطانية وهي أنها نزلت في قطاع الطريق والخارجين على السلطان، إلا أن تضارب هذه الروايات واضطرابها يدفع الأخذ بها، ليبقى السياق القرآني ومبادئ اللغة العربية ومبناها البلاغي دليلا إلى ما سيقت له وأمرت به، وهو أنها في بني إسرائيل إذ بالغوا في سفك الدماء وأسرفوا في القتل، فحذرهم عز وجل من عاقبة ذلك وغلظ عليهم العقوبة في الدنيا والعقاب في الآخرة، فأصروا وأوغلوا فيما نهوا عنه فعد الله تعالى أعمالهم هذه كفرا ومحاربة له ولرسوله وسعيا في الأرض بالفساد، ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، وتقدير معناها في سياقها القرآني مع ما قبلها: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فسادٍ فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعًا ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات الواضحة على تحريم القتل والعدوان، ولكن كثيًرا منهم أسرفوا في قتل أولياء الله ومحاربة دينه والسعي في الأرض بالفساد، ومن أقدم على ارتكاب هذه المنكرات فقد حارب الله ورسوله وكان جزاؤه أن....".

أما المحاربة في قوله تعالى:﴿ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فإنها في حق الله تعالى مستحيلة، لذلك وجب حملها على المجاز أي: محاربة دينه، كما أن محاربة الرسل عليهم السلام ممكنة في حياتهم وتُحمَل على المجاز بعد مماتهم إذا حوربت رسالتهم ودعوتهم وسنتهم. ومثل هذه الآية الكريمة مما نزل فيمن يعادون محمدا صلى الله عليه وسلم ويحاربون دعوته قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الأحزاب 57، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾المجادلة 5

وأما الفساد في قوله تعالى:﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فيعني ما كان يرتكبه بنو إسرائيل من الكذب على الله وقتل رسله وأوليائه، والاستخفاف بالدماء وانتهاك الحرمات، وتحريف الدين بالزيادة والنقص والكتمان والتأويل الفاسد، وأكل السحت والتعامل بالربا وغير ذلك مما أخبر به التنزيل الحكيم، فكان هذا التشريع في حقهم تحميلا للمفسدين والقتلة منهم دم الإنسانية كلها، وعقوبة شديدة تُهْدَر بها آدميتُهم كما أهدروا آدمية غيرهم واستخفوا بدمائهم وحقوقهم، واستباحوا حرماتهم وأموالهم وعملوا على إفساد دينهم.

ثم أخذ الوحي في تفصيل هذه العقوبة بقوله تعالى:

﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ والتقتيل بصيغة التشديد للمبالغة، وهو الإيغال في القتل والمثلة، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن االتقتيل والإيغال فيه بقوله: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)، كما نهى عن المثلة بالإنسان مطلقا ولو معاملة بالمثل في الحرب، بما رواه صحيحا عمران بن حصين قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثنا على الصدقة وينهانا عن المُثْلَة)[[[39]](#footnote-39)]، ولَمَّا وقف صلى الله عليه وسلم يوم أحد ورأى ما بحمزة رضي الله عنه وبقتلى المسلمين من المثلة حلف ليمثّلنّ بسبعين من المشركين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل 12 ، فقال: (بل نصبر)، وكفّر عن يمينه. بل إنه صلى الله عليه وسلم حرم حتى المثلة بالحيوان ولعن من مَثَّل به فقال: (لعن الله من مثَّل بالحيوان)، وحرم أكل الممثول به من الطير والبهيمة، قال مجاهد: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمثَّل بالذوات وأن تؤكل المَمْثول بها). وقال أيضا: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من الأنصار وقد نصبوا شاة يرمونها بالنبل فقال:(هذه المعذبة، لا تأكلوا لحمها)، ومر عبد الله بن عمر بشباب من قريش يرمون دجاجة فقال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من يمثِّل بالحيوان).

أما الصلب فطريقة تعذيب وتقتيل يعلق بها الشخص على خشبةٍ مُسمَّرَ اليدين والرجلين إليها حتى يموت من الإجهاد والجوع والعطش، أو يعلق عليها بعد قتله للتشهير به وإرهاب غيره، وقد عرفه الرومان وأعدموا به عبيدهم، كما عرفه قبلهم الفراعنة فصلبوا وقطعوا الأيدي والأرجل من خلاف، وحدث بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى عن فرعون موسى:﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾طه 71.

كما أن الصلب والتصليب أصيل فيما عرف تاريخيا عن اليهود، وبه حاولوا قتل عيسى عليه السلام لولا أن رفعه الله تعالى إليه، وهو كذلك من المُثلة التي حرمها الإسلام، فلم يُصلَب أحدٌ من الكفار أو المحاربين أو المنافقين أو الجواسيس أو المرتدين أو البغاة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في الصحيح من أخبار خلفائه الراشدين، ولم يرو عنه صلى الله عليه وسلم أمْرٌ بالتخيير بين القتل والصلب والنفي، وما رواه البيهقي في "السنن" من طريق إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن عُبيد بن عُمير، عن عائشة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا يحل دمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زانٍ مُحصَن يُرجم، أو رجل قتل رجلاً متعمداً، فيُقتل، أو رجل يخرج من الإسلام يحاربُ الله ورسوله، فيقتل، أو يصلب، أو يُنفَى من الأرض) ، فلا يؤخذ به في مثل هذه العقوبات المغلظة، لقول الطبراني فيه: لم يرو هذا الحديث عن عُبيد بن عُمير إلا عبد العزيز بن رُفيع، تفرَّد به إبراهيم بن طَهْمان. وإبراهيم بن طَهْمان قال عنه الحافظ في "التقريب": ثقة يغرب.

أما ماروي عنه صلى الله عليه وسلم بأنه صلب رجلا همَّ باغتياله على جبل بالمدينة يقال له ذباب فكان أول مصلوب في الإسلام، فهو من مراسيل أبي داوود، والمراسيل أضعف من أن يؤخذ بها في الدماء.

وأما قول ابن عباس رضي الله:"إذا حارب فقَتل فعليه القتلُ إذا ظهر عليه قبل توبتِه وإذا حارب وأخذ المالَ وقتَل فعليه الصَّلبُ إن ظهر عليه قبل توبتِه وإذا حارب وأخذ ولم يقتُل فعليه قطعُ اليدِ والرِّجلِ مِن خلافٍ إن ظهر عليه قبل توبتِه وإذا حارب وأخاف السُّبُلَ فإنما عليه النَّفيُ" فرواية لا تصح وإسنادها واهٍ. وأما ما روي عن صلب عمر بن الخطاب فتى وجارية قتلا أم ورقة بنت عبد الله بن نوفل الأنصارية ففيه اضطراب وجهالة.

وأما ما عرفه الصراع السياسي في عهدي بني أمية وبني العباس وما بعدهما من عهود الملك العاض والجبري إذ قتل بنو أمية حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرة عينه الحسين رضي الله عنه ثم حملوا إلى دمشق رأسه على خشبة، وصلبوا الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير في مكة سنة 73 للهجرة، وصلب العباسيون الحسين بن منصور الحلّاج سنة 309 للهجرة، ومُثِّل بالقتلى ونُبشت قبور أعداء الأنظمة السياسية وأحرِقت جثامينهم[[[40]](#footnote-40)] فإنه ظلم صراح لا يُحْتجُّ به على الإسلام ولا أساس له في شريعته.

ثم تابع الوحي سرد هذه العقوبات المغلظة في حق بني إسرائيل بقوله تعالى:

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ وكيفية ذلك أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى، وهي مما كُتِب على بني إسرائيل من أحكام رادعة إذ أكثروا الفساد في الأرض، إلا أن الفقه الإسلامي تلقف هذه الأحكام من شرعهم وتعسف في اقتباسها بتأويل الآية لغير ما نزلت له، ثم عرفها تحت عناوين الحرابة، وقطع الطريق، وحد السرقة إذا تكررت من السارق، مثلما رآه عبد الغني الدمشقي الميداني الحنفي[[[41]](#footnote-41)] إذ قال: "وإذا خرج جماعةٌ ممتنعين، أو واحدٌ يقدر على الامتناع، فقصدوا قطع الطريق فأُخِذوا قبل أن يَأخُذوا مالاً ولا قتلوا نفساً حبسهم الإمام حتى يحدثوا توبةً، وإن أخذوا مال مسلمٍ أو ذميٍّ، والمأخوذ إذا قسم على جماعتهم أصاب كل واحدٍ منهم عشرة دراهم فصاعداً أو ما قيمته ذلك قطع الإمام أيديهم وأرجلهم من خلافٍ" [[[42]](#footnote-42)].

وقال أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي[[[43]](#footnote-43)]: "وإن أخذ مالا فكان ما أخذ عشرة دراهم فصاعدا قطعت يده ورجله من خلاف، فإن قتل وأخذ المال فإن أبا حنيفة قال: الإمام بالخيار إن شاء قطع يده ورجله من خلاف أو صلبه وقتله على الخشبة، وإن شاء لم يصلبه وقطع يده ورجله من خلاف ثم قتله، وإن شاء قتله بغير صلب أو قطع. قال أبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما: إذا وجب عليه القتل لم يقطع لأن القتل يأتي على كل شيء، ولكن أحب إليهم أن يقتل على الخشبة مصلوبا"، ثم زاد: "واختلف في الصلاة عليه على مذهب من يرى أنه يقتل في الخشبة فقال ابن الماجشون[[[44]](#footnote-44)] في الواضحة: ينزل من الخشبة حتى تأكله الكلاب والسباع، ولا يُترك أحد من أهله ولا من غيرهم أن ينزله ليدفنه ولا ليصلي عليه".

إلا أن ما عرفه الفقه الإسلامي في هذا الباب من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، لم يرد في الشريعة الإسلامية كتابا أو سنة، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نفذه أو أمر بتنفيذه، وهو بذلك من تداعيات قيام النظم السياسية بعد الخلفاء الراشدين، وما كتبه الماوردي واستحدثه في أحكامه السلطانية.

وقد احتج من ذهب هذا المذهب في القطع من خلاف بما أخرجه أبو داود والنسائي عن جابر قال: (جيء بسارق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقتلوه، فقالوا إنما سرق يا رسول الله، قال: اقطعوه، فقطعوه. ثم جيء به الثانية، فقال: اقتلوه، فذكر مثله، ثم جيء به الثالثة، فذكر مثله، ثم جيء به الرابعة كذلك، ثم جيء به الخامسة، فقال: اقتلوه، فقال: جابر: فانطلقنا به فقتلناه). ولكن هذا الحديث استنكره النسائي، وقال: "الحديث منكر". وقال: ابن عبد البر: "حديث القتل منكر". بل إن النسائي قال: "لا أعلم في هذا الباب حديثا صحيحا"[[[45]](#footnote-45)].

كما احتجوا بالحديث الذي أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة:(إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله)[[[46]](#footnote-46)]. ولكن هذا الحديث في إسناده الواقدي، وقد أخرج الطبراني والدارقطني نحوه عن عصمة بن مالك، ولكن إسناده ضعيف.

وما أغرب ما رآه ابن قيم الجوزية في الموضوع حيث قال: "ثم تقطع في الثانية رجله فيزداد ضعفا في عدوه، فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع اليد الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحما على وضم فيريح ويستريح"[[[47]](#footnote-47)]، ولا ندري كيف تصور أصحاب هذه الآراء أن الذي تقطع يداه ورجلاه مستريح في نفسه، ومريح لغيره.

أما النفي في الآية الكريمة:﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فيحتمل لفظه أن يكون عقوبة معطوفة على ما قبلها، كما يحتمل أن يكون حرف "أو" بمعنى: "إلا أنْ"، أي: إلا أن ينفوا من أرضهم التي هم فيها، وقد وقع هذا الحكم على بني إسرائيل مرتين، إذ سُبُوا ونُفُوا في سنة 721 ق.م. على يد الآشوريين، وفي سنة 586 ق.م. على يد البابليين. كما أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أجلاهم من المدينة، ونفاهم إلى أذْرَعات في أطراف الشام[[[48]](#footnote-48)] بعد أن أرهقوا المسلمين غدرا وخيانة وتآمرا، كما حدث إذ تحالفوا مع مشركي قريش في غزوة الأحزاب.

ثم عقب الحق سبحانه على هذه العقوبات الأربع تقتيلا وتصليبا وقطعا ونفيا بعقوبة دنيوية خامسة فقال عز وجل:﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ والخزي لغة مصدر فعل: خزِيَ يخزَى خِزيا، المرءُ إذا ذل وهان وافتضح وتوارى لسوءٍ فَعَله أو فُعِل به لا يفارقه، يقال: أخزاه الله يخزيه إِذا مقته وأبعده. وعن سيبويه: خَزِي الرجلُ خِزْيا وخَزًى، إذا وقع في بلية وشَرٍّ وشُهرة بالسوء فَذلَّ بذلك وَهَان. والمراد به في الآية الكريمة عاجل عقوبة المسرفين من بني إسرائيل، أما آجل عقوبتهم في الآخرة فقوله تعالى عقب ذلك: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فجَمَع لهم الحق سبحانه بين خزي الدنيا هوانا وذلا وتشهيرا بالتقتيل أو التصليب أو القطع من خلاف أو النفي، وبين خزي الآخرة عذابا عظيما في جهنم، مثلما جمع ذلك من قبل لقوم عاد إذ كفروا واستعلوا بقوتهم وقال تعالى فيهم:﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فصلت 16، وفي ذلك إشارة إلى أن هاتين العقوبتين – خزيَ الدنيا وخزيَ الآخرة - لا تجتمعان إلا لكافر، وأن الآية في بني إسرائيل خاصة، لا سيما والأمة الإسلامية معصومة من خزي الدنيا والآخرة ما تمسكت بعقيدة التوحيد لقوله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ التحريم 8، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: (غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخرج حتى ظننا أنه لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة حتى ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم؟ قلت: ما شئت ربي، هم خلقك وعِبادك وعُبَّادُك فقال: لا نخزيك في أمتك يا محمد ، وبشرني...)[[[49]](#footnote-49)]، كما أن العقوبات الدنيوية للمؤمن ليست خزيا له، بل مجرد كفاراتٍ مطهراتٍ، سواء كانت حدودا أو قصاصا أو تعزيرا أو مرضا أو محنة، يؤكد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يصاب بمصيبة - وجع أو مرض - إلا كان كفارة ذنوبه، حتى الشوكة يشاكها أو النكبة)، وما رواه عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)، وعندما رجمت امرأة في عهده صلى الله عليه وسلم فقال الناس: حبط عملها، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (هو كفارة ذنوبها، وتحشر على ما سوى ذلك)، وقال عن المرأة الجهنية: (لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى)، وقال عن ماعز رضي الله عنه: (استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم)، كل هذا يبين بوضوح أن الله تعالى لا يخزي المؤمنين، ولا يجمع عليهم بين عقوبات الخزي تقتيلا وتصليبا وقطعا من خلاف ونفيا في الدنيا، وبين العذاب العظيم في الآخرة، يؤيد ما ذهبنا إليه من تخصيص هذه العقوبات ببني إسرائيل أن آيات أخرى جمع الله تعالى فيها بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة نزلت كلها صريحة فيهم أيضا، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة 85، وقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة 114، والمائدة 41.

وكما هي رحمة الله بالخلق كلما أذنبوا وندموا فتحت لهم أبواب التوبة، ختم الحق سبحانه آية العذاب هذه بآية المغفرة والرحمة فخاطب القلة الصالحة المكلفة في بني إسرائيل بإقامة هذه العقوبات وتنفيذها بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: إلا الذين كفوا عن الفساد وتابوا من قبل أن تقدر عليهم القلة الصالحة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلا تؤاخذوهم بما فعلوا لأن الله تعالى غفور رحيم وهو القائل:﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر53.

إن هذه الآية الكريمة تسمى في الفقه الإسلامي "آية الحرابة" وقد تأولها أكثر فقهاء الفروع والأحكام السلطانية لدرء فتن البغي على السلطان والخروج عليه، تحت عناوين ثلاثة يجمعها كلها لفظ الحرابة وهي: فقه البغاة، والخوارج، والمحاربين، واتفقوا على تعريفها بأنها إشهار السلاح وقطع السبيل ومناهضة الحاكم خارج المصر، واختلفوا فيمن حارب داخل المصر، فقال مالك: "المصر وخارجه سواء"، وفرقوا بين من خرج تظلماً فحكمه عندهم أن ترفع عنه المظلمة، ومن خرج متأولاً أنه على حق وأن الإمام غير شرعي، فهو في نظرهم الخارجي، الباغي، المحارب، وحكمه ما ورد في آية الحرابة من التقتيل أو التصليب أو القطع من خلاف أو النفي من الأرض. إلا أن الإمام عليّا رضي الله عنه في مقاومته للبغاة - وهو أول من ابتلي بهم - يرى غير ما رآه الفقهاء بعده، يرى وجوب دعوتهم إلى التوبة وتكرار دعوتهم ومناظرتهم، كما فعل مع معاوية إذ كاتبه وأرسل إليه، ومع الخوارج إذ أرسل إليهم ابن عباس رضي الله عنه فناظرهم فتاب منهم أربعة آلاف، ورفض الباقون دعوته فأرسل إليهم قائلا:"كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دما حراما ولا تقطعوا سبيلا ولا تظلموا أحدا، فقتلوا واليَه عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقروا بطن زوجته وهي حبلى[[[50]](#footnote-50)]، فطلب منهم تسليم القاتل فقالوا:"كلنا قتله" ورفض من لم يقتله التبرؤ ممن قتله، فأذن حينئذ في قتالهم، ومع ذلك لم يكفرهم، وعندما سئل عن عقيدتهم فقيل له: أكفارٌ هم؟ قال: هم من الكفر فروا، فقيل: أفمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلا، فقيل: ما هم؟، قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا.

إن فقه الإمام علي رضي الله عنه في هذه النازلة هو عين الشريعة الإسلامية في وضوحها وعدالتها وحرصها على صيانة دماء المسلمين وحرماتهم، وهو التطبيق السليم لما في الكتاب والسنة من أدلة خاصة صريحة وأخرى عامة، تحرم الظلم والتظالم والعدوان وتلزم بالحق والعدل، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات 9 .ومن السنة النبوية ما أخرجه الحاكم والبزار عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا ابن أم عبد ، هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: (لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فَيْئُها).

أما فقه الأحكام السلطانية وقد نشأ مبكرا في ظل الملك الجبري العاض وفي خدمته، فقد جعل نصح الحاكم الظالم والفاسق والكافر ومحاولة أطره على الحق فسادا في الأرض وخروجا على الأمة، وأجرى على دعاة العدل والحرية والمساواة والعقيدة السليمة متعسفا أحكام آية الحرابة النازلة في بني إسرائيل. ولئن كان البغي في حقيقته القرآنية هو محاربة الله ورسوله بمحاربة الإسلام عقيدة وشريعة، أو بقتل أولياء الله العاملين في سبيله، أو بنشر الفواحش وإشاعتها وتمويل مروجيها وحمايتهم، أو بالتقنين الممنهج الرامي إلى سلبِ الأمة سيادتَها وثروتَها وتركيعِها للأجنبي، فإن الاجتهاد الفقهي في المجال السياسي تحول إلى أداة رخيصة في يد الظلم والاستبداد، وهو بذلك مقلوب القامة يمشي على رأسه، بدل أن يقف على رجلين منصوبتين ثابتتين، والواجب أن تبذل الجهود الصادقة المخلصة، لإعادته إلى الوضع الطبيعي، ساعياً ببصيرة القرآن والسنة، مفكراً بعقله النير، لا بغرائز الخوف والجزع أو الطمع والجشع.

 حد السرقة في الكتاب والسنة وتأويلات الفقه

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (37) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40)﴾ المائدة |

كانت أحكام سورة المائدة آخر ما نزل من التشريعات القرآنية، لم ينزل بعدها إلا سورة النصر، ولذلك نلمس في ثناياها ملامح ختام الوحي، والتحاق قائد مسيرة التوحيد صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، أول هذه الملامح ما حفلت به السورة من نداءات موجهة إلى المؤمنين بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بلغت ستة عشر نداء، وهو عدد لم يبلغه النداء في أي سورة أخرى[[[51]](#footnote-51)]، بما في ذلك سورة البقرة على طولها، وقد غطت هذه النداءات مسيرة المؤمن من فجر عمره الإيماني إذ واثقه ربه على الوفاء بما عهد به إليه في أول السورة بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾المائدة1، إلى آخر لحظة من حياته إذ أوصاه في آخر نداء بالسورة بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ المائدة 106، ولقد تقدم نداء هذه الآية الكريمة القول في خمسة نداءات أخرى تعلقت بأوامر ونواه حول الحياة الخاصة والعامة للمؤمن، أمر بالوفاء بعهد الله، ونهي عن إحلال شعائره، وأمر بالتماس الحلال من المطاعم والمناكح، وأوامر بإقامة الصلاة وشهادة الحق وشكر النعم، وتخلل ذلك كله عرض لما ضلت به أمم الرسالة قبل البعثة المحمدية من عقائد فاسدة وتصرفات جائرة، تحذيرا للمسلمين من فعلهم وورود موردهم، ولذلك قال عبد الله بن مسعود إذ فهم الإشارة وأوجز العبارة: "كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه وإن أدب الله القرآن، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِها سمعك فإنه خير مأمور به أو شر منهي عنه".

ولكون هذه النداءات السابقة متعلقة بأفعال وتروك وعظات في الحياة العملية فقد كان لازما لها من سِلْك ينتظمها جميعا في عِقد رباني يتحلى به المؤمن في الدنيا والآخرة، سلك أوجزه الحق سبحانه عقب ذلك بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ فجمع متفرق المأمورات والمنهيات أولا في قوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي ليكن خوفكم من الله بامتثال أمره ونهيه وقاية لكم من غضبه، تنجيكم من عذابه وتدخلكم جنته، قال تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يونس 63/64، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات40/41.

وأرشد ثانيا إلى ما لا يتم الواجب إلا به فقال:

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ولفظ الوسيلة من فعل وسَل إلى الشيء إذا طلبه ورغب فيه، ومنه: الواسل وهو الساعي للقرب من الله تعالى الراغب في مرضاته، ومنه قوله تعالى:﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الإسراء 57، والوسيلة بذلك ما أبلغك مرادك، وحقق رغبتك، ولذلك أطلقت على درجة من الجنة قال عنها صلى الله عليه وسلم: (إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه)، وقال: (من صلى علي أو سأل لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة).

وإذ انتظمت الوسيلة المأمور بابتغائها كلَّ هذه الأوامر والنواهي وما صاحبَها من التحذير والتذكير فقد عُلِمَ أن بغيرها لا تقبل عبادة ولا تتم قربى، وليس لها إذن من معنى في هذا السياق إلا الإخلاص، لأن الإخلاص عمل للقلب لا يستغني عنه عمل الجوارح، وعنه يتشعب الصدق واليقين والمحبة والرجاء والخوف والرهبة والرغبة والحياء والتعظيم، ومنطلق ذلك كله النية، لأنها قاعدة العمل وركيزته، ومسبار التوجهات وبوصلتها، والمرء لا يستوجب القبول إلا إذا كانت جميع عباداته خالصة لله تعالى، لا يشوبها شرك ظاهر أو خفي، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) وقال عز وجل:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر 2/3، وقال:﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ الزمر11، وقال:﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾الأعراف 29، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام 160/163.

إن مجامع التكليف محصورة في التقوى، وقوام التقوى فعلُ المأمورات وترك المنهيات، واقترانُ ذلك كله بالإخلاص يؤدي إلى مرضاة الله تعالى ودخول جنته، والوسيلة بذلك إلى الله تعالى هي الإخلاص، لأن جميع الأعمال بدونه لا تقرب، كما أن الاكتفاء به من دون أعمال ليست من الإخلاص في شيء، وليست الوسيلة ما يزعم ضلال القوم من توسل بغير الله من الأحياء والأموات والجن والملائكة الذين ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ الفرقان 3.

ولئن قصَّرت الأعمال مع الإخلاص عن بلوغ أعلى درجات الفلاح لمن علت همته وتعلقت بعوالي المجد إرادته فإن له سبيلا آخر أقرب وأبلغ وأسمى هو الجهاد في سبيل الله، ولذلك عقب عز وجل بقوله:

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآية أمر بالسعي إلى ذروة سنام الإسلام التي لا تعدلها عبادة، لما رواه أبو هريرة قال: (قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد؟ قال: إنكم لا تستطيعونه، فردوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا تستطيعونه، فقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله مثل القائم الصائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله)، ولا يعلو عن درجة المجاهد هذه إلا الشهيد الذي بذل مهجته وأراق دمه في الله، قال تعالى:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾آل عمران 169/170.

وفي تعريض واضح بابني آدم إذ قتل أحدهما الثاني إيثارا لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، وبأهل الكتاب إذ غرتهم الحياة الدنيا فنقضوا عهدهم مع الله من أجلها، وتنافسوا في جمعها وادخارها من حلها وحرامها، وقتلوا بعضهم بسببها، وكذبوا الرسل حفاظا عليها، ذكَّر الوحي الكريم بتفاهة جميع ما في الدنيا من زينة وأموال ولذائذ يتركها المرء وراءه عند الموت، ووصف عاقبة من لم يعرف من الحياة والسعادة إلا ما رآه من متاعها فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ لو أن الواحد منهم ثبت له امتلاك ما في الأرض جميعا من أموال وكنوز وخيرات، وامتلك مع ذلك مثله وضعفه – وهذا لا يثبت لمخلوق أبدا - ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأراد أن يقدم ذلك كله افتداء لنفسه من العذاب يوم القيامة ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ لم يتقبله الله منه، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم: (يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به، فيقول: نعم، فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك). ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكان مصيره إلى العذاب الأليم في جهنم. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الرعد 18.

ثم وصف الحق سبحانه حال الكفار في النار بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ يحاولون التخلص من النار ويتمنون أن يخرجوا منها فلا يستطيعون لأن ما كتب عليهم من العذاب مقيم دائم لا ينقطع، وهم في محاولاتهم اليائسة تلك يسألون أحيانا ربهم الخروج منها بقولهم:﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ المؤمنون 107/108، أو يسألون الموت أحيانا أخرى إذا رأوه أرحم من العذاب بقولهم:﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾الزخرف 77.

إن ما يجمعه الكفار من أموال يرتكبون في سبيلها الآثام، ويسفكون لها الدماء، وينقضون لأجلها العهود والمواثيق ليس له قيمة عند الله في الدنيا، ولو كانت الدنيا تساوي جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء، أما الآخرة فليس فيها قيمة إلا للأعمال، ولا يبقى للمؤمن من ماله في الدنيا إلا أجر ما اكتسبه من حله وأنفقه في حله، وخير ما يدخره للآخرة نفقة في سبيل الله يجدها عند الله أضعافا مضاعفة قال تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة 245، أما ما اكتسبه من غير حله سرقة أو نهبا أو ابتزازا أو غشا ونصبا، فليس له في الآخرة إلا سوء الحساب والعقاب ورد الحقوق إلى أصحابها، لذلك عقب تعالى فضرب المثل بأشد أصناف الكسب الحرام عدوانا وهي السرقة، وحد لمرتكبها حدا زاجرا له في الدنيا عن التشوف للحرام، ومطهرا له في الآخرة مما يتبعه بارتكابها من الآثام، فقال عز وجل:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ والسين والراء والقاف أصل واحد يدل على أخذ شيء في خفاء وستر، يقال: سَرَقَ يَسْرِقُ سَرِقَةً، ورجل سارق من قوم سرَقَة وسُرَّاق، ورجل سَرُوق من قوم سُرُقٍ وسَروقة، والسَّرِقة بفتح السين وكسر الراء، وبفتح السين وسكون الراء، وبكسر السين وسكون الراء، هي أخذ مال الغير خفية وسرا، ولم تختلف الأمة في أن الآية خاصة بسرقة المال أو ما يقوم بالمال، ولا في أن القطع هو حدها، كما أن الشريعة ميزت بينها وبين غيرها من ضروب أكل أموال الناس بالباطل، فتركت قطع المنتهب والمختلس والغاصب والمرتشي لوقوع الفعل منهم جهارا واحتمال الاحتراز منهم، دون أن تعفيهم من التعزير، خلافا لحالة السارق الذي لا يمكن الاحتراز منه لوقوع الجريمة منه خفية، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضا.

ويعرب لفظا ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ مرفوعين على الابتداء، والخبر: ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، كما يمكن أن يكون الخبر محذوفا تقديره: حكمهما ثابت فيما يتلى عليكم، وقوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ بيان لذلك الحكم المقدر، وكذلك الاختيار عند الكوفيين أيضا الرفع لأنه لم يُرَدْ به سارق بعينه، ولو أريد بذلك سارق وسارقة بأعيانهما لكان وجه الكلام النصب. وقرأ عيسى ابن عمر: ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالنصب، وفضلها سيبويه على القراءة المشهورة بالرفع، ولكن ذلك طعن في قراءة واظب عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وترجيح للقراءة الشاذة، وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ (والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم)، كما روى عنه أيضا: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما)، وهي قراءة شاذة وإن كان الحكم بقطع اليمنى عند جميع الفقهاء موافقا لها.

وظاهر اللفظ في جمعه (الأيدي) لكل من السارق والسارقة بقوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ ولم يقـل: (يديهما) يدل على أن المراد يد واحدة من كل منهما، كما في قوله تعالى:﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم 4، وذلك لأن الفصاحة العربية تستثقل إضافة المثنى إلى ضمير التثنية، أي الجمع بين تثنيتين.

وقد وقع الاتفاق بين الفقهاء على أن اليد اليمنى هي المراد بقوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾ وإن لم ينص على ذلك ظاهر القرآن، وإنما قرروه اجتهادا منهم واعتمادا على قراءة ابن مسعود: (فاقطعوا أيمانهما)، وهي قراءة غير صحيحة كما ذكر ابن حزم، أما الكتاب والسنة فلم ينصا إلا على وجوب قطع اليد دون تمييز لليمنى عن اليسرى، لذلك وجدنا عليا كرم الله وجهه قطع الشمال واكتفى بها معتبرا أن قطع اليسرى مجزئ عن قطع اليمنى.

ثم اختلفوا في مقدار ما يقطع من اليد، لورود أمر القطع في القرآن مجملا فذهبوا مذاهب شتى، رأى البعض أن يكون القطع من المرفق وحجتهم ما أولوه من آية الوضوء يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ المائدة 6، ولكن هذا التأويل مدفوع برأي من يقول: إن اليد هي العضو إلى مفصل الكف محتجين بآية التيمم وسنته وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ النساء43، ورأى البعض أن يكون القطع من الإبط أو المنكب، وهو قول الزهري وسعيد بن المسيب والخوارج، وحجتهم أن اسم اليد يطلق على العضو إلى المنكب، واختلفت الروايات عن علي كرم الله وجهه، فذكر الشافعي في كتاب "اختلاف علي وابن مسعود" أن عليا كان يقطع من يد السارق الخنصر والبنصر والوسطى فقط، ويقول "أستحيـي من الله أن أتركه بلا عمل"، كما روي عنه أيضا أنه كان يقطع أصول الأصابع كلها دون الكف.

أما أغلب السلف والخلف، فيرون أن يكون القطع من مفصل الكف (الرسغ)، محتجين بأدلة منها:

1 – أنه أقل ما يسمى يدا، ويرد عليهم بأن الكف دون أصابع والأصابع دون كف، من أقل ما يسمى يدا.

2 – أنه هو اليد حقيقة، محتجين بما ورد في الكتاب والسنة في التيمم. ويرد عليهم بأن الكتاب والسنة أيضا يطلقان اسم اليد على العضو إلى المرفق في الوضوء.

3 – ما أخرجه الدارقطني من حديث عمرو بن شعيب: (أتي النبي صلى الله عليه وسلم بسارق فقطع يده من مفصل الكف)، ولكن هذا الحديث في إسناده مجهول.

4 – ما أخرجه ابن أبي شيبة من حديث رجاء بن حيوة أن النبي صلى الله عليه وسلم قطع من المفصل، ولكن هذا الحديث مرسل.

وإذ تبين لنا أن جميع الفرقاء لم يقم لهم دليل قطعي على مكان القطع ومقداره، تأكد لنا حاجة الموضوع إلى زيادة بحث وتأمل وتدقيق، كي نهتدي إلى القول الفصل والحل الأمثل، لا سيما إذا ما اعتبرنا أن أقوى دليل على عدم وجود نص صريح صحيح هو اختلاف كرام الصحابة وعليتهم (الخلفاء الراشدين) في الموضوع، مثل أبي بكر الذي قطع من المفصل، وعلي الذي قطع الخنصر والبنصر والوسطى.

ولعل من أسباب الاختلاف في موضوع القطع هو أن الفقهاء بحثوا مفهوم كلمة "يد" لغويا، ولم يبحثوا معنى مادة "قطع" لغويا. ولو فعلوا لتكامل لديهم معنى الكلمتين: "يد" و"قطع".

فهم بعضهم أن لفظة "يد" تطلق على العضو من رؤوس الأصابع إلى المنكب، وفهم آخرون أنها إلى المرفق، وفهمها غيرهم أنها إلى الرسغ، وفهم علي بن أبي طالب أن قطع جزء من اليد - الأصابع – يجزئ.

ولكن مادة "قطع" في اللغة العربية لا تعطينا هذا المعني فقط، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يوسف 31، يقول القرطبي:" قال مجاهد: " قطعنها حتى ألقينها" وقيل خدشنها. قال النحاس: يريد مجاهد أنه ليس قطعا تبين منه اليد، إنما هو خدش وحز". وقال الزمخشري في الكشاف : "قطعن أيديهن: جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم، فقطعت يدي، تريد: جرحتها".

فالقطع يفيد الجرح والخدش، ويفيد قطع جزء من شيء، ولكنه لا يفيد الاستئصال. أما الكلمة التي تفيد الاستئصال، فهي البتر، وقد جاء في كتاب: ميزان اللغة: "قال: الليث: البتر: قطع الذنب ونحوه إذا استأصله. وقوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الكوثر3، نزلت في العاص بن وائل الذي قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم : هذا الأبتر، أي الذي لا عقب له. قال: البتر هو استئصال القطع".

ومن المعلوم أن التعبير القرآني المحكم لم يورد في بيان حد السرقة كلمة تفيد البتر والاستئصال، وإنما لحكمة الله ورحمته بعباده عبر بكلمة "القطع"، وهي تفيد قطع جزء من اليد، كما تفيد الخدش والجرح.

وقد يرد أحدهم بأن القطع يفيد البتر وقطع اليد من مفصل الكف أو المرفق أو المنكب بدليل ما أخرجه البيهقي بسنده من حديث فضالة بن عبيد: (أنه سئل: أرأيت تعليق يد السارق في عنقه من السنة؟ قال: نعم رأيت النبي – صلى الله عليه وسلم -، قطع سارقا ثم أمر بيده، فعلقت في عنقه). ولكن هذا الحديث ليس حجة في الموضوع، لأنه لا دلالة فيه على المعنى الذي ذهبوا إليه. ولا يفيد أن الجزء المقطوع هو الذي علق بالعنق. ولكن علق الجزء الذي لم يقطع؛ أي ما بقي من اليد لاصقا بالجسد ولم يبتر. لأن هذا هو الوضع الصحي الأسلم لليد المجروحة، والأكثر رفقا بالسارق. وما زلنا لحد الآن، نرى الأطباء يعلقون الأيدي المجروحة أو المكسورة أو المريضة بعنق المريض وعليها الضماد أو الجبيرة.

ولا نعتقد أن المقصود بالتعليق في العنق هو الجزء المبتور، لأن لفظ الحديث لا يؤدي هذا المعنى، كما لا تقره مبادئ النظافة التي هي من الإيمان والإسلام، ولأن اليد المبتورة تتعفن ويتأذى حاملها برائحتها، ويؤذي غيره بها أثناء التعامل اليومي، وأثناء تواجده بالمسجد لصلاة الجماعة التي ينص الشرع على ألا يحضرها المرء برائحة كريهة كرائحة الثوم والبصل أو غيرهما، مما قد يمنعه من القيام بشعيرتي صلاة الجماعة والجمعة، وهذا المنع عقوبة أخرى لم ينص عليها القرآن ولا السنة. كما أنه يتنافى مع ضرورة القدوم إلى المساجد بسمت حس:﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾الأعراف 31.

لذلك لا نرى حجة للقائلين بالبتر، من هذا الحديث ولا من سواه، وليس لنا مما ثبت من آثار إلا ثلاثة أحوال للقطع هي:

* إيقاع الألم بالسارق بجرح يده وخدشها اعتمادا على معنى قوله تعالى:﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يوسف 31
* قطع جزء من اليد كما فعل علي كرم الله وجهه.
* قطع اليد من الرسغ كما فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، مع تقييد هذا المفهوم للقطع بضرورة اعتبار اليد هي العضو إلى المرفق أو المنكب. وأن ما قطع هو جزء من اليد، وليس اليد كلها، وبغير ذلك يستبعد هذا الوجه من القطع. لأنه يكون بترا واستئصالا، والنصوص لا تؤدي هذا المعنى.

وهذه المفاهيم الثلاثة يرجح أحدهما على الآخر، أو يرتب إيقاعها باللصوص حسب خطورة السرقة وما يصاحبها من ظروف التشديد والتخفيف المصاحبة للسرقة، وهذا يقودنا مباشرة إلى حالات أخرى لتعدد السرقة من الشخص الواحد، وهي حالات وقع حولها خلاف كبير بين الفقهاء:

رأى البعض أن تقطع إحدى رجليه إن سرق ثانية، ويده اليسرى في الثالثة، ورجله الثانية في الرابعة فإن عاد قتل. واحتجوا بالحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي عن جابر قال: (جيء بسارق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقتلوه. فقالوا إنما سرق يا رسول الله، قال: اقطعوه، فقطعوه. ثم جيء به الثانية، فقال: اقتلوه، فذكر مثله، ثم جيء به الثالثة، فذكر مثله، ثم جيء به الرابعة كذلك، ثم جيء به الخامسة، فقال: اقتلوه، فقال: جابر: فانطلقنا به فقتلناه). ولكن هذا الحديث استنكره النسائي، وقال: "الحديث منكر". وقال: ابن عبد البر: "حديث القتل منكر". بل إن النسائي قال: "لا أعلم في هذا الباب حديثا صحيحا".

ورأى البعض أن يكتفى بقطع الأطراف الأربعة، دون قتل في الخامسة، مستدلين بالحديث الذي أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة (إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا رجله. ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله)، ولكن هذا الحديث في إسناده الواقدي، وقد أخرج الطبراني والدارقطني نحوه عن عصمة بن مالك، ولكن إسناده ضعيف، إلا أن الحنفية خالفوهم في ذلك ورأوا أن تقطع رجله في الثانية ويكتفي بالسجن فيما بعدها، وهو فعل علي رضي الله عنه فيما رواه عنه البيهقي إذ أتي إليه بسارق للمرة الثالثة وقد قطعت يده ورجله، فقال: ( إني أستحيي من الله أن أقطع يده فبأي شيء يأكل؟، أو أقطع رجله، فعلى أي شيء يعتمد؟).

أما نحن، فإننا نرى أنه لم يصلنا في قطع رجل السارق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ثابت، والآية القرآنية لم تبين إلا قطع اليد، ولا حجة لنا إلا من كتاب الله، وما ثبت من سنة صحيحة عن نبيه عليه السلام. وليس فيهما أمر أو إباحة لقطع أي عضو من السارق غير يده، وبالطريقة التي تقدم شرحها، وما سوى ذلك لا نرى جوازه إلا بنص صحيح وليس بين أيدينا هذا النص، ودم السارق حرام إلا بحقه، كدماء جميع المسلمين الثابتة بالنصوص الصحيحة، وما ثبت بنص صحيح لا ينسخ إلا بآخر صحيح.

على أننا إذا تقبلنا مفهوم القطع كما شرحناه آنفا، وهو أنه لا يفيد البتر والاستئصال، وإنما يفيد الجرح والخدش، أو قطع جزء من اليد، كما فعل الإمام علي كرم الله وجهه، أو أدنى من ذلك أو أكثر قليلا، زال الإشكال عن موضوعين أساسيين من قضايا السرقة:

أولهما: تعدد السرقة، وتعدد العقوبة تبعا لذلك، لأن إيقاع الألم بيد السارق بجرحها وخدشها، يمكن أن يتكرر في اليد الواحدة، إذا ما تكرر صدور السرقة من الشخص الواحد، كما أن قطع جزء من اليد (أصبع أو سلامية أو نحو ذلك) يتيح فرصة إقامة الحد على السارق عدة مرات في اليد الواحدة ، إذا ما تكرر منه فعل السرقة.

ثانيهما: مشكلة تناسب العقوبة مع مقدار السرقة وخطورتها، وهو إشكال احتار فيه الفقهاء كثيرا، إذ لم يستطيعوا أن يقنعوا كثيرا من العامة، بتناسب عقوبة استئصال اليد مع سرقة شيء تافه، كأترجة أو مجن قيمة كل منهما ثلاثة دراهم، أو حتى خمسة دنانير. مما أدى ببعضهم إلى الاستهزاء بالفقهاء قائلا:

يد بخمس مئين عسجد وديت مابالها قطعت في ربع دينار

فطلبه الفقهاء لمعاقبته فهرب، فأجابه القاضي عبدالوهاب المالكي:

صيانة العضو أغلاها وأرخصها صيانة المال فافهم حكمة الباري

وهذا جواب غير مقنع، لأن صيانة عرض المسلم ودمه وحرمته، أعظم عند الله من صيانة المال، وحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة.

ونحن نرى- وبالله التوفيق - أن هذا الإشكال قد أزيل بسبب وضوح معنى "القطع"، بحيث يقدر الجرح أو القطع الموقع باليد طولا وعرضا وغورا ومساحة، بما يتناسب ومقدار السرقة وخطورتها وعدد مرات ارتكابها، فعن سرقة الشيء التافه يجرح السارق جرحا صغيرا في يده، ثم يكبر الجرح أو يتحول إلى قطع، ثم يتسع مدى القطع في نفس اليد تبعا لما صاحب السرقة من ظروف أو تعدد. وبذلك يزول الإشكال الفقهي في التعدد والتناسب بين مقدار العقوبة ومدى خطورة السرقة أو تعددها ببساطة ويسر، ودون أن نعطل حدود الله، أو نقطع من السارق ما حرم من دمه ولحمه.

كما وقع الخلاف بين الفقهاء أيضا حول مقدار المسروق الذي يكون فيه القطع، وهو ما يعرف عندهم بالنصاب، فذهبوا مذاهب شتى لأن الآية الكريمة وردت مطلقة غير محددة لمقدار معين يقطع فيه السارق. وأصَّلوا لما رأوه بأحاديث مرفوعة ومرسلة يدفع بعضها بعضا، فحددوا النصاب بدينار وبنصف دينار وربع دينار وثلث دينار، وبثمن المجن – وهو الترس- فما فوقه، وقدروا المجن تقديرات مختلفة: ثلاثة دراهم، وخمسة دراهم، وعشرة دراهم، وربع دينار، ونصف دينار. وقدره ابن قيم الجوزية بكفاية الرجل وأهله من الطعام ليوم واحد، وكان هذا الاختلاف في الروايات والآثار سببا رئيسيا في اختلاف الأحكام لدى المذاهب الإسلامية:

فالنصاب عند المالكية ثلاثة دراهم، وحجتهم ما ورد في الصحيحين من أنه – صلى الله عليه وسلم – قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم.

والنصاب عند الشافعية ربع دينار، وحجتهم ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تقطع اليد في ربع دينار فصاعدا)

والحنابلة يجمعون بين الحديثين ويرون أن يقطع كل من سرق ما قيمته ثلاثة دراهم، أو ربع دينار.

أما الحنفية، فالنصاب عندهم عشرة دراهم، وحجتهم ما ذهب إليه ابن عباس وأصحابه، وأبو يوسف، ومحمد، وزفر، وسفيان الثوري من أن ثمن المجن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة دراهم.

ونحن إذا ما حاولنا استقراء الأحاديث الواردة في الموضوع وجدنا أن الاضطراب ليس واردا فقط بين حديث صحابي وحديث صحابي آخر، وإنما هو أيضا فيما روي عن الصحابي الواحد، كما يتضح لنا من الأمثلة التالية:

فعن عائشة رضي الله عنها مثلا، روي عدد من الأحاديث يدفع بعضها بعضا مثل:

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقطع اليد إلا في ثمن المجن ثلث دينار أو نصف دينار فصاعدا) – النسائي –.
* قيل لعائشة رضي الله عنها: ما ثمن المجن ؟ قالت: ربع دينار - رواه سليمان بن يسار عن عمرة -.
* عن عمرة أنها سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: يقطع في ربع دينار فصاعدا. -النسائي-.
* إن يد السارق لم تكن تقطع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في أدنى من ثمن المجن. وكان المجن يومئذ له ثمن، وأنه لم يكن عندها عن النبي صلى الله عليه وسلم غير ذلك - رواه هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها -.

كما رويت أيضا أحاديث متدافعة في الموضوع عن عبد الله ابن عمر منها:

* قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجن قيمته خمسة دراهم، وهو ما رواه النسائي.
* قطع رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ َ فِي مِجَنٍّ ثَمَنُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ – البخاري -.

وكذلك إذا ما استعرضنا الآثار المروية الأخرى وجدناها أشد اضطرابا وتدافعا، كما يبدو في الأمثلة التالي:

* قطع ابن الزبير في درهم، وإلى ذلك ذهب الحسن والزمخشري.
* عن أبي هريرة أن النصاب خمسة دراهم، وإلى ذلك ذهب عروة والزهري وسليمان بن يسار.
* روي عن ابن عباس أنه عشرة دراهم أو دينار، ورواية أخرى عنه أن الآية على العموم أي: أنها لم تحدد نصابا معينا للقطع.

ونحن نرى أن فقهاء الأمة، قد ألزموا أنفسهم في قضية تحديد النصاب ما لم يلزمهم. وما هو متعذر تحديده، وأن اختلافهم في تحديد قيمة المجن طبيعي جدا من وجهة النظر الاقتصادية. فالمجن قد يكون ثمنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مقدارا معينا في المدينة، ومقدارا غيره في مكة، وآخر مخالفا لهما في فارس، وغير هذه المقادير كلها لدى الروم. وقد يكون ثمنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي المدينة وحدها مقدارا معينا عند مجيء قوافل التجار، ومقدارا آخر عند غيابها، نظرا لعاملي الندرة والوفرة، وظروف العرض والطلب، وحالات الجودة والرداءة، والحرب والسلم.

كما أن تحديد قيمة النقد تحديدا جامدا متعذر أيضا؛ لأن قيمة العملة تتغير من زمان لزمان، ومكان لمكان، سواء كانت ذهبا، أو فضة أو أوراقا نقدية، تبعا للمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

ثم إن العقوبة المقررة في القرآن هي عقوبة رادعة لمطلق فعل السرقة، لأنه فعل في نفسه ذميم، ومرض خطير يخل بالأمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي للأمة، فإذا حددنا للسرقة نصابا معينا كنا كمن يقول: " لا بأس بالخيانة، ما دامت صغيرة، ولا تساهل معها إذا ما تضخمت"، مع العلم بأن جميع أنواع الانحرافات تبدأ صغيرة ثم تكبر، وهذا معروف في الشرع الإسلامي الذي ينص على أن يقام الحد على شارب قليل الخمر، كما يقام على شارب كثيره، عملا بالقاعدة الفقهية: (ما أسكر كثيره فقليله حرام)، فلماذا نشذ عن هذه القاعدة في قضية السرقة فنميز بين سرقة القليل وسرقة الكثير بدون نص .

لكل هذا نرى أن الله عز وجل قد أنزل هذه الآية﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ مجملة غير محددة لنصاب السرقة قدرا معينا ،وأن كل من سرق من مسلم شيئا مهما كان تافها يعتبر سارقا، وهو عند الله سارق، وداخل ضمن أحكام الآية، وأن خيرا من الجدل في هذا الموضوع أن تحل المشكلة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي إلى السرقة بقيام حكم الإسلام الكامل المتكامل الذي ليس فيه جائع ولا محروم ولا خائف ولا مضطر، ولا فاقد للعقل بخمر أو مخدر.

كما أضاف الفقه الإسلامي منذ بداية نشوئه شرطا آخر لتحقق فعل السرقة استنبطه من معناها اللغوي، وهو ضرورة وقوع السرقة في حرز. والحرز هو ما بني للسكن وحفظ الأموال كبيت أو دكان أو خيمة أو نحو ذلك، ولو لم يكن له حارس أو حافظ، وسواء سرق منه وهو مفتوح الباب أو لا باب له، واعتمد في إضافة هذا الشرط على روايات تحدث في سندها وردها بعض رجال الحديث كما شرح ذلك ابن حزم بتفصيل في المحلى[[[52]](#footnote-52)] ثم عقب بقوله: " فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع السارق جملة، ولم يخص عليه السلام حرزا من غير حرز"، وهذا أيضا ما عليه أيضا مذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق والخوارج، كلهم لا يشترطون الحرز لإطلاق الآية ولعدم ورود الدليل باشتراطه في السنة،.

وبعد أن علل الحق سبحانه فرض حد القطع بقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ عقوبةً لإثم السرقة وأخذ مال الغير بدون إذنه وعلمه ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ والنكال من فعل نَكَلَه عن الشيء نَكالا إذا نحَّاه عنه وأبعده، ومنه النِّكْل وهو القيد، والمعنى أن في القطع منعاً من السرقة ابتداء أو عودة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزته لا تغالَب وإرادته لا تُنقَض وحكمته بالغة، ختم الآية بتباشير الرحمة والتوبة للمؤمنين فقال:

﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي من تاب من بعد ظلمه بالسرقة وردَّ المسروق مصلحا ما أفسد نادما عازما على عدم العودة فإن الله تعالى يقبل توبته ويغفر له. وهذا يقودنا إلى قضية أخرى كثر الاختلاف فيها، هي: هل يسقط الحد بالتوبة أم لا يسقط؟، وقد قال قوم بعدم سقوط الحد ولو تاب السارق وأصلح، وقال غيرهم بسقوط الحد بالتوبة، ولكل فريق حجته من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بتأويل خاص:

فالذين قالوا بعدم سقوط الحد بالتوبة اعتبروا أن الأصل هو إقامة الحد، وأن سقوط الحد بالتوبة استثناء لا غير، وأن الله تعالى لم يستثن من هذا الحكم إلا حد الحرابة بقوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة:34 .

كما استشهدوا بما ورد في سورة النور عن حدي فاحشتي الزنا، وقذف المحصنات، عندما قال سبحانه وتعالى بعد أن أثبت إقامة الحد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾آل عمران:89. أي من بعد إقامة الحد.

أما من قال بسقوط الحد بالتوبة فقد احتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ماعز عندما مسته حجارة الرجم فخرج يشتد:(ألا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه؟ يا هذا لو سترته بثوبك كان خيرا لك).

ونحن تبعا لما فهمنا من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نذهب هذا المذهب، ونعتقد أن الحد يسقط بالتوبة، وأن عدم سقوطه في فاحشتي الزنا والقذف هو الاستثناء، وأن التوبة تسقط الحدود وتجُبُّ ما قبلها. وهذا كتاب الله ينطق بالحق بين أيدينا:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف 153.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ النساء17.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل119.

ثم إن السنة النبوية بينت لنا أن رحمة الله سبقت غضبه، كما ورد في البخاري ومسلم ومسند أحمد عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال الله تعالى فيما رواه عنه صلى الله عليه وسلم: (سبقت رحمتي غضبي)، وإقامة الحدود تُعَدُّ انتصارا لغضب الله، وسقوطها بالتوبة من رحمة الله، ورحمة الله سبقت غضبه، قال تعالى:﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الأنعام12 ، وقال تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء﴾ الأعراف 156 . ثم إن آية حد السرقة فصلت في الأمر، وليست محتاجة إلى كل هذه الشروح، فقد نصت على أن التوبة مسقطة للحد بعد السرقة لا بعد إقامة الحد، فقال تعالى:﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه﴾ أي من بعد قيامه بالسرقة، ولم يقل : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كما ورد في آية الزنا والقذف.

ويختم الحق سبحانه الحديث عن أحكام السرقة والتوبة منها بقوله﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والاستفهام في هذه الآية تنبيه تقريري لشمول قدرته تعالى ونفاذ إرادته في الكون كله، يعذب من يشاء بحكمته ويغفر لمن يشاء برحمته، قدير لا يعجزه شيء.

هذه نبذة موجزة عن هاتين الآيتين الكريمتين وعلاقتهما بالأحكام الفقهية والتشريعية، أما من حيث علاقتهما بالمجتمع الإسلامي الرباني الحقيقي فلابد لتوضيح ذلك من التذكير بأن هذا القرآن جاء لينشئ مجتمعا نموذجيا، ويقيم نظاما للحياة مرتبطا بنسق كوني متكامل خاضع لله الذي خلق الكون ويعلم ما يصلح له وما يصلحه وما يناسبه من نظم وتشريعات، وعلمه سبحانه وتعالى مطلق غير محدود، ولئن جمع عز وجل في هذه الآيات للمجتمع الإسلامي ما بين الوازع الذاتي للخير والبر والصلاح وصدق العبادة وإخلاصها وبين الوازع الخارجي وهو الخوف من العقاب فإن ذلك مما يميز التشريع الإلهي المبني على حكمة وعلم مطلقين، عن التشريع الوضعي المؤسس على علم البشر القاصر وحكمتهم المحدودة. ومن ثم يتعذر ترقيع التشريعات اللبرالية أو الشيوعية أو غيرها بالتشريع الإسلامي لتعارض مرتكزاتها وقواعدها وأهدافها. أما المجتمعات الإسلامية التي اختلت فيها الأوضاع الإيمانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ولم يطبق فيها حكم الإسلام فلا بد لتطبيق حد السرقة فيها بموضوعية وعدل من أن تستقيم أوضاعها على نهج الإسلام وشريعته.

لذلك نرى أن إقامة حد السرقة بشكله الصحيح مرتبطة ارتباطا وثيقا بإقامة الإسلام كله كاملا متكاملا في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ارتباطا يحرر حاجات الناس ويضمن ضروريات العيش الكريم لهم، ويحميهم من مختلف الضغوط والانحرافات ويشيع فيهم جوا من النظافة الروحية والخلقية والاجتماعية والشعور بالمسؤولية، فإن تم ذلك كان الذي يتجرأ على السرقة إما ظالما معتديا يقام عليه الحد، أو منحرفا نفسيا وعصبيا يلحق بالمستشفى.

الحكم بغير ما أنزل الله منه كفر ومنه ظلم

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)﴾ المائدة |

لا بد لبناء أي مشروع ذي بال من مهندس أمين خبير مطاع وبناة أمناء مطيعين، وإنما يدخل الخلل أحيانا من البُناة لضعف خبرتهم أو عدم دقتهم في التنفيذ، أو غشا منهم وخديعة. هذه إحدى معضلات القيادة، وعوائق نجاح المشاريع؛ أخطرها وما لا ينجبر منها هو خيانة الأمانة وغلبة الأهواء وتعدد الولاءات لدى البناة، إذ ينتقون من توجيهات قيادتهم ما يناسب غاياتهم الخاصة ويستجيب لرغباتهم المبيتة، أو يحقق أهداف جهات أخرى لها ولاؤهم؛ ولا شك أن قيادة تُبتلى بمثل هؤلاء لا تسلم من الألم والحزن والإحباط لما تؤول إليها مشاريعها من الفشل والخلل.

هذا في المجال الدنيوي المحض، وبين مجموعة من الناس محدودة؛ فما بالك بالمجال الديني الذي يخاطب فيه النبي كافة البشر على اختلاف مشاربهم ونواياهم وقدراتهم وأهدافهم، وفيهم الصادق الأمين والخائن الرعديد، والمنافق المخادع، ومعلول الطوية مدخول العقيدة، فتنعكس تصرفاتهم كلها على الدعوة الإسلامية أولا، ثم على الحالة النفسية للنبي القائد ألما وحزنا كلما لمس تخريب المخربين من بعض مدعي الإيمان به، أو نفاق المنافقين ممن يزعمون اتباعه، لا سيما وهو مجرد بشر حُمِّل أمانة التبليغ، له نصيبه من طبيعة البشر وعواطفه، يحزن كما يحزن البشر ويضيق بما لا يطيق كما يضيق البشر، يرى الكبيرَ والصغير يُحْتضَر فيبكي، وتسأله الأم ورضيعها بين يديها عن رحمة الله فيبكي، ويخونه المنافق فيحزن، ويكذبه الكافر المجاحد فيتألم، ويذكره ربه بما لاقاه إخوته الأنبياء قبله من أقوامهم فيأسى.

لقد كان صلى الله عليه وسلم بصفته خاتم الأنبياء حمالا لهموم الخلق حريصا على هدايتهم، يفرح لمن اهتدى ويحزن لمن ضل، وحزنه في أغلب حالاته مقرون بالبكاء لما جبل عليه قلبه من لين ورحمة، ولينُ قلوب المؤمنين ورحمتُها من مكتسبات الإيمان وفضائله.

لذلك كان الوحي الكريم يثبته كلما آذاه المشركون والمنافقون وأهل الكتاب بتعنتهم وعنادهم ومكرهم، من ذلك ما ضاق به صدره إذ سألوه مرة أن يُنزَّل عليه كنز أو يأتي معه ملك، فسري عنه واطمأن إذ خاطبه الحق تعالى بقوله:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَه مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هود 12.

ومن ذلك أن أبا جهل قال له مرة:"ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به"، فحزن صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا لم يخففه عنه إلا نزول قوله تعالى:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام 33، وفي هذا السياق وأمثاله نزل قوله تعالى:﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران 176 ، وقوله عز وجل:﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يونس 65، وآيات أخرى كريمات تمسح عن قلب الرسول الأعظم جراح التكذيب وآلام الإعراض، فيواصل أداء رسالته غير هياب ولا متردد ولا قنوط أو يائس.

ولا شك أن الله تعالى قد علم مقدار حزنه صلى الله عليه وسلم لِما ورد فيما سبق من سورة المائدة مما قاساه موسى وعيسى عليهما السلام بتعنت قومهما وعصيانهم وتمردهم وتحريفهم ما أنزل إليهم، وما ارتكبه ابن آدم من جريمة قتل أخيه، وارتكبه بنو إسرائيل في حق الأنبياء والصالحين، ولما رآه في صفه من المنافقين الذين آمنت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، فتوسم فيهم ما يؤول إليه أمرهم وما يحتمل أن يؤذوا به المؤمنين بعد وفاته وقد اقتربت، وليس هينا أن يتحمل قلبه الرحيم ما رآه فيهم وما علمه عن ربه مما يكون في أمته بعده من فتن، لذلك أدركه الله تعالى بما يخفف حزنه ويقوي نفسه ويثبته على الطريق ويسليه عما يراه من تهافت ضَعَفَةِ الإيمان على الكفر ومسارعتهم إلى موالاة العدو وحرصهم على تخريب العقيدة وخذلان المؤمنين الصادقين، فخاطبه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.

لقد كان صلى الله عليه وسلم ينادَى في جميع سور القرآن من قبلُ بصفة النبوة وقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ كما في سورة الأنفال والتوبة والأحزاب والممتحنة والطلاق والتحريم، ونودي غيره من الأنبياء بأسمائهم فقال تعالى:﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ البقرة 45، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ هود 48، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ الصافت 104-105، ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ الأعراف 144،﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ آل عمران 55، ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ مريم 12.

ولكنه تعالى في سورة المائدة هذه، وهي آخر ما نزل من القرآن نودي لأول مرة بصفته رسولا بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وتكرر هذا النداء مرة أخرى في نفس السورة بقوله عز وجل﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ المائدة 67، ولئن كان النداء بالنبوة والنداء بالرسالة كلاهما تشريف بدرجة واحدة من حيث صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بربه تعالى فإن نداءه بصفة الرسالة يناسب ما يقتضيه تبليغ الرسالة من مخالطة لأخيار الناس وأشرارهم، وما تستوجبه دعوتهم من الصبر على أذاهم، وما يثيره في النفس إعراض بعضهم من ألم وحسرة وحزن. كما أنه نداء تعظيمٍ له صلى الله عليه وسلم إذ أشرف على إتمام التبليغ بنجاح، وخطاب تأديب للمؤمنين وتعليم لهم أن يخاطبوه بهذا الوصف، وقد كان بعض الأعراب ينادونه باسمه المجرد ثم كفوا عن ذلك عندما أنزل الله تعالى:﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ النور 63. وهو في نفس الوقت إشعار الرسول صلى الله عليه وسلم وكافة المؤمنين بأن أمر الخلق لربهم يفعل بهم ما يشاء، ونهي عن الحزن لهم أو عليهم بقوله تعالى عقب ذلك :

﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ والحزن خلاف السرور، من فعل حزِن يحزَن فهو حزين، وحزَنَه الأمر يحزُنه وأحْزَنَه يُحزِنه سواء، ولذلك وردت قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاي، وقراءة الباقين بفتح الياء وضم الزاي. والمسارعة في الكفر هي هشاشة المعتقد وسهولة الانقياد للكفر والتهافت فيه، والإسراع إلى الردة والتأثر بأعداء الدين، والمبالغة في موالاتهم، وترويج إشاعاتهم وأقاويلهم، واستحداث أوجه الكيد والمكر بالمسلمين. وهي أبرز صفات المنافقين في زمن البعثة وفي كل عصر بعدها. وليس للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لجميع المؤمنين الصادقين أن يحزنوا لها أو تشغلهم عما نذروا له أنفسهم من دعوة الحق، أو تلهيهم عن تبليغ الدين وتبصرة الناس به، لأن الله تعالى ناصر دينه وأولياءه، وقلوب الخلق بيد بارئها ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد 27، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ النور 54.

ثم نفى الحق سبحانه وتعالى عن هؤلاء المسارعين في الكفر صفة الإيمان، وميز بين طائفتين منهم، أولاهما ذات خطر داخلي على الصف المسلم وهم المنتحلون صفة الإيمان بأفواههم المضمرون الكفر في قلوبهم فقال عز وجل:

﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الفئة المنافقة التي لعبت على مر التاريخ أخطر أدوار المكر والكيد والتآمر، ولذلك ندد القرآن الكريم بهم وفضحهم وحذر منهم، وكشف أخطر صفاتهم بقوله تعالى:﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ آل عمران 167ـ وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات 14، وقوله في سورة كاملة تفضح هذه الصفات فيهم مطلعها:﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المنافقون 1-2. وهي صفات تميزت بها قبلهم طائفة اليهود الذين حرفوا التوراة وبدلوا أحكامها وجحدوا ما نزل فيها من بشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا بأفواههم نحن مؤمنون بموسى عليه السلام ثم عصوه ولم يتبعوا تعاليمه.

لذلك عقب الحق تعالى بالطائفة الثانية من المسارعين في الكفر حقدا ومتابعة للأحبار والرهبان دون تثبت أو روية وهم اليهود، فقال عز وجل:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود، ومن أبرز صفاتهم أنهم:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ لهم قابلية شديدة لقبول ما يفتريه أحبارهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يزوِّرونه من الكذب على الله تعالى وما يحرفونه من كتابه.

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ جواسيس وعيون على المسلمين لصالح أعدائهم، قيل لسفيان بن عيينة: هل جرى ذكر الجاسوس في كتاب الله؟ فقال: نعم، وتلا قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾، أي: إنهم يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتسقطون أخباره وينقلونها لقوم آخرين من أعدائه اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين.

﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ تحاشوا لقاءك ولم يحضروا مجلسك لفرط عداوتهم وشدة بغضهم، وعجزهم عن مواجهة حقائق العقيدة وآيات التنزيل وأحكام الشريعة، واكتفوا بمحاولة التخريب من بعيد، بواسطة بعض المندسين الذين يُلقِّنونهم ما يتخيلون أنه يحرج الرسول صلى الله عليه وسلم أو يوقعه في التناقض، أو يزكي ما حرفوه من كتابهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ فإذا ما بلغتهم أقوال الرسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته حرفوها بالزيادة أو النقص أو التبديل والتقديم والتأخير وأشاعوا بذلك الأراجيف بين الناس.

ثم أورد الوحي الكريم نموذجا من أفاعيلهم وشكلا من أشكال ما يأمرون به أتباعهم الذين يرسلونهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ذلك أنهم كانوا يتحاكمون أحيانا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تم الأمر للإسلام في الجزيرة، وأصبح الحكم والتقاضي لشريعته حتما، مع اعتبار المبدأ الإسلامي الخاص بأهل الكتاب، القاضي بألا يجبروا إلا على شريعتهم، فلا يتوانون عن الدس والمكر، ويحاولون أن يستخلصوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أحكاما توافق ما حرفوه في شريعتهم وخالفوا فيه أحكام توراتهم، أو يظفروا منه بفتوى توافق هواهم أو توقعه في التناقض مع ما جاء به، ويقولون لمن يرسلونهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مستفتين: "إن حكم بما عند أحباركم فخذوا به وإن حكم بغير ذلك فاحذروه أن يفتنكم"، وهي أساليب شيطانية وحالات شاذة تنتاب أي أمة تفتقد المرشدين الصادقين ويطول عليها الأمد فتقسو قلوبها ويضعف لديها الزخم الإيماني الذي ورثته عن نبيها، وتُبْعِد النُّجْعَةَ[[[53]](#footnote-53)] في طلب الدنيا، ويتحول الدين لديها إلى حالة اجتماعية جاهلة، أو مرجعية سياسية براغماتية جافة، أو موروث ثقافي بارد لا علاقة له بجوهر الدين وغاية ما يهدف إليه وحقيقة ما جاء به، فتتحول الأمة بذلك إلى "مسلمين على الشياع"، لا أثر للإسلام في قلوبهم وولائهم ونظم معيشتهم الفردية والجماعية، حينئذ يهتبل ديدان القراء وعلماء السلطان فرصة الجهل والفراغ العقدي لدى العامة فيسربون إليهم الفتاوى الضالة المضلة التي تستهويهم وتروضهم وتخضعهم وتبتزهم.

من ذلك ما رواه مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وأخرجه الشيخان، قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟) فقالوا: "نفضحهم ويجلدون"، فقال عبدالله بن سلام:"كذبتم إن فيها الرجم"، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آيه الرجم، وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبدالله بن سلام:"ارفع يدك"، فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا: "صدق يا محمد فيها آية الرجم"، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما.

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال:" أنزل الله هذه الآية في طائفتين من اليهود كانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته الطائفة العزيزة من الطائفة الذليلة فدِيتُه خمسون وسقا[[[54]](#footnote-54)]، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فدِيتُه مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة:"وهل كان في حَيَّيْن دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا إلا ضَيْماً منا وفَرَقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم"، فكادت الحرب تهيج بينهما. ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حكما بينهم. ثم ذكرت العزيزة فقالت:"والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم، فدُسُّوا إلى محمد من يَخبُر لكم رأيَه، إن أعطاكم ما تريدون حكَّمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحَكِّموه"، فدَسُّوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من المنافقين ليَخبُروا لهم رأيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهم كله وما أرادوا، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله:﴿الْفَاسِقُونَ﴾.

ولما بين الحق سبحانه أوجُهَ كفريات هاتين الطائفتين من المنافقين واليهود، وأصنافَ ضلالهم وطرائقَ مكرهم بالمسلمين، أوجز حالهم هذا بأبلغ بيان فقال:

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ولفظ "الفتنة" من فعل: "فَتَنَ"، والفاء والتاء والنون كما قال ابن فارس أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار، ومنه "الفتنة" أي الاختبار والامتحان والابتلاء، يقال فتنت الفضة والذهب بالنار إذا اختبرت صفاءهما بأن أذبتهما لأميز جيدهما من رديئهما، فهما مفتونان، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾أَي يُحْرَقون بِالنَّارِ، إلا أن لفظ الفتنة وما يشتق منه يطلق مجازا على معان كثيرة أخرى، فالفتنة الشرك كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ التوبة: 48، والفتنة الضلالة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَة﴾آل عمران 7، وقوله عز وجل ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُم﴾الحديد 14، والفتنة الأذى وعذاب الناس من قوله:﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ العنكبوت 10 وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ النحل 110، والْفِتْنَةُ: الْحَرْقُ بِالنَّارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾البروج 10 أي حرقوهم، وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ الذاريات13، أي: يُحْرَقُونَ، والفتنة الصد عن الشيء والصرف عنه من قوله تعالى:﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ الإسراء 73، والفتنة المعذرة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الأنعام 23، أي معذرتهم، والفِتْنةُ اختلافُ النَّاسِ بِالْآرَاءِ إلى حد التنازع والتقاتل كما في حديث رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم:(إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فكسِّروا قِسِيَّكم وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخِل على أحد منكم بيتُه فليكنْ كخير ابني آدم)

إلا أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أن من يرد الله تعالى اختباره بما يبتليه به من التكاليف أو يسلطه عليه من أوجه المحن والاختبار فلن تملك له نجاة من العذاب إذا قطع صلته بربه وأوغل في محاربة الله ورسوله، أو استهتر بالدين فادعى الإيمان به وأضمر الكفر به، أو تحايل لتوظيفه واستغلاله في المصالح الشخصية، كما هو حال بعض الأحزاب السياسية التي تدعي اليوم المرجعية الإسلامية للوصول إلى المناصب وهم عيون على الدعاة ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

إلا أنه تعالى على رغم ما يمكرون ينهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الاهتمام بأمرهم أو الحزن لهم أو عليهم، لأنهم سلكوا سبل الفتنة فوقعوا فيها، وليس لهم من ينقذهم منها وقد غضب الله عليهم وأركسهم فيها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لم يطهر الله قلوبهم من أدناسها ولم يلهمهم التوبة عن ضلالهم لشدة غضبه عليهم ولِما سبق في علمه من أهليتهم للنار﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذل وهزيمة وضعة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ خالدين فيه، جمع لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما جمعهما لبني إسرائيل في آيات الحرابة سابقا. ولا شك في أن هذه العقوبات الدنيوية والأخروية المقررة للمنافقين واليهود تهديدا لمن يفعل فعلهم من أجيال المسلمين وتحذيرا لهم من هذه المسالك الضالة، وهو ما نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لتتبعن سنة من كان قبلكم باعا بباع وذراعا بذراع وشبرا بشبر حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه)، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: (فمن إذا)، وقوله: ( لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض).

ويمضي السياق القرآني يعرض بعض مخازي هذه الطوائف أخلاقيا وسلوكيا فيؤكد تجسسهم على المسلمين بقوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ من أجل الحصول على مكاسب محرمة يأكلونها فتهلكهم ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والسُّحْتُ وَالسُّحُتُ بِسكونِ الْحاءِ وَضَمِّهَا: الْحرام، سُمِّي بذلكَ لأَنّه يُسْحِتُ الْبركَة، أَيْ يُذْهبُها. يقال: سَحَتَه اللَّه أَي أَهْلكه، قال صلى الله عليه وسلم:(كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به).

ثم يعقب الحق سبحانه بإرشاد رسوله صلى الله عليه وسلم إلى كيفية التعامل معهم إذا ما تحاكموا إليه مرة أخرى بقوله له:

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾فلك الخيار بين أن تحكم بينهم أو تعرض عنهم، لأنهم عابثون بالأحكام الشرعية، ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلم تحكم بينهم ﴿فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ لأنهم أضعف من أن يؤذوك وقد مكن الله لك، وما كان لهم من هدف إلا انتقاء الأيسر والأخف من الأحكام وفتنتك عما جئت به من الشريعة، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ وإن رأيت أن تحكم بينهم فالزم العدل في حكمك في كل حالات الرضا أو الغضب، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين، لأن العدل هو قوام الشريعة عقيدة ومنهج اجتماع وحكم وقضاء.

ثم يبين تعالى عبثهم وعدم جديتهم في الأخذ بدينهم الذي يزعمون أن إيمانهم به يمنعهم من اتباع الإسلام والإيمان برسوله، إذ لو كانوا مؤمنين به حقا لعملوا بأحكامه فلم يحرفوها، وهي تغنيهم - ما لم يبدلوها - عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كيدا ومكرا وتحايلا فيقول عز وجل:

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ تعجيب من تحاكمهم إلى من لا يؤمنون به وبكتابه في حد الزنا وحد القتل ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ مع أن الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي يَدَّعُون الإيمان به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لما في كتابهم ولا يرضون به، ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إنهم في حقيقة أمرهم لا يؤمنون بالتوراة ولا بالقرآن.

ولتبصير النبي صلى الله عليه وسلم بحالهم مع توراتهم وكيف بدلوها وجحدوا أحكامها أتم عز وجل الحجة عليهم وفضح تلاعبهم فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا﴾ عليهم بواسطة موسى عليه السلام ﴿التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾فيها هداية من الضلالة وفسادِ العقيدة إلى التصور الإيماني السليم، وفيها نور يعصم من العمى عن الحق ويهدي إلى الصراط المستقيم، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام وآمنوا برسالته وأسلموا وجوههم لله، كلهم كانوا يحكمون بشريعة التوراة ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: لليهود وعليهم، يحملونهم على أحكامها ولا يسمحون لهم بمخالفتها، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ وهم العباد الفقهاء والعلماء الصادقون من بني إسرائيل، الذين ألزموا أنفسهم كذلك الحكم بالتوراة، لِما حمَّلهم أنبياؤهم من مسؤولية المحافظة على كتاب الله وحمايته من التحريف والتغيير ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، وحفظُ كتاب الله يقتضي أن يصان فلا يضيع، وأن يعمل به عقيدة وشريعة فلا ينسى. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أُشْهِدوا على تمام نصوصه وأحكامه، وكانوا الرقباء عليه كيلا يبدل أو يغير. ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ فلا تخافوا عند تنزيله والحكم بشريعته والمحافظة عليه والدفاع عنه لومة لائم أو سطوة مستبد ظالم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ وليكن خوفكم وخشيتكم من الله تعالى. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تتاجروا بدين الله وكتابه وشرائعه من أجل مكاسب الدنيا فتبيعوا الغالي الدائم بالقليل الفاني.

ثم أقام الحق تعالى عليهم الحجة فبين أن مخالفة هذه الأوامر المتعلقة بالعقيدة وتصورها الإيماني وعدم تنزيلها في واقع حياة الأمة كفر صريح يوجب العقوبة خلودا في النار فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هم الكافرون بالله وبرسله وكتابه وأحكامه، قال ابن مسعود رضي الله عنه "هذا الحكم عام في اليهود وغيرهم"، وقال ابن عباس رضي الله عنه: "من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر به فهو ظالم فاسق"، وقال حذيفة رضي الله عنه: "أنتم أشبه الأمم سَمْتا ببني إسرائيل: لتركبُنَّ طريقهم حَذْوَ النعل بالنعل والقُذَّة بالقُذَّة[[[55]](#footnote-55)]، غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا؟".

ثم عطف على الجانب العقدي جانب العدالة في الأحكام فقال عز وجل:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وهي أحكام وردت أيضا في الشريعة الإسلامية كتابا وسنة، قال تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة 179، وقضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين، فيما رواه عنه أنس أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالقصاص في السن وقال: (كتاب الله القصاص). فمن أوذي في بعض جوارحه عينا أو أنفا أو أذنا أو سنا أو غيرها، أو بأي جرح أصابه، إن شاء أخذ الدية وإن شاء اقتص ما أمكنه القصاص وعَرَف قدره واستطاع استيفاءَه بغير زيادة أو إتلاف حياة، فإن لم يمكن استيفاء المثل فيه اكتُفِيَ بالدية، لأن قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ يقتضي أخذ المثل، وما لم يكن مثله لا يعد قصاصا. أما إن كان العدوان قتلا فالأمر فيه بيد أولياء الدم، لهم الخيرة بين القصاص والدية، قال صلى الله عليه وسلم لخزاعة وقد قتلت هذليا: (ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هذيل، وأنا والله عاقله، من قتل بعده قتيلا فأهله بين خِيرَتين: إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا العقل[[[56]](#footnote-56)]).

إلا أن الشرع الحكيم رغبة في التربية على التسامح والتغافر وحفظ وحدة المجتمع الإسلامي من الشحناء والأحقاد الجاهلية حث المعتدَى عليه على التصدق لله بحقه في القصاص وحده أو في القصاص والدية معا، بقوله عقب ذلك﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ يكفِّر الله تعالى بها ما سلف من ذنوبه فيمحوها عنه، كما أمر المعتدِيَ بأداء الدية إن عُفِي له عن القصاص فقال عز وجل:﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ البقرة 179.

ثم عقب الحق تعالى على آية العدل هذه بقوله عز وجل:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: مَنْ أخلَّ بأحكام هذه الآية فلم يحكم بها وهو مقر بها غير منكر شرعيتها كان ظالما، كما أن من أنكر شرعيتها أو أخل بأحكام الآية قبلها كان كافرا. ومن أخل بهما معا فقد جمع الكفر والظلم من أطرافهما، واستحق خزيَ الدنيا كما نشاهده اليوم عيانا في كثير من مجتمعات المسلمين الذين احتلت بلادهم وصودرت أموالهم وانتهكت أعراضهم وقتلوا تقتيلا، وعذابَ الآخرة كما توعد الله به الكفرة والظالمين بقوله عز وجل:﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة41. وليس للنجاة يوم الدين إلا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والعودة بالأمة إلى التصور الإيماني السليم الصافي، والإقرار لله تعالى بما يجب له من ألوهية وربوبية وقوامة ومنهج حياة إقرارا يظهر أثره في حياة المجتمع والناس.

تتابع الرسالات تجديد للعقيدة وحفظ للدين

|  |
| --- |
| قال الله تعالى﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾ المائدة |

منذ أهبط الحق سبحانه وتعالى آدم وذريته إلى الأرض وخاطبهم بقوله:﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة38 وهُدَاهُ عز وجل يتواتر في أرجاء الكون بالنور، وباب التوبة مفتوح على مر العصور، يرعاه الرسل والأنبياء تبليغا وقدوة وإسوة، لكل قوم هاد بلسانهم:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾إبراهيم 4، وطريق الحق بعدهم مُمهَّد، يعبده العلماء الصالحون والدعاة المخلصون، وعْدٌ من الله حقٌّ وكتابٌ لم يؤجل، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران 101، نزل آدم عليه السلام نبيا مرسلا، وتلاه نوح عليه السلام بعد أن طال الأمد بالناس وقست قلوبهم، ثم جاء شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وبعده توالى بعث الأنبياء من ذريته يأخذون بالأيدي إلى صراط مستقيم كلما أظلمت الأرض وعمت الجهالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد 26، ثم كان موسى هازم الفراعنة في بني إسرائيل، وتلاه عدد غير قليل من الأنبياء الذين استحفظوا على رسالته ونشروا توراته وحكموا بشريعته، وأناروا السبيل بما أنزله الله تعالى عليه من النور.

ولئن امتاز بعض الرسل على بعض بمراتب وخصائص تفضل الله بها عليهم وعلى أممهم كما قال تعالى:﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ البقرة 253. فإنهم جميعا على قلب رجل واحد وعهد مع الله واحد، يجمع قلوبهم الإيمان ويرص صفهم التوحيد، ويوجه قبلتهم الإخلاص، مسارهم مستقيم نحو الحق، ودينهم واحد هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران 19، لمنزلتهم عند ربهم وشرفهم لديه بُعثوا في بقع من الأرض طاهرة مقدسة، أقسم الله تعالى بها متتابعة في سورة واحدة تشريفا لها وتعظيما وقال:﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ التين 1- 3، فلسطين أرض التين والزيتون مهد المسيح عليه السَّلام، وطور سينين حيث ناجى موسى عليه السَّلام ربَّه بالوادي المقدس طوى، والبلد الأمين مكَّة المكرمة موطن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

كل الأنبياء لا يتم إسلام عبد إلا بالإيمان بهم جميعا: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة 136.

وكلهم أهدافهم ثلاثة: تبليغ كتاب الله تعالى إلى الناس وتلاوته عليهم هدايةً وإقامة حجة، ثم تعليمهم أحكام الدين كتابا وسنة، ثم إعادة تربيتهم بالتزكية والتطهر والتعود على قيم المروءة والعفة والأناة والحلم بناء على ما تعلموه من ذلك، لأن التعليم أساسٌ والتربية بناءٌ، ولا بناء على غير أساس، والأنبياء بهذا المنهج القرآني معلمون ثم مربون، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه: (إن الله لم يبعثني معنِّتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسِّرا)، وقال عنه معاوية بن الحكم: "فبأبي وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسنَ تعليما منه، فوالله ما قهرني ولا كهرني[[[57]](#footnote-57)] ولا ضربني ولا شتمني". وذلك ما بينه القرآن الكريم بأربع آيات بينات هن قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة 2، وقوله عز وجل:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ آل عمران 164، وقوله تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 151، ودعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة 129

كل واحد منهم بعث إلى قومه خاصة، لحكمة يعلمها تعالى، وظروف للبشرية قدرها عز وجل تناسب فطرة النشأة والزمان والمكان، إلا أن خاتمة رسالة السماء للأرض ارتفعت عن مستوى القوم إلى صعيد البشرية كافة، ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وما أيده الله به من الآيات والمعجزات، وما آثره به من الجيل القرآني الفريد أنصارا وأعوانا ومجاهدين ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود﴾ الفتح 29. وما كانوا كذلك إلا بخالص التوحيد والتصور الإيماني، ورشيد التعليم والتربية النبوية، وما نقله القرآن الكريم إليهم من ميراث الأنبياء وخَبَرِهم وأخبارهم مع أقوامهم. لذلك ما إن ساق الوحي الكريم فيما سبق من سورة المائدة أخبارَ العصاة من أتباع الرسل ونماذجَ من عدوانهم على حقوق الله وحقوق عباده، وتمردهم على ما جاء به موسى والأنبياء الذين ورثوا ما أنزل عليه من التوراة حتى بادر بخبر بعث عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل رحمة لهم وتخفيفا عنهم وتصحيحا لما نال تصورهم العقدي وسلوكهم الإيماني وعلاقاتهم الاجتماعية من انحراف وفساد، فقال تعالى:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا﴾ من فعل" قفا يَقْفُو" أي اتبع شيئاً، كل معانيه تدور حول التتابع والترادف والتَّواتُرُ والتّعاقب، قال الله عز جل: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وأطلق لفظ القوافي فِي مجال الشِّعر لأن أبياته يقفو بعضها بعضا في النظم، أَي يتلوه، وقَفَوْتُ الرجلَ وقفوت أثرَه إِذا اتّبعته، وقَفَّيْتُه فلانا، وقفيته بفلان تَقْفِيَةً إذا أتبعته إيَّاه.

وقوله عز وجل:﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أتبعنا أنبياء بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، على أثرهم وعلى ما ورثوه من التوراة، جئنا به قافيا لهم، بعد أن فسدت عقيدة اليهود، وغيروا ما نزل إليهم من حقائق الدين وشرائعه، وأوغلوا في الفساد تحريفا وسماعا للكذب وأكلا للسحت ومتاجرة بالفتاوى، فكانت هذه التقفية به تجديدا لما لديهم وتصحيحا لما فسد من قلوبهم وعباداتهم وأحكامهم، وسيرا على سنة الله تعالى في تجديد الدين، بتعاقب الرسل والأنبياء عليهم السلام، كلما طال الأمد بقوم وانحرفوا عن نهج نبيهم جدد الله تعالى لهم دينهم بنبي جديد، غايته الأولى عبادة الله عز وجل على أقوم سبيل وأوضح تصور، بعيدا عن الشرك والكفر والجحود مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران 64.

بهذه السنة الإلهية في حفظ الدين بقي باب الهداية مشرعا للناس إلى يوم القيامة، رعاه الرسل والأنبياء عليهم السلام إلى أن ختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتابع الصادقون من العلماء والفقهاء والصالحين رعايته بالتبليغ والتجديد، قال صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)، وقال: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلين).

لذلك بين الحق سبحانه غاية بعث عيسى إلى بني إسرائيل وميَّزه بصفتين هما مجمل رسالته، أولاهما قوله تعالى:

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾. ولفظ﴿مُصَدِّقًا﴾ من الصدق، ضد الكذب، كما في قوله تعالى:﴿وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، والتصديق لغة هو أن تحكم بالصدق[[[58]](#footnote-58)]، أو أن تنسب الصدق إلى المُخْبِر، كما أن التكذيب هو أن تنسب الكذب إليه، ولا تُطلَق صفةُ المكذِّب إِلَّا على من كذب بالحقِّ، لأَنّها صفة ذمّ، ولكن إِذا قُيِّدت فَقيل مثلا: "مكذب بالباطل" كان التعبير مُسْتَقِيمًا. والمراد من هذه الصفة أن عيسى عليه السلام بعث نبيا مصدقا لما نزل قبله من التوراة على موسى عليه السلام ولما عمل به أنبياء بني إسرائيل من بعده، ومؤيدا لما بقي من شريعته صحيحا أصليا، ومصححا لما طرأ عليه من التحريف والتزييف والتبديل، وممهدا لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم مبشرا بها، وهو ما بينه قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ البقرة 87، وقوله عز وجل:﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾الحديد 27، وقوله سبحانه:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف 6. وأبرَزُ دلالات تتابع الرسل وتصديق اللاحق منهم للسابق أنهم جميعا أصحاب رسالة واحدة ودين واحد مصدره واحد وأصوله واحدة وهدفه واحد، وأنهم على تعاقبهم يتمم بعضهم رسالة بعض ويجددها، ويبني آخرهم على بناء أولهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمثل قَصْرٍ أُحْسِنَ بُنْيَانُهُ تُرِكَ مِنْهُ مَوضِع لبنة فَطَافَ النظَّارُ يتعجَّبونَ من حُسنِ بنيانِه إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ وَخُتِمَ بِي الرُّسُلُ).

ولئن كان تصديق عيسى عليه السلام للتوراة متعلقا بكونها حقا كتابا منزلا من عند الله، مؤكدا بذلك وحدة رسالة الأنبياء وجوهر عقيدتهم في توحيد الألوهية والربوبية والصفات، فإن الأمر يختلف في مجال الأحكام الشرعية العملية لأن من التشريعات العيسوية ما نسخ التشريعات الموسوية أو خفف أحكامها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى:﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾آل عمران 50.

والصفة الثانية التي أتى بها عيسى عليه السلام هي قوله تعالى بعدها:

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾والإنجيل هو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام فأضاعه أهله ولم يبق له أثر، فكتب رهبانهم في أخطر مفاصل العقيدة المتعلقة بالتوحيد أناجيل أخرى كثيرة متهادمة، ينقض بعضها بعضا، واضطرت الكنيسة إلى اعتماد أربع منها لم تسلم هي أيضا مما رميت به الأناجيل التي لم يعترف بها.

ثم وصف الإنجيل الأصلي بخمس صفات فقال تعالى:

﴿فِيهِ هُدًى﴾ لأنه اشتمل على دلائل التوحيد والتنزيه وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمِثْل والحلول والاتحاد.

﴿وَنُورٌ﴾ لأنه بيَّن لبني إسرائيل أحكام دينهم وتكاليفه وصحح ما غيروا منها وبدلوا.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ وَرَدَ التصديق للتوراة في هذه الآية مرتين، السابقة منهما متعلقة بتصديق عيسى للتوراة، وهذه الثانية بتصديق آيات الإنجيل نفسه للتوراة.

﴿وَهُدًى﴾ لاشتماله على التبشير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف6.

والصفة الخامسة للإنجيل هي قوله تعالى بعد ذلك:﴿وَمَوْعِظَةً﴾، ولفظ الموعظة لغة من فعل: وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة إذا ذكَّرته بالخير وحببته إليه وخوفته من الشر وكرهته له وذكَّرته بعواقبه، والموعظة في الدين هي جوهر ما نزلت به الكتب الأربعة من لدن الحكيم العليم، لقوله تعالى أيضا عن التوراة:﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الأعراف 145، وقوله عن القرآن الكريم:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس 57.

ثم خص الله تعالى المتقين بالاتعاظ وجعلهم أهلا له فقال عقب ذلك:﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي لأصحاب القلوب الواعية القابلة للهدى والنور، الذين يتعظون بما فيه من مواعظ وينزجرون بما حواه من زواجر، ويخافون ربهم بالغيب فيؤدون ما فُرِض عليهم ويجتنبون ما نُهوا عنه، لأنهم أكثر الناس فهما لكلام الله وأشدهم مراعاة له وعملا به، وأولاهم بحمله وتبليغه والحكم بشريعته.

وبعد أن أنزل الحق سبحانه الإنجيل إلى بني إسرائيل على لسان عيسى عليه السلام، أمرهم بتنزيل أحكامه وشرائعه في حياتهم بكل أوجهها العقدية والعبادية والقضائية والسلوكية، إذ لا معنى لنزوله إلا العمل به، فقال عز وجل:

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وحرف اللام ساكنا في قوله تعالى:﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ لام الأمر بجعل الإنجيل مرجعا وحيدا للحكم، خلافا لحمزة الذي قرأ حرف اللام بالكسر :﴿وَلِيَحْكُم﴾ على أنه تعليل لنزول الإنجيل، أي: نزل لِيُحْكَم به.

أما أهل الإنجيل في الآية الكريمة فهم النصارى الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وصدقوه واتبعوه، ووجب عليهم الحكم بالإنجيل الذي أوتيه، ليس لهم إلا ذلك، من غير تحريف أو تبديل، لأن القاعدة الأساس في كل بعثة ورسالة هي الحكم بما أنزل الله تعالى، وهذا الأمر بتحكيم الإنجيل وقَبـْلَه الأمرُ بتحكيم التوراة كان قبل البعثة النبوية التي نسختهما بالقرآن الكريم، فلم يبق في عهدتهم منهما إلا التوحيد والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتباعه، وهو عين ما أمر به تعالى نبيه إذ قال له:﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المائدة 68، أي حتى تقيموا شهادة التوراة وشهادة الإنجيل لمحمد صلى الله عليه وسلم وبشارتهما به، وما أنزل إليكم من القرآن.

ثم قرر تعالى حكم مخالفة هذه الآية الكريمة فقال:﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فأولئك هم المختصون بصفة الفسق، وبما أن الفسق شرعا منه كفر ومنه ظلم، فإن كان عدم تحكيمهم الإنجيل اتباعا للشهوات بغير تكذيب فهو فسق المعصية، وإن كان إعراضا مبرَّرا بعدم ملاءمته للحياة فهو الكفر الصراح، وإن كان تكذيباً مطلقا فقد جمع إلى الكفر المحاربةَ لله ورسوله والبغيَ في الأرض بالفساد، لذلك تضمنت هذه الآية بصيغة الإطلاق والعموم فيها جميع معاني قوله تعالى قبلها:﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة 44، وقوله:﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة 45، وكانت بذلك أكثر لصوقا بمن يحكم بغير ما أنزل الله في كل عصر وفي كل قوم.

لقد أنزل الحق تعالى كتابيه التوراة والإنجيل في بني إسرائيل واستحفظهم عليهما فأضاعوهما بالتبديل والتحريف والزيادة والنقص، وكتموا أحكامهما وتاجروا بهما ووظفوهما في مجالات صراع الطوائف والمذاهب طلبا للسلطة أو دعما لأربابها، ثم أورد في هذه الآيات الكريمة خبر مسيرتهم الضالة وتجربتهم الدينية الفاشلة تربيةً للأمة الإسلامية الخاتمة وتثبيتا لها على الحق وتحذيرا من اتباع أثرهم أو السعي مسعاهم، أو سلوك سبيلهم كيلا تستوجب غضب الرب وعقابه مثلهم، ولذلك عقب عز وجل مذكرا بخاتمة المطاف في المسيرة الإنسانية العقدية بصورتها النهائية ومنهجها الكامل وشريعتها السمحة الغراء، راسما خط سيرها السليم وبوصلة قبلتها الراشدة مخاطبا أمتها في شخص رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم وقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ الذي هو القرآن الكريم ﴿بِالْحَقِّ﴾، ويكفي لصدقه أنه نزل من الحكيم العليم، كما قال تعالى أيضا: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾الإسراء 105، وأنه نزل بالمنهج الذي يقيم الحق والعدل في كل مناحي الحياة، وفي كل زمان ومكان، وأنه نزل متلبسا بالحق مشتملا عليه مقررا له، مستجيبا لحاجات الإنسان وقضايا الكون أرضا وسماء، محفوظا من التحريف والتغيير والعفاء، قال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر 9، وقال:﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت 42، هو الحق في نزوله والحق في مضمونه، والحق في العمل به والحق في وعده وموعوده. جعلنا الله تعالى من المهتدين بهداه الثابتين على نهجه والمقيمين أحكامه في أنفسنا وأهلنا، والمبلغين تعاليمه بصدق نية وقصدٍ جميل وصواب عمل.

ثم بين الحق تعالى عقب ذلك منزلة القرآن من الكتب قبله فقال:

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ والكتاب في هذا السياق اسم جنس لجميع الكتب السماوية التي سبقت نزول القرآن، صدَّق القرآن نسبتها إلى منزلها عز وجل، وهيمن بأحكامه وتشريعاته على أحكامها وتشريعاتها، ونسخ منها ما اقتضت الحكمة الإلهية نسخه، وأتى بخير منه للمسلمين، كما أشار إليه قوله تعالى في آية أخرى:﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ البقرة 106، ولئن كانت شهادة القرآن بالصدق لهذه الكتب ثابتة، وهيمنته عليها باقية أبدا فإنما ذلك خاص بما لم يحرف منها أو يبدل، ومقيد بعدم جواز العمل بأحكامها إلا إذا أقرها القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

ولئن كان القرآن هو خاتم الكتب السماوية يصدقها ويهيمن عليها، وكانت شريعته هي خاتمة ما أنزل الله من الشرائع، وكان موجها لجميع الأقوام والألوان والألسنة، وكان نزوله للعمل به وبناء أركان الحياة على منهجه، وسعادةُ الحال والمآل في العمل بتعاليمه في النفس والمال والأهل والولد، ، فإنه لا يسع أحدا بَلَغَتْه دعوتُه إلا أن يؤمن بها ويعمل بأحكامها، كما قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)، لذلك عقب الحق تعالى آمرا بتحكيمه والتحاكم إليه وقال:

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وكما أن الخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم لأن بعض أهل الكتاب كانوا يتحاكمون إليه أحيانا، فإنه موجه أيضا إلى كل فرد مسلم كي يحكِّم في نفسه وماله وأهله وولده ما أنزل الله تعالى من القرآن، وإلى كل مسؤولِ جماعةٍ أو قرية أو فئة أو أمة كي يُحَكِّم شريعةَ الإسلام.

لقد كمل الدين وأسبغ الله تعالى نعمته على الأمة، وأصبح أمر إقامته جازما لا يقبل المراجعة ممن أراد أن ينتسب إليه، ونسخت أحكام الكتب السابقة، فلم يعد الرجوع إليها مقبولا، وأحرى بالمؤمنين أيضا أن يكفوا عن تحكيم ما سواها من الأهواء والبدع والضلالات الأخرى، وعن الخضوع لها أو إيثارها أو الحديث عن جدواها مهما تنوعت تسمياتها أو تعددت تبريراتها، سواء بالمصلحة المُتَوَهَّمة أو المقصد المُمَوَّه، أو مسايرة روح العصر، أو غير ذلك من التعلات المزعومة، لذلك عقب الحق تعالى بأمر آخر يزيد الحكم بما أنزله وضوحا، ويحول دون تمييعه أو إساءة تأويله أو محاولة التحلل منه فقال عز وجل:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ والأهواء جمع: هَوًى، بالقصر، أي هَوى النفس ورغبتها، من فعل :"هَوِيَ" إذا أحب ورغب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص 26، أما الهواء بالمد فهو الجو وجمعه أهوية، ومنه قوله تعالى:﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ إبراهيم 43، أي فارغة.

والأصل في الأهواء والرغبات الاختلاف والتناقض فلا يجتمع أصحابها إلا نادرا ثم يفترقون، ويتباغضون ويتبرأ بعضهم من بعض، ولذلك يقال: جمعتهم الأهواء، ولا يقال ألفت بينهم الأهواء، لأن التأليف يفيد الموافقة والتوافق، كما هو شأن المؤمنين إذ تحرروا من الأهواء بإيمانهم فألف الله بين قلوبهم:﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾الأنفال 63. ذلك لأن للمؤمن العاقل مقياسين يعرف بهما الحق من الباطل ، هما النص الشرعي والتفكير العقلي السليم المنضبط بالنص، فإن توسل بهما متحررا من رغبات النفس وهواها كان الصواب والسداد، وتآلف مع المؤمنين أمثالِه، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف). لذلك وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة للتحذير من أن يجاري المؤمن أهواء نفسه أو يطيع أهواء غيره، فمن القرآن قوله تعالى:﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان 43، وقوله:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الجاثية 23. وقوله:﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الشورى 15، وقوله:﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف28، وقوله صلى الله عليه وسلم: (وإنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرْق ولا مَفصل إلا دخله)، وهو ما فهمه الحسن رحمه الله إذ قال: "اتقوا هذه الأهواء التي جُمَّاعُها الضلالة ومعادها إلى النار".

ولئن كانت بعض الأهواء أحيانا تموِّه على أهلها بمصلحة عارضة يسعون لها أو منفعة مُتوهَّمة يطلبونها، ويكون التنازل عن الحق أو عن بعضه وسيلةَ لتحقيقها، فإن التلبيس باتخاذها مرجعا للحكم لا يعني إلا الافتيات على الله تعالى والكذب عليه وادعاء العلم بمقاصد شرعه ومصالح عباده في غير القرآن والسنة.

وما دامت أهواء بعض الناس هي الحاكمة والمتحكمة فيهم فلن يجتمعوا على دين واحد أو مصلحة حقيقية بينة أو مقصد ثابت، لأن عبد الهوى لا يقبل دعوة الحق ولا يستجيب لدعاتها ما لم يتحرر أولا، وما تقزيم الحق أو تقليمه أو التنازل عن بعض أحكامه إلا إساءة للحق نفسه، وإضرارا بآخرة من تجرأ عليه أو باركه أو شجع عليه، وقد أُنْزِل الحق على محمد صلى الله عليه وسلم وأُمِر باتباعه والعمل به ودعوة الناس إليه، فآمن به قوم حرروا أنفسهم وحرروا غيرهم، وكفر به آخرون تأسرهم الأهواء، فتحملوا في ذلك مسؤولية اختيارهم، وهم على ما ماتوا عليه إلى أن يلقوا ربهم فيحاسبهم، وليس على المؤمنين إلا الدعوة والتبليغ بالكلمة الطيبة والمجادلة بالحسنى، من غير أن يتساهلوا في شيء من أحكام العقيدة أو الشريعة إرضاء للفرق الضالة، أو حرصا على تجميعها أو توحيدها، أو تأليفها، لأن كل طائفة منهم معجبة بهواها، متمسكة بضلالها ، وقد جعل الله للمسلمين دينهم القيم منهجا ونظام حياة، واختار غيرهم الضلالة شرعة فجعلت لهم استدراجا وإمهالا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ القلم 44-45، كل من اختار سبيلا ومات عليه حوسب به يوم القيامة، إن خيرا فخير أو شرا فشر، إنها حكمة الله في خلقه لا يسأل عنها ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء 23، خلقوا متباينة مشاربهم وميولهم، متفاوتة استعداداتهم وقدراتهم، مختلفين فكرا وعاطفة وصلابة وليونة وسعيا، ثم دعوا إلى الحق فاختلفت استجابتهم له وكانت منهم أمم كثيرة، كل أمة تميزت بما اختارت لنفسها من المناهج والشرائع ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تلك مشيئة الله تعالى في خلقه بني آدم، قد أطعمهم وسقاهم وعلمهم وأكرمهم ولا يريد منهم جزاء ولا شكورا ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ولكن يريد ليختبركم فيما آتاكم من فضله وما أنزل عليكم من الهدى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ سارعوا إلى خير الدنيا والآخرة وابتدروه، وسابقوا إلى الالتحاق بركب الإيمان والإسلام، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بالحق فيما اختلفتم فيه، ويميز محقكم ومبطلكم، وعاملكم بكتابه ومفرطكم فيه.

ولعل هذه الآيةَ الكريمةَ - وقد اكتمل الدين وآذنت حياة النبي صلى الله عليه وسلم بالرحيل - دعوةٌ إلى مصابرة المخالفين ومطاولتِهم بالحوار الجاد والحجة القاطعة ولين الجانب حتى يتميز الحق من الباطل، لأن الحق دائما غني عن الإكراه، أبلج يعرف نفسه ويعرفه أهله، لا يحتاج إلا لحسن التقديم، لا سيما وقد استتب الأمر للإسلام بفتح مكة، وأصبح سيد الساحة وملاذ المتحاكمين من أهله ومن غير أهله، وكسرت شوكة أعدائه فلم يبق لهم من وسيلة إلا الدس والمكر الخفي. لذلك حث الحق تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه على اليقظة لما قد يدسه الساعون لتأجيج الفتن وتخذيل الصف، فقال مؤكدا أمره بالحكم بما أنزل الله، وناهيا عن الاغترار بأصحاب الأهواء:

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وما أنزله الله هو الشرائع التي ورد بها القرآن والسنة النبوية أحكاما وعبادات وأخلاقا ومروءات ومنهج حياة ، أما تكرار الأمر بالحكم به في هذه الآية فهو تأكيد للأمر السابق وتوضيح له وتمهيد به لذكر أخطر مداخل الفساد في الحكم وتدبير الشأن العام للأمة، أولها وأشدها يوضحه قوله تعالى عقب ذلك:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ذلك أن أهواء الأفراد والجماعات والأحبار والرهبان وبعض من يسمون عند المسلمين رجال دين كانت عبر تاريخ الرسالات السماوية مداخل الشيطان لإفساد العقيدة والتحايل على الشرائع، وأحرى ألا يتبعها من ينتسب لهذا الدين وقد اكتمل بنزول آخر سورة تشريعية، تبين أن أي تغيير فيه أو تحريف له أو اقتراح عليه بالنقص أو الزيادة يعد تنكرا له وشكا في صلاحيته.

ولئن كان اليهود كثيرا ما حاولوا استدراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحكم بما يوافق أهواءهم كما في حادثة رجم الزاني، فإنهم في حالات أخرى عملوا على فتنته عن الحق الذي أرسل به، مكرا به ومحاولةً لإيقاعه في تناقض يشوهون به صورته وصورة ما جاء به، لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم محذرا بقوله:

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والفتنة في هذا السياق هي الميل عن الحق والوقوع في الباطل، والمعنى: احذر يا محمد هؤلاء اليهود وجميع أعداء الدين أن يصدوك عن بعض ما أنزله الله إليك من العقائد والأحكام الشرعية ومفصلات الدين، أو أن يحملوك على ترك العمل به في أي ظرف أو حال، فتُصرف عن الحق وتقع في الباطل. وقد نزلت هذه الآية مشيرة إلى ما عرضه بعض أحبار اليهود عليه صلى الله عليه وسلم، إذ قال بعضهم لبعض: "اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر" فأتوه فقالوا: "يا محمد إنك قد عرفت أننا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود، ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك"، فأبى ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتولوا ساخطين محبطين، وأنزل الله تعالى هذه الآية كشفا لخداعهم وفضحا لمكرهم، ثم بين عاقبة أمرهم وأمر أمثالهم بقوله عز وجل:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تولوا عن الإيمان وأعرضوا عن حكمك بما أنزل الله، وفضلوا غيره مما فيه هواهم أو مكرهم ودسائسهم﴿فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أن يعجل لهم في الدنيا عقوبة بعض ما يرتكبون فينصرك عليهم كما نصرك في بدر والأحزاب وبني النضير وقينقاع وغيرهم، ويدخر لهم في الآخرة تمام العقوبة وأوفاها، فلا تبتئس لما فعلوا ولا يَرُعْك حالُهم، ولا يحزنك ما ران عليهم وعلى كثير من أمثالهم من الفسق، فإن من حكمة الله تعالى أن يكون في البشر مؤمن وفاسق ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

إن من حكمته تعالى أن يبتلِيَ العبادَ فيعرضَ عليهم نجدي الخير والشر فينظرَ كيف يعملون، ولا إكراه في الدين إن تبين الرشد من الغي ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان 3، وإذا رفض الفساق حكم الله تعالى، وكتبت عليهم الضلالة فلم يملك لهم مخلوق رشدا أبدا.

وإن من قضائه عز وجل عدلا أن جعل الإنسان على ناصية طريقين لا تلتقيان يختار إحداهما، طريق الإيمان ومن مقتضاه أن يعتمد في جميع شؤونه على العلم اليقيني الثابت في الكتاب والسنة، منهجا يستمد منه تصوره الاعتقادي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقيمه السلوكية فردية وجماعية، وطريق الجهل بالمبدأ والمعاد ومخاطر السير والمصير، بما فيه من جاهلية الاعتقاد والاختيار والتصرف، ومن مقتضاه شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، والناس في ذلك بين اختيارين لا ثالث لهما ولا جامع بينهما، حكم الله الذي يلغي حاكمية البشر للبشر، ويعطي الناس بمنهجه الشامل وشريعته المتكاملة حق التسلط على شأنهم الدنيوي مع العمل لشأنهم الأخروي، وحكم الجاهلية الذي يستعبد فيه الإنسان أخاه الإنسان ويتسلط عليه ويضع له القيم الهابطة والشرائع الظالمة والنظم المختلة، فأي الخيارين أحسن مآلا وأفضل عاقبة، وأي الحكمين يبغيه العقلاء؟ وهؤلاء السفهاء الذين كانوا يترددون على الرسول صلى الله عليه وسلم يسألونه لاستدراجه إلى الحكم بأهوائهم، أو لإيقاعه في تناقض يخدم أهدافهم، ومعهم أمثالهم في كل عصر من زعماء التيارات الضالة وأتباعهم، عم يتساءلون وماذا يبغون؟ ، لذلك عقب الحق تعالى باستفهام ينكر اختيارهم الجاهل وعزوفهم عن الحق بقوله عز جل:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وكلمة "الجاهليَّة" مصدر صناعي[[[59]](#footnote-59)] من لفظ "جاهل"، وتعني حالة التسيب والفوضى والاضطراب وانعدام الضوابط وتحكيم الأهواء والعصبيات وتغلب الأقوياء على الضعفاء والأغنياء على الفقراء. وفي هذا الاستفهام الإنكاري لحكم الجاهلية بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ إشارة واضحة إلى نظامين للحكم وتدبير للشأن الفردي والجَماعى:

نظامِ جاهلية لا يختاره العقلاء، نسبة إلى البشر الجاهل الذي يضعه من غير أن يكون له العلم التام بخفايا النفس وحاجاتها والوجود وقيمه وأهدافه ومساره ومصيره.

ونظامٍ رشيد مبنيٍّ على علم يقيني وضعه الخالق المحيط بالخلقِ منشئِه ومحياه ومماتِه ومبدئِه ومنتهاه ودنياه وآخرتِه. لذلك كان الاستفهام في الآية إنكاريا لاختيار الجاهلين، أعقبه استفهام تقريري لاختيار المؤمنين الموقنين بقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ذلك لأن الاختيار السليم لا يكون إلا مبنيا على علم يقيني لا لبس فيه، ورؤية صحيحة لا غبش فيها وحجة بالغة غير قابلة للدحض، مصدرها خالق الكون تعالى، بواسطة كتابه المنزل ورسوله الأمين، بذلك يستقر إيمان المرء على درجةٍ من اليقين لا تتزعزع، فلا يبغي بحكم الله بديلا، ولا يرضى بحكم الجاهلية منهجا أو دليلا، درجةٍ يعرف بها الحياة ممرا غير دائم، ويوقن فيها بأن الآخرة مستقر غير زائل، خلود في الجنة أو خلود في النار، وهو بذلك المؤمنُ الموقنُ حقا، اختار فطوبى له الاختيار وطوبى له عقبى الدار ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الرعد 23- 24، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:(كيف أصبحت يا حارثة ؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: (انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقةً )، قال: يا رسول الله، عزفتُ نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبصرت فالزم، عبْدٌ نوَّر الله الإيمان في قلبه ) [[[60]](#footnote-60)].

عقيدة الولاء :مبطلاتها وخوارمها

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (53) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58)﴾ المائدة |

كل جسم حيٍّ مُركَّبٌ من عظام ولحم وشرايين وعروق، إلا أنه بدون جهاز عصبي يشد مكوناته إلى بعضها ويوجه نشاطه ويضبط حركاته الإرادية وغير الإرادية، ويشعره بالمخاطر، ويحفز مناعته وأدوات دفاعه، مجرد جسد رخو لا قدرة له على إثبات ذاته أو استثمار قدراته وتوجيهها، كذلك الأمة الإسلامية وقد بُعثت لإنشاء واقع جديد متميز عن واقع النظم القائمة على الفساد، بمنهج جديد عصي عن التحريف والانحراف، وعقيدة يدين بها الكون كله، ويتماسك بها الوجود جميعا، هي عقيدة التوحيد طاعة لله وانسجاما وانتظاما وانضباطا وسيرا على سننه، قال تعالى:﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ النحل49/50، وقال عز وجل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس 40.

هذه الأمة لابد لها من موقف شعوري مشترك يمثل الجهاز العصبي للجسم الواحد، تتضامُّ به مكوناتها وتتماسك به مقومات شخصيتها الذاتية والاعتبارية، وتزكو به وظيفتها في الأرض، وتسمو به مكانتها في الوجود، وتتوفر لها به المناعة التامة ضد الذوبان في غيرها أو التفتت في مواجهة عدوها، هذا الموقف الشعوري المشترك هو الذي يجعلها جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وإذا هددته المخاطر تصدت لها قوى المناعة الذاتية بالحماية والذود والمدافعة. إنه الإحساس المشترك بين أهل الإيمان بالانتماء إلى أمة واحدة موحدة كما أراد لهم الحق سبحانه إذ خاطبهم بقوله:﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء 92.

إن هذا الشعور الجماعي لدى المسلمين، وقوةَ انسكابه في قلوبهم وعقولهم ومواقفهم ولاء لربهم وعقيدتهم وأمتهم، وتدفقَه في علاقاتهم ببعضهم مهما اختلفوا أو تنازعوا، ثمرة يانعة لانتمائهم إلى عقيدة واحدة ربانية من إله رحيم وصراط مستقيم ومصير واحد في الدنيا والآخرة، ويقينهم بأن هذا الانتماء لا يكون صادقا مؤتيا أكله إلا بالتماسك والتضامن والتعاون والتكافل والتناصر في مواجهة خصوم شرسين لا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمة، بذلك تقوى الأواصر بين أفراد الأمة وتتظافر الروابط والوشائج النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين مكوناتها، فتستغني عن كل ولاء لغير ربها أو استنصار بعدوها. لذلك حفل القرآن الكريم بعد الدعوة إلى العقيدة السليمة، بآيات الولاء وضرورة اتخاذه قطب الرحى في علاقة المسلمين بربهم وعلاقتهم برسولهم وببعضهم، وعلاقتهم بالمناوئين الباغين لهم ولدينهم السوء، كما في سورة المائدة التي نواصل تفسيرها، وقد أفاضت في بيان أصول العقيدة، وكشفت للمسلمين طبيعة الكفار والمشركين والمنافقين، وطرائق تخريبهم للصف المسلم، ثم عادت إلى مخاطبتهم بصفتهم الإيمانية الحقة، محرمة عليهم موالاة الخصوم المتربصين بهم الدوائر من سائر الملل والنحل والعقائد الضالة، لما في هذه الموالاة من غبش رؤية وقتامة تصور إيماني، وجهل بمقتضيات العقيدة السليمة وتمييع للصف وإضرار بالوحدة، وما تنطوي عليه من سذاجة سياسية أو إيثار غبي لبعض المصالح الآنية رغبا أو رهبا، فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾، وقوله تعالى:﴿أَوْلِيَاءَ﴾ جمع مفرده "ولِيّ"، من فعل"وَلِي"، وحروف الواو واللام والياء في أصل اللغة تدل على القرب، ومنها الوَلْيُ أي القرب، كما في قولهم: تباعد بعد وَلْيٍ، ومنه لفظ "الوليّ" ويطلق على المتعهد والحليف والصهر، والمحب والمعين والمنعم، ومن يلزمه القيام بأمر ما، أو تَحِقُّ له المطالبة بشيء ما، كما في قولهم: وليُّ المقتول أو وليُّ الدم، ومنه:"الوليّ" من أسماء الله الحسنى، بمعنى الناصر والمعين من قوله تعالى:﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة 257، فإن أطلق اللفظ على المؤمن كقولهم: فلان وليّ الله، كان معناه المُعَان بنصر الله وتوفيقه، ومنه "المَوْلى" بمعنى الوليّ الناصر في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ محمد 11، والولاية بذلك لا تخرج عن معنى النصرة والعون والمحبة وما في حكمها، كما في قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأنفال 72.

وحرف النهي:"لا" في قوله تعالى:﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ يفيد تحريم اتخاذهم أولياء يُنصَرون أو يُستنصَرون، أو يعاشَرون معاشَرة المؤمنين محبةً ومصافاة وتطاوعا، وعلل الحق سبحانه هذا النهي بقوله:﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هم جميعا وإن اختلفوا في الدين متفقون بجامع الكفر على عداوة الإسلام، متناصرون في حربهم على المسلمين مهما كتموا أو تستروا.

ثم بين عاقبة موالاتهم فقال:﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ومن يواليهم من المسلمين محبة أو نصرة أو استنصارا أو طاعة وتصافيا فإنه من جملتهم، وحكمه حكمهم، يكلهم الله إلى أوليائهم من غير الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بموالاة غير المؤمنين، يتركهم الحق سبحانه في الضلال لا يهتدون إلى طريق الجنة ولا يريحون ريحها، والتهديد في هذه الآية تشديد في وجوب البراءة من أعداء الدين وعدم موالاتهم.

لا شك أن هذه الآية صريحة في تحريم موالاة المسلمين لليهود والنصارى على رغم أن لهم بقيةَ انتساب إلى موسى وعيسى عليهما السلام، ولكنها أيضا بمفهوم الأَوْلَى تحرم موالاة جميع الكفار من غيرهم، وهو ما ورد واضحا في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ النساء 144، وقوله عز جل:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ التوبة 23.

وهذا التحريم يقتضي من المؤمن البراءة من عقائدهم المشركة وتشريعاتهم المناهضة لشريعة الإسلام، وعدم طاعتهم أو محبتهم أو مناصرتهم أو الاستنصار بهم على أهل الإيمان، قال تعالى:﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ آل عمران 28، وقال:﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ المجادلة 22، وقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ آل عمران 100.

إلا أن البراء من غير المسلمين لا يعني القطيعة وإعلان العداوة أو عدم التعاون معهم في المجالات الدنيوية تجارة أو صناعة أو علما وتعلما وتعليما، وتعاونا على بذل الخير والإحسان ودفع المضار وكف الأذى، كما لا يعني عدم معاشرتهم بالبر والعدل والكلمة الطيبة وحسن الخلق، لأن ذلك كله من مقومات أخلاق الإيمان، قال تعالى:﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:( خيركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا) وقال:( إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلُقا، وإن حُسْن الخلق لَيبلُغ درجة الصوم والصلاة).

ولئن كان الولاء لله ورسوله والمؤمنين في آيات كثيرة من القرآن الكريم يختل بالولاء لمن فسدت عقيدتهم ولو من ذوي الروابط الأسرية أبوة وبنوة وزوجية ومطلق أرحام كما في حال لوط وامرأته، ونوح وامرأته وولده، وإبراهيم وأبيه، فقد عرض القرآن في هذه الآية من سورة المائدة إلى خوارم أخرى ومبطلات لهذا الولاء سببها القلوب المريضة في الصف الإسلامي نفسه فقال تعالى:

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ والخطاب في هذه الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لكل المؤمنين، يرشدهم إلى علامة فارقة تُرى في العواطف والتصرفات والعلاقات، تميز الولاء الحق عن الولاء المختل، إنها المسارعة إلى إرضاء أعداء الدين بالمحبة والنصرة والاستنصار، وما تفرزه القلوب المريضة من أوهام وضلالات ووساوس ومخاوف تبرر ذلك.

إن أمراض القلوب المؤدية إلى اختلال الولاء لله تعالى كثيرة ولكن مردها كلها إلى خلل في العقيدة وغبش في التصور الإيماني السليم، أو إلى الكفر الصريح والشرك خفيا أو ظاهرا، أو الشك والارتياب في حقائق الدين وثوابته، مما أوجزه قوله تعالى:﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ البقرة 10.

والتعبير القرآني بالرؤية علمية أو حسية بقوله تعالى:﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾في غاية الدقة والشمول، إذ لا تكاد القلوب المريضة تُخفي نوايا أصحابها، مهما تستروا أو برروا أو اعتذروا، سيماهم واحدة مكشوفة هي الانحياز لغير المؤمنين ولذلك خاطب الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في شأنهم بعلامتهم الفاضحة بقوله:﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ محمد 30، لأن سيماهم ولحون أقوالهم دليل على قلوبهم، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم - وأشار بأصابعه إلى صدره – وأعمالكم)، قال حذيفة رضي الله عنه:" القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجرَدُ فيه سراجٌ يُزهرُ فذلك قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلفُ فذلكَ قلبُ الكافرِ، وقلبٌ منكوسٌ فذلك قلبُ المنافقِ عرفَ ثمَّ أنكرَ وأبصرَ ثمَّ عمِيَ ، وقلبٌ تمُدُّه مادَّتانِ مادَّةُ إيمانٍ ومادَّةُ نفاقٍ هو لِما غلبَ عليه منهما".

ونحن نرى في عصرنا هذا – كما رأى السابقون – أصنافا من القلوب المريضة في جميع المجالات السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية.

في مجال السياسة نرى الأحزاب العلمانية الموالية لغير المسلمين عن عقيدة واقتناع، وأحزاب النكهة الإسلامية الراكنة إلى أعداء الدين بدعوى الحاجة والاضطرار، ونرى الحكام الخاضعين للأجنبي استنصارا وطمعا في الدعم أو خوفا من شعوبهم ومحافظة على عروشهم، وفي المجالات العسكرية نرى الانبطاح للأجنبي خوفا وطمعا والاعتماد عليه تسليحا وتدريبا واستنصارا وحماية، وفي المجال الثقافي والاجتماعي نرى انبهار كثير من مثقفينا وعلمائنا ورؤساء جامعاتنا وقادة مراكز البحث العلمي لدينا بنظريات الغرب ومناهجه وشطحاته الفكرية وعاداته وتقاليده المبنية على غير هدى. كلهم يبررون ما ارتكسوا فيه بالخوف من تقلب الحال وعاقبة المآل:

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾والدائرة واحدة الدوائر، وهي صروف الدهر ونوازله وتقلباته السلبية ومصائبه، إنهم لعدم ثقتهم بالله يتمسكون بولائهم لغير المسلمين، خوفا منهم أو تحسبا لاضطرار يلجئهم إلى طلب المساعدة منهم. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية (أن عُبادة بن الصّامت قال: يا رسول الله إِن لي موالي من اليهود، وإِني أبرأ إِلى الله مِن ولاية يهود، فقال عبد الله بن أُبيّ – رأس المنافقين-: إِنّي رجلٌ أخاف الدوائر، ولا أبرأ إِلى الله مِن ولاية يهود). وهو نفس سلوك المنافقين في كل عصر، نرى نماذج منه حاليا في حكام المسلمين الذين ركنوا إلى أهواء ألفوها وأطماع استطابوها فالتبست عليهم الطرق، وغابت عنهم معالم الحق، واستدرجهم فقه الرخص والمقاصد الرخيصة والمصالح الدنيوية السافلة إلى أحضان أعدائهم: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

فإن حاول الصادقون نصحهم ردوا بأن الحاجة والضعف والخوف من البطش تقتضي المجاملة وإظهار الولاء ريثما تُستجمَع القوةُ وتُضمن الغلبةُ، ويستدلون بقوله تعالى:﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾آل عمران 28، ولكن ظاهر أمرهم وباطنه يدل دلالة قاطعة على أنهم ركنوا إليهم ركونا مطلقا واستعانوا بهم في كل أمرهم واعتمدوا عليهم حتى في توفير الرفاهية لقصورهم والسلاح لقهر شعوبهم، وليس لهم أي تصور لأي عمل يخرجهم من نير الخضوع الذي يرتكسون فيه. بل هم أدوات طيعة لقمع من تسول له نفسه الاستغناء عن الأجنبي ولو في مجال توفير الخبز للمسلمين باستصلاح الأرض وتعميرها، ولنا المثل من تاريخ الحفصيين في تونس، إذ تسمى المستنصر الحفصي سنة 659هـ (1259م) بأمير المؤمنين عقب سقوط خلافة العباسيين في بغداد، ثم اضطروا للخضوع للإسبان فترة، وللمرينيين بالمغرب فترة، وحاربوا في صفوف الصليبيين فترات، وأعطوا الجزية إلى ملك صقلية (شارل دانجو) اتقاءً لاعتداءاته على شواطئهم وأساطيلهم. بل إن المستنصر أخذ يتودد إلى النصارى حتى ظن لويس التاسع أنه يميل لاعتناق النصرانية، مما شجعه على غزو تونس في 26 ذي الحجة 668 هـ (1270 م)، ثم تراجعت حملته بعد أن تعهد المستنصر بمضاعفة الجزية للصقليين حلفاء الفرنسيين.

لذلك يرد الوحي على المنافقين السابقين واللاحقين بما يدخره الله تعالى من نصر للمؤمنين الواثقين الصادقين بقوله عز وجل:

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ فعسى أن يأتي المؤمنين نصر من الله تعالى على أعدائهم، فتفتح البلاد المستعصية لمجاهديهم، أو تفتح القلوب لدعوتهم فيدخل الناس فيها أفواجا.

﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أو يمن عز وجل على عباده بنصر آخر غير الفتح المعلوم، نصر لا يعلمه ولا يقدره أو يقدر على إنفاذه إلا هو سبحانه، فيهلك أعداءهم كما أهلك أمم الضلالة قبلهم.

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، فإن أنجز الله تعالى وعده ونصر عبده شاهد المنافقون نصر الله المؤزر للمؤمنين، وحلول أمره بالمكذبين، حينئذ يندمون ولات حين مندم على ما أضمروه من شك وتشكيك في دعوة الحق، وما خططوا له من كيد ومكر بأربابها وخذلان لأهلها.

وحيتئذ أيضا يفرح المؤمنون بالنصر والفتح ويتبادلون الحديث فيما بينهم مغتبطين بحالهم متعجبين من عاقبة أمر المنافقين وانكشاف زيف دعواهم الإيمان ووعودهم الكاذبة للمؤمنين بالنصرة والمعاضدة:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى:﴿وَيَقُولُ﴾ قرأه عاصم وحمزة والكسائي بالواو والرفع على أنه كلام مبتدأ معطوف على ما قبله، وقرأه ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو:﴿يَقُولُ﴾، على أنه جواب سؤال تقديره: فماذا يقول المؤمنون إذ يروا عاقبة الإيمان وعاقبة النفاق؟، أما أبو عمرو فقرأه بالنصب معطوفا على قوله تعالى:﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي:" أن يأتيَ بالفتح وأن يقولَ المؤمنون".

أما قوله تعالى:﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ فسؤال تعجُّبي لجراءة المنافقين على الأيمان الكاذبة، أي: هل هؤلاء هم الذين خدعونا من قبل وأقسموا بالله على الأخوة والنصرة في الحرب والسلم وقد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ فضح الله نفاقهم وجبنهم وأفشل مساعيهم في الدنيا، وحرمهم في الآخرة أجر ما كانوا يراؤون به من صلاة وصيام وعبادات لا يراد بها وجهه عز وجل، إنه الجبن يزري بأهله دائما، والنفاق يركس في الدنية كل حين، يسترونه بالدعاوى العريضة والأيمان المغلظة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ التوبة 56-57.

إن الولاء لغير الله ولو مَوَّه أصحابه عليه بادعاء الإيمان وأخوة أهل الإسلام كما بينته هذه الآية الكريمة ردة واضحة وكفر صراح مهما جادلوا، وما النص فيها على إحباط العمل وخسران الآخرة إلا زيادة تأكيد لهذا الكفر وتخويف منه، لذلك عقب الحق سبحانه على ذلك مباشرة بتحذير المؤمنين من الردة عن الدين، سواء كانت ردة نفاق أو ردة كفر معلن صريح فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ والارتداد معناه الرجوع من غير هداية ولا إرشاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾محمد 25. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ البقرة 217. وهو في هذا السياق القرآني معناه الخروج عن الدين، لأنه انصراف عن الحق بعد الهدى، ورجوع إلى الكفر بعد الإيمان، بما في ذلك من إنكار للوحدانية والرسالة، أو إنكار للكتاب والسنة، أو إنكار للمعلوم من الدين، أو ولاء ظاهر وخفي للعدو، محبة له وركونا إليه، أو نصرا له واستنصارا به، ولذلك ورد التحذير في هذه الآية من الردة عقب آية تحريم الولاء لغير الله، لأنه في جوهره ردة أو ذريعة إلى ردة.

وحرف الشرط﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى:﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ جوابه قوله عز وجل بعدها﴿فسوْفَ يأتي الله بِقَوْم غَيْرهم﴾. أما قوله تعالى:﴿يَرْتَدَّ﴾ فقرأها نافع وابن عامر بِدالَيْنِ:﴿يَرْتَدِدْ﴾. أي من يتراجع منكم عن الإيمان وينسلخ من الدين ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بقومٍ غيركم يتميزون بصفات لم تتَّسِع قلوبكم لها ولم يَرْقَ إيمانكم رُقيَّها، عُصبةٍ مختارة مُدَّخَرةٍ في علم الله تعالى لدينه، أخلصوا ولاءهم له وحده ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ يرضى أعمالهم فيصطفيهم لدينه ويلهمهم الطاعة ويثيبهم عليها ﴿وَيُحِبُّونَه﴾ محبتهم لله تعالى مِلاكها وقِوامُها أنهم متبعون سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى:﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾آل عمران 31، محبتهم لله تحملهم على إيثار طاعته ورعاية حقوقه، وترك حظوظ أنفسهم ما لم توافق أمره ونهيه، وهم بذلك في كنف الله وحفظه وهدايته وتوفيقه، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه).

وثلاث صفات أخرى لهم مع محبتهم لله منبعثات من صدق ولائهم أولهن:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليِّني الجانب للمؤمنين، رحماء لهم، عضويتهم في مجتمعهم تواضع وتعاون وصفاء ومودة وسلم، يجمعون ولا يفرقون، يبنون ولا يهدمون، يؤلفون ولا ينفرون، ينشرون في محتمعهم السماحة والتعافي، ذلتهم للمؤمنين من غير مهانة ولا وضاعة، وإنما رفق وإيثار ومطاوعة، وأخوة ترفع الحرج وتزيل التكلف.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مستعلين بإيمانهم على الكفار، ينظرون إليهم نظرة العزيز المستغني عنهم لَا نظرة الذليل الخانع المحتاج، لَا يتملقونهم أو يتزلفون إليهم أو يترضونهم في غير مرضاة الله.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمجاهدة لغة معناها المغالبة وبذل الجهد، وهي في هذه الآية الكريمة بذل أقصى الطاقة في سبيل كلمة الحق ونصرة الدين، وإعلاء شأنه.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لا يخافون لومة لائم على ما يصدعون به من الحق، وما يبذلونه من جهد في سبيل الله نشرا لعقيدة التوحيد، وتوضيحا لمعالم الإيمان والشريعة، مهما كانت قوة اللائم أو سلطته أو مكانته الاجتماعية والسياسية، أو قدرته على النفع والإضرار.

ويختم الحق سبحانه هذه الصفات الخاصة بأولياء الله الذين يستبدلهم كلما انحرفت طائفة من المسلمين، مذكرا بفضله عليهم وعلى الأمة الإسلامية التي اختارها لدينه واستَدامَها خادمةً له إلى قيام الساعة فقال:﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فمن أدركته عناية الله تعالى اختار أن ينغمر في هذا الفضل ويتخلق بهذه الصفات، ويكون من هذه الفئة المؤمنة التي يحفظ بها الحق سبحانه دينه ويمكن بها لمنهجه ويبسط بها شريعته، وينشر بها رحمته.

ولئن أمرت هذه الآيات الكريمة بالبراء من الكافرين والمشركين والمنافقين والمبتدعين والفساق، وكان هذا البراء يقتضي بُغض من يعادون الله ورسوله والمؤمنين، ويحرم الاستنصار بهم أو إعانتهم على أهل الإسلام، فإن ذلك ملزم شرعا بالتحيز للصف المسلم وموالاته في كل أمر، عاطفة ومحبة وسعيا وحماية ونصرة، ونصحا وتكافلا، قال تعالى:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة 71، لذلك عقب الحق سبحانه على آيات البراء بآيات الولاء فقال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ و"الولي" هو النصير الذي يرجى في المحن، ويرجع إليه عند الشدائد. وقد خصت هذه الآية الكريمة الولاء بالله تعالى ورسوله والمؤمنين وأكدته توكيدا وحصرا بحرف:﴿إِنَّمَا﴾الذي يزيد المعنى قوة ووضوحا.

إلا أن ولاية المؤمن للمؤمنين مقيدة بشرط صلاحهم، وعلامة صلاحهم أن يكونوا من﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ كما في قوله تعالى:﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾التحريم 4، لأن من كان وليهم الله ورسوله كان صالح المؤمنين والملائكة أولياءهم، ينصرونهم ويدافعون عنهم ويشدون أزرهم، هم فئتهم وحزبهم في مواجهة أحزاب الشيطان، كما قال صلى الله عليه وسلم:(إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء) قيل: من هم يا رسول الله؟، قال: (هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا انتساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)، ثم قرأ:﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس 62).

هؤلاء الأولياء المجتمعون لنصرة الدين ونشره سبقت لهم كلمة الله بالنصر والغلبة، وبشرهم بالتمكين ما عملوا لإقامة أمره بين الناس فقال عقب ذلك:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ والحزب لغة هو الجماعة من الناس يكونون على رأي واحد، والمراد به في هذا السياق أنصار الله وجنده، إنهم هم الغالبون المنتصرون أبدا ما صدقت نواياهم وقويت عزيمتهم وتوكلوا على ربهم وحده، تلك سنة الله تعالى في التدافع بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، قال عز وجل:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الصافات 171/173.

وبعد أن بين الوحي الكريم ما ينبغي أن يكون عليه أمر العلاقة مع اليهود والنصارى والمنافقين والمرتدين، ثنَّى بطائفة منهم أخرى هازئة سفيهة فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وتعني هذه الآية بعض أهل الكتاب والمشركين الذين كان منهم من يظهر الإسلام وجه النهار ويرتد آخره، تشكيكا فيه وتشجيعا على الردة عنه، وآخرون بينتهم الآية التالية بعدها كانوا لا يكفون عن الاستهزاء بالشعائر الإسلامية استهانة بقدرها جهلا وسفاهة، وهي قوله تعالى:﴿ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وفيهم جميعا نزل قوله تعالى:﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ آل عمران 72، وقوله:﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ البقرة 14- 15. كل أولئك تحرم موالاتهم، والركون إليهم، ونصرتهم أو الاستنصار بهم، حذارا على الإيمان من أن ينتقض والتقوى من أن تنخرم.

لقد استقصت هذه الآيات الكريمة ملامح اختلال الولاء وخوارمه ومبطلاته، رحمة بالمؤمنين وترشيدا لهم، لأن عقيدة الولاء لله ورسوله وصالحي المؤمنين قطب الرحى في تمام الإيمان والإحسان، وركن ركين في سنن النصر والتمكين، وما يتأخر النصر إلا لخلل في هذه العقيدة، شكّاً فيها، إو إشراكا فيها، أو تهاونا في أمرها، أو ترددا في العمل بها وبناء مناهج المدافعة على أساسها، لذلك توالت التوجيهات القرآنية متناثرة في سور القرآن الكريم بعدد من السياقات، مناطها واحد هو التحذير من اختلال الولاء المؤدي إلى الردة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ آل عمران 149- 150.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ البروج 8

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (60) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (61) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾ سورة المائدة |

عندما يُصِرُّ الساسة المعاصرون والمحللون والسياسيون والمفكرون من ذوي الاتجاهات السائبة أو المغفَّلة أو المغرضة على تبرير تكالب دول العدوان على أمة الإسلام، بالمصالح الاقتصادية أو السياسية أو الاستراتيجية، أو بالغيرة على حقوق الإنسان المُهْدَرَة، فإنما ذلك ليموهوا بمختلف المشاعر الزائفة والشعارات الرنانة على حقيقة أهدافهم، وليُلبِسوا على المسلمين طبيعة المعركة التي تُشَن عليهم وعلى عقيدتهم وأوطانهم كيلا يُستثار ولاؤُهم لدينهم أو تُستفَزَّ عواطفهم الدينية أو تنجلي ملامح المكر بهم أو تنكشف ملامح الحقد الخالص على محض الإيمان وصراحة التوحيد، وما مزاوجةُ غزو بلاد المسلمين في أفغانستان والعراق وغيرهما بأرتال المبشرين، وتبوُّلُ جنودهم على جثث الشهداء إلا عنوان هذا العداء المكين للعقيدة مهما تعددت الشعارات المنتحلة وتباينت المبررات المفتعلة.

إن العقيدة الإسلامية هي مبعثُ هذا الغيظ في قلوب أعداء الأمة ومصدرُ نقمتهم على أهل التوحيد، وما محاولة تغييب دورها في المعركة بأسلوب جديد من أساليب مقاومتها والتعتيم على حقيقتها، وقد بلغ بهم الحنق والكره للمسلمين أن قصفوا في عصرنا هذا الرجال والنساء والأطفال بالأسلحة الفتاكة المحرمة دوليا، كما سبق في عصور خَوالٍ أن أحرقوا الرجال والنساء والأطفال، قال تعالى:﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج4/8، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شكا إليه بعض صحابته ما يلقون من المشركين:( قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ، فيُحْفَرُ له في الأرض، ثم يُؤْتى بالمنشار، فيُجْعَلُ على رأسه؛ فيجْعَلُ فِرْقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون عظمه مِنْ لَحْمٍ وعَصَب، ما يصرفه ذلك عن دينه! والله! لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمرَ، حتى يسير الراكبُ ما بين صنعاءَ وحَضْرَمَوْتَ؛ ما يخاف إلا اللهَ تعالى، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تَعْجَلُونَ[[[61]](#footnote-61)]).

إن معسكرات أعداء التوحيد يعرفون خطورة العقيدة على مصالحهم السلطانية والقبلية والكهنوتية والمالية، ولكنهم يموهون طبيعة عدوانهم على المسلمين بما يفت في عضدهم حينا، أو يميع ولاءهم لدينهم حينا، أو يلجؤون إلى السخرية من عقيدتهم وعباداتهم حينا آخر، فإن باءت بالفشل محاولات الردع والمحاصرة كان السعي للاستئصال وتصفية الأتباع بالقتل والسحل والتحريق. لذلك كان تركيز الوحي في الآيات السابقة من سورة المائدة على حقيقة المعركة بين الإيمان بجميع أممه وأقوامه، وبين الكفر بجميع ملله ونحله، وعلى عنصر الولاء للعقيدة والتصور الإيماني الواضح السليم، وعلى كشف طبيعة أعداء الأمة من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين والمستهزئين، إعدادا نفسيا وتعبئة للصف الإسلامي ورفعا لكفاءته في مواجهة خصوم العقيدة الساعين لاستئصالها.

ولئن كان تمحيض الولاء لله ورسوله أقوى سلاح في المعركة، كما ورد في الآيات الكريمة السابقة فإنه أشد مضاء وأبلغ تأثيرا كلما ازدادت معرفة المؤمن بمبعث عداوة المتربصين به ودوافعها، لذلك عقب الوحي الكريم ببيان ذلك للمسلمين تبصرة وتذكرة فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه للنبي صلى الله عليه وجميع المسلمين في كل عصر، يأمرهم بأن يخاطبوا أهل الكتاب مبينين لهم أمراضهم النفسية والعقدية التي تحول بينهم وبين الإيمان بالرسالة المحمدية وتَحْمِلُهم على كراهية المسلمين، هذه الأمراض يجملها الوحي الكريم في حالتين: أولاهما حسدهم للمسلمين على ما هداهم الله تعالى إليه وما حباهم به من الإيمان بالله وورسوله وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن وما أنزل على الأنبياء قبله، وهو حسد ملأ قلوبهم نقمة وحنقا وكراهية، وذلك بقوله تعالى:﴿ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

ولفظ "النقمة" معناه إنكار الشيء وكراهيته المشوبة بغيظ وحقد، من فعل"نقَم ينقِم، ونقِم ينقِم"، يقال نقم عليه فعله، ونقم منه فعله، أي أنكره عليه وعابه. ومنه قوله تعالى في نقمة المشركين على المؤمنين وإحراقهم في الأخدود:﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج 4-8، وقوله عز وجل في ردة المنافقين:﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ التوبة 74.

إن مبعث نقمة الكفار هو معرفتُهم لحقيقة الرسالة الإسلامية وتصديقها لما نزل قبلها، وسبقُ المسلمين إلى اعتناقها ونشرها والجهاد في سبيلها، ولذلك نبه الحق سبحانه المسلمين إلى ما خصهم به من فضل، وأمرهم بأن يذكِّروا أهل الكتاب بموقفهم المزاجي المعاند الذي يحول بينهم وبين الإيمان، ويقولوا لهم: يا أهل الكتاب إنكم لا يغيظكم إلا أن آثَرَنا اللهُ دونكم بالإيمان بالله بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل من قبله إلى جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وما استهزاؤكم بديننا وسخريتكم بندائنا للصلاة إلا محاولة لستر نقمتكم علينا وتخفيف ما تعانونه من ألم وغيظ لسبقنا إلى الحق واعتناقه والتبشير به.

ثم يعقب الوحي الكريم بالحالة الثانية التي تثير نقمتهم على المسلمين وتحول بينهم وبين الإيمان بقوله عز جل:

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخص الوحي أكثرهم بالفسق فلم يعممه على جميع أهل الكتاب، لأن فيهم من تراوده نفسه بالإيمان والإسلام، ولأن فيهم من كانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ المائدة 82. ومنهم عبد الله بن سلام الذي بشر بالجنة فيما رواه سعد بن أبي وقاص إذ قال: "ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام"، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ الأحقاف 10.

والفسق في هذه الآية معناه الكفر، سواء كان كفرا صريحا أو كفر نفاق، لأنه غشاوة على السمع والبصر تحجب الرؤية السليمة والسمع السليم فلا يميز صاحبه الحق ولا يهتدي إليه، وقد حكم الوحي على هذه الفئات بالكفر والفسق لأنهم كانوا أولا فاسقين بالمعنى الشامل للفسوق عقيدة وسلوكا، وكانوا ثانيا فاسقين لإيمانهم ببعض الرسل وكفرهم ببعضهم، وقد ورد عن ابن عباس أنه قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نفرٌ من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: (أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: "لا نؤمن بمن آمن به"، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾. وهو ما يعني أن لنقمتهم على المسلمين سببين هما الكفر والفسق:

أما كفرهم فقد كان عن استكبار وعزة بالإثم، لأنهم عرفوا الحق ولم يدينوا به حسدا وبغيا ونقمة على أهله. وأما فسقهم فلخروجهم من طاعة الله عز وجل، إذ لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وردت البشارة به والأمر بطاعته ونصرته في التوراة والإنجيل.

إلا أن مطلق الفسق عموما يقع على من خرج من الطاعة بكفر، وعلى من خرج بعصيان غير مكفِّر، وقد ورد في غالب آيات القرآن الكريم بمعنى الكفر كما في هذه الآية الكريمة، وورد بمعنى الخروج بعصيان دون كفر كما في قوله تعالى:﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة 282. وهو حال مرتكبي بعض البدع من المسلمين، أو مرتكبي كبائر الذنوب، ولا يخرج ذلك من الملة، لأن الإيمان قد يجتمع مع هذا الفسق، وصاحبه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وأمره إلى الله تعالى، إن شاء غفر له برحمته، وإن شاء عذبه بعدله، ومآله إلى الجنة فيما بعد. لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من إطلاق صفة الفسق أو الكفر على أحد من المسلمين دون بينة أو إقامة حجة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك).

لا شك أن الكفر شر في الدنيا الآخرة، ولكن أشده شرا ما باء أهله بلعنة الله وغضبه وسبق لهم به العذاب في الدنيا مع ما يدخر لهم منه في الآخرة، وهم بذلك أشد الناس عداوة للإسلام وشراسة في محاربته والمكر بأهله، ولذلك حرص الوحي على أن يعرِّف المؤمنين بطبيعة معركتهم العقدية وحقيقة أعدائهم، عقب حضهم على إخلاص ولائهم لله ورسوله والأمة الإسلامية كي تتم المفاصلة الشعورية بين المعسكرين، وتتضح معالم الدين في النفس والأسرة والمجتمع والمعاملات العامة وحركية نشر الدعوة والنضال في سبيلها، بقوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: يا معشر المستهزئين بديننا وصلاتنا وأذاننا هل أخبركم بأشد أعمالكم عقوبة عند الله تعالى؟ وعبر عن العقوبة بلفظ المثوبة المختصة بالإحسان على سبيل الاستعارة للتهكم عليهم، مثل قوله تعالى:﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾آلِ عِمْرَانَ 21، وبصيغة الاستفهام كي يشد انتباههم إلى موضع الجواب الذي ورد مباشرة بعد هذا الاستفهام بقوله تعالى:

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: إن الأشد شرا وعقوبة هو عَمَلُ من لعنهم الله تعالى في الكتاب والسنة، وكان بعض هذا اللعن مطلقا كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ الأحزاب64، وبعضه مقيدا بأعمال مخزية لبني إسرائيل، كقتلهم الأنبياء والافتراء عليهم وعدم تناهيهم عن المنكر كما في قوله عز وجل:﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾78/79.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وكل من غضب الله عليه فقد لعنه، لأن الغضب الإلهي يلزم اللعنة وتلزمه، واللعنة منتهى المؤاخذة لمن استحق غضبه تعالى.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ وهم أصحاب السبت من اليهود الذين ورد ذكرهم أيضا في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ البقرة 65.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي ومَنْ عبد الطاغوت، بحذف الاسم الموصول "مَنْ"، والطاغوت ما عُبِد مع الله تعالى أو دونه، من شجر أو حجر أو هوى أو منهج وسلطان غير منهج الله وسلطانه، والعبادة لا تعني السجود أو الركوع فقط، بل تعني أيضا الاتباع والطاعة بما يخرج صاحبها من طاعة الله إلى معصيته، لأن من أطاع أحدا في معصية فقد عبده فيها.

ثم تأكيدا لهذه العقوبات المقررة وتكريسا لها يشير الوحي إلى أصحابها بازدراء مبَيِّناً شرَّ مكانٍ أُعِدَّ لهم يوم القيامة فقال تعالى:﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ وشر مكان في الآخرة هو الدرك الأسفل من النار ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وأبعد عن الهداية إلى الحق في الدنيا ، وعن طريق الجنة في الآخرة. عقوبتهم العاجلة في الدنيا غضب ولعنة من الله تعالى ومسخ وخذلان وترك لهم فيما اختاروه لأنفسهم من عبادة الطاغوت، ثم في الآخرة شر مثوبتهم إخلاد في الدرك الأسفل من النار.

لا شك أن هذه الصفات كلها منطبقة على اليهود، وكانوا أشد الكفار عداوة للإسلام ومكرا بأهله، ولذلك مضى السياق القرآني في كشف ما يكنونه لدعوة الإسلام وأهلها من غدر وخيانة، وما يتميزون به من رذائل أخلاق وسلوك، مستهلا بزيف ولائهم المعلن وأصيل نفاقهم المُضْمَر وضراوة عداوتهم الكامنة، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، هذا حالهم في الكفر لا يتغير أبدا، إلا أنهم كلما جاؤوا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلنوا الإيمان نفاقا وتقية، وقد كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتوحا للمسلمين وغيرهم من المنافقين وأهل الكتاب يغشونه لسماع القرآن وتعاليم الإسلام، فيهتدي بعضهم ويرجعون عن ضلالتهم، إلا أن آخرين منهم كانوا يدخلون المجلس مصرين على الكفر بقصد سيئ ونية فاسدة، مظهرين الإيمان نفاقا وتلصُّصا وتسقُّطا لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحوال المسلمين، وفيهم نزلت هذه الكريمة تخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يكتمون من الكفر، وأنهم يدخلون مجلسه كفارا ويغادرونه كفارا مصرين على الكيد والمكر، مستكبرين ينهون عن الإيمان ويصدون عن سبيله.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أعلم بما كانوا يضمرونه عند دخولهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسد له وحقد عليه، وتوسل بالنفاق والخداع للتجسس والمكر وتسقط الأخبار وتأويلها وليِّ أعناقها وإشاعة البلبلة بها في الصف المسلم ولدى الأباعد في القبائل والبطون، كما تقدم في تفسير قوله تعالى:﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ المائدة 41، وكما ورد في آيات أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ آل عمران 72، وقوله عز وجل:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد 16، وقوله تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ الأنعام 25.

ثم بعد أن كشف الوحي الكريم ما يضمرونه من كفر ونفاق ودناءة نفوس، انتقل إلى انعكاس فساد عقيدتهم على سلوكهم وأخلاقهم الاجتماعية بقوله تعالى:

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك أنه ما ظهر في سلوك المرء من انحراف إلا كان انعكاسا لخلل في عقيدته أو فساد في تصوره الإيماني مهما دقَّ أو جلَّ. وما دام هؤلاء المنافقون واليهود الذين اتخذوا دين الله هزؤا ولعبا وبلغوا في الكفر منتهاه فما كان منتظرا منهم إلا أن يسارعوا في كل إثم ويرتكبوا كل عدوان ويستطيبوا كل سحت، والإثم هو ما يضر مرتكبه أو قائله في الدنيا والآخرة، والعدوان هو الظلم والاعتداء على الحقوق والحدود، والسحت كل كسب محرم غشا ونصبا وخداعا وربا وغصبا، وقد وصف الحق سبحانه ارتكابهم لذلك بالمسارعة فيه، ولم يقل يسارعون إليه، لأن المسارعة إلى الشيء هي السعي إليه من خارجه بسرعة، أما المسارعة فيه فتكون من داخله وذلك يدل على أنهم غارقون مغمورون في مستنقع الإثم والعدوان وأكل السحت كأنهم جزء منه، يرتعون فيه من شر حال إلى حالٍ شرٍّ منه، ويسعون داخله بخطى سريعة حثيثة لتكريسه وتعميمه واستثماره، كأَنْ لم ينزل عليهم كتاب وليس لديهم ناصح أو مرشد، ولذلك عقب الوحي الكريم بتوبيخ علمائهم وتقريعهم على تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأسلوب يعم علماء المسلمين في كل عصر فقال تعالى:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وحرف "لولا" لغةً يفيد التحضيض بمعنى"هلاَّ"، إلا أنه في هذا السياق يفيد التوبيخ، أي: حبذا لو كان عبَّاد بني إسرائيل ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾، وعلماؤهم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ ينهونهم عن الإثم وأكل الحرام مالا ومطعما، ولكنهم كتموا العلم فلم يأمروا عامتهم بمعروف ولم ينهوهم عن منكر. وهم بذلك أشد سوءا من العامة:﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: إن ما يقوم به علماؤهم من كتمان للعلم وترك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد فسادا من فساد العامة، لقيام الحجة عليهم إذ عرفوا الحق فلم يعملوا به، وحُمِّلوا واجب الدعوة إليه فلم يقوموا به، ورأوا الباطل فسكتوا عنه ولم ينكروه، ولذلك قال فيهم الحق سبحانه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾، ولم يقل عنهم ما قال عن العامة في الآية السابقة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لأن العمل مجرد ممارسة وتنفيذ، أما الصنع فهو بناء وإنشاء، ولا يسمى العمل صناعة إلا إذا صار حرفة مستقرة راسخة يقتدى بها، وهو ما كان علماء بني إسرائيل يرتكبونه من متاجرة بالفتاوى الدينية وتحريف للأحكام الشرعية كما ذكر ذلك الحق سبحانه بقوله في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ آل عمران187.

ولئن كانت هذه الآية الكريمة أشد تقريعا لعلماء بني إسرائيل فإنها أيضا بعمومها وإطلاقها حجة على علماء المسلمين إذا قصروا في تبليغ أحكام الدين أو تركوا الصدع بالحق والأمر بالمعروف، والنهي عن الفساد والبغي والطغيان، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:" ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية".

إن استمراء معايشة الكفر والإثم والعدوان وأكل السحت لا يقف بأهله عند هذا الحد بل يهوي بهم في دركات فساد الفطرة وانفلاتها إلى حضيض من الوقاحة والتشوه والمسخ، يجرئهم على خالقهم فيصفونه عدوانا بما ليس من صفاته، وذلك ما أخبر به الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين محذرا من عاقبة فساد التصور الإيماني بقوله عز وجل عقب ذلك:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ الذين يدعون أنهم أتباع موسى عليه السلام[[[62]](#footnote-62)] ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ منقبضة محبوسة عن الإنفاق، وغَلُّ اليد وبَسْطُها يطلق مجازا على البخل والجود، ومنه قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ الإسراء 29، وصفوا الحق سبحانه في هذه الآية بالبخل، كما وصفوه في آية أخرى بالفقر فقالوا:﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ آل عمران 181، - تعالى عن ذلك علوا كبيرا-، وما كان يحملهم على ما قالوا إلا السخرية من فقراء المسلمين وقد رأوهم على فقرهم أقوى إيمانا وأشد إقبالا على الجهاد، وسمعوا تحريض القرآن الكريم على الإنفاق في سبيل الله بقوله تعالى:﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة 245.

وما دام الإناء يرشح بما فيه، والعدل أن يكون الجزاء من جنس العمل، فقد عقَّب الحق سبحانه بذكر ما جبلوا عليه من فساد طوية وسلوك جرأهم على ربهم وجعلهم يرمونه تعالى بما يستحيل في حقه، ويصفونه بما هو من صميم صفاتهم وأخلاقهم فقال عز وجل:

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعا عليهم تعالى بأن تُغَلَّ أيديهم عن كل خير ومعروف على مدى مسيرتهم، وأن يسقطوا بيد أعدائهم يأسرونهم ويَغُلّونهم كما وقع لهم في سبي آشور وبابل، ثم حض على لعنهم والدعاء عليهم ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ طردوا من رحمة الله وأبعدوا عنها بسبب ما ارتكبوه من وقاحة وظلم وعدوان على ربهم.

ثم فند الحق سبحانه زيف دعواهم وبين ما يتجاهلونه من صفات ربهم وأبطل ما يفترونه عليه بقوله تعالى:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بل هو عز وجل غني كريم، يداه مبسوطتان غير مقبوضتين أو مغلولتين ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الرعد 26، وعطاؤه عز وجل ومنعه على حسب ما تقتضيه حكمته، لا على ما يفضِّله الناس ويريدونه.

إن وقاحة بني إسرائيل وجراءتهم على الله تعالى، وغيظهم وحسدهم للمسلمين لم يترك لهم سبيلا إلى التوبة والتعقل وسماع الحق، كلما نُصِحوا اعتزوا بآثامهم، وكلما ذكروا بآيات الله غَلَتْ مراجل أحقادهم، ولذلك أخبر الحق سبحانه بحالهم وعاقبة أمرهم وما سيحل بهم إذ لجوا في الطغيان والنفور والعناد بعد أن دعوا إلى الإيمان فقال تعالى:

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وهذا الخبر عنهم وعن أمثالهم في هذه الآية الكريمة مؤكدا بالواو واللام ونون التوكيد، لم يتخلف أبدا منذ عرفت دعوة الله مسيرتها في الأرض، من عهد نوح إذ قال عن قومه:﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ نوح 7، إلى عصرنا الحالي وقد استأسد فيه ورثتهم وتلامذتهم من عصابات العلمانية ودعاة الانحلال والفساد ممن مردوا على السخرية من القرآن الكريم وتعاليمه وقيمه والعاملين به.

إن الله تعالى إذ خلق الاجتماع البشري جعل لأمنه سننا يختل بانتقاضها، ولنظامه منهجا لا يستقيم إلا به، وبنو إسرائيل قد عصوا ربهم، وأخلوا بسنن الحياة وتمردوا على منهج الله القويم، فكان لزاما أن يجنوا ثمار إخلالهم بالسنن الكونية والمنهج الرباني، وأول هذه النتائج في الدنيا الفرقة والاحتراب كما قال تعالى عنهم:

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بمخالفتهم سنن الله ونبذهم منهجه﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وذلك ما أصابهم في تاريخهم الطويل إذ اختلفوا وبدلوا ما أنزل عليهم فتمزقوا وسلط عليهم بختنصر والرومان والمسلمون والمسيحيون.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما راموا التوسل إلى أهدافهم والخروج من محنهم بإشعال الحروب لم ينالوا بغيتهم وعادت عاقبة ذلك عليهم تقتيلا فيهم وتشريدا لهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ حالهم في الأرض نوايا وأعمالا أن يسعوا فيها بالفساد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لذلك يبغضهم الله تعالى ولا يصلح عملهم ولا ينصرهم ولا ينيلهم مبتغاهم. وما أصابهم ويصيبهم في مسيرتهم الطويلة على الأرض ليس إلا ثمرة يجنيها كل من ناهض منهج الخالق الذي يسير عليه الكون كله في انسجام وتكامل وانتظام وطاعة، منهجه الذي ليس له من بديل إلا الشقاء والخراب والفساد، لذلك نبههم الوحي الكريم إلى فداحة خسارتهم إذ نبذوا هذا المنهج ولم يعملوا بما نزل عليهم من التوراة والإنجيل والقرآن، يصدق اللاحق منها السابق، فقال عز جل مذكرا بواسع رحمته ومغفرته للتائبين:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به، وبالرسول الذي ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ البقرة 146، وقد بشروا في التوراة والإنجيل باسمه وصفاته، محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ وخافوا عاقبة الكفر والشرك فجعلوا بينهم وبين غضب الله وقاية من طاعة وعمل صالح ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لمحونا سيئاتهم ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يتنعمون في الجنان كلٌّ حسب عمله وما وسعه من رحمة ربه.

ثم أعاد الحق سبحانه هذا الوعد تأكيدا وشرحا زائدا فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أقروا بما فيهما فلم يغيروهما ولم يبدلوهما ولم يكتموا ما أخبرا به من بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمر بالإيمان به واتباعه ونصرته ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لرزقهم الله تعالى من بركاته وخيراته أنى توجهوا وقدرما احتاجوا من السماء وقد سخرت لهم ومن الأرض وقد ذللت لهم، وفي الجنة وقد فتحت لهم.

إلا أن من أقبل منهم على الإسلام بصدق في العهد النبوي كان فئة قليلة ضمن كثرة كافرة فاسدة النوايا والأعمال﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أمة مقتصدة أي: فيهم جماعة قليلة عادلة في أحكامها ومواقفها من دعوة الإسلام، بجانب كثرة منهم فاسدة النوايا والأعمال، إشارة منه تعالى إلى من آمن منهم بموسى وعيسى عليهما السلام، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه من القرآن، وكان منهم في العهد النبوي عبد الله بن سلام وأصحابه، وأربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم، ويدخل فيهم أيضا كل من يلتحق من أهل الكتاب بالأمة الإسلامية صادق الإيمان إلى يوم القيامة. وقد منَّ الله تعالى على هذه الفئة بميزتين أولهما تعجيل الثواب لقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران 199، وثانيتهما مضاعفة الأجر لقوله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ القصص 52-53، وقوله صلى الله عليه وسلم: (أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فله أجران) وقوله: (ورجل آمن بالكتاب الأول ثم جاء الكتاب الآخر فآمن به فذلك يؤتى أجره مرتين).

لقد ربط الحق سبحانه في هذه الآيات الكريمة كل عمل بما يناسبه من الجزاء، إن شرا فعقوبة وإن خيرا فمثوبة، وجعل بذلك اللعنة والتخليد في النار للمصرين على الكفر من أهل الكتاب، ومضاعفة الأجر وتعجيله لمن آمن منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم ختم بوعد صادق مؤكد لكل من آمن واتقى بقوله:﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وقوله ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ والوعد منه تعالى لا يتخلف، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ التوبة 111 ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ الزمر 20. بذلك كان منهج الله مدعاة لسعادة الدنيا والآخرة، وكان نبذه أو الإخلال به مجلبة للشر والشقاء في العاجل والآجل، فلينظر كل امرئ وكل مجتمع وكل نظام سياسي مدى قربه أو بعده منه، وليقارن ذلك بما عليه أمره في الدنيا، وما ينتظره في الآخرة.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ الأحزاب 39

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (69) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71)﴾ سورة المائدة |

الحق واحد لا يتجزأ أبدا، إما أن يُلتزَم كلُّه أو يُترَك كلُّه، وكل محاولة لانتقاصه تعد تحريفا له أو محاولة لإلغائه، كذلك العقيدة الإسلامية وهي الحق من الله تعالى، كل خلل فيها بالشرك ونحوه يخرج صاحبه من دائرة الإسلام إلى أن يراجع، إذ لا وسط بين الإيمان والكفر، ولا مجال لأن يتخذ المرء بينهما سبيلا، والمرجع في ذلك هو القرآن الكريم، لا يُتخيَّر منه فيؤخذ بعضه ويُترَك بعضه:﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ البقرة 85.

ولئن كان الحق واحدا لا يقبل التعدد، ومصدره واحدا لا يقبل الشريك، وإلزامية الأخذ به متكاملة لا تقبل الزيادة والنقص والانتقاء المغرض، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون مُبلِّغ هذا الحق واحدا هو الرسول صلى الله عليه وسلم لا يؤخذ من غيره، وأن يكون صادقا وأمينا ومعصوما، يبلغه كما أوحي به إليه من غير تغيير أو تحريف أو زيادة أو خطأ أو نسيان، وأن يكون شجاعا لا يخشى أحدا إلا الله، يبلغه غير هياب ولا خائف ولا وجل ولا متردد، ويصدع به كلمةَ حق لا تجامل الأهواء، ولا تساير الرغبات ولا تقيم وزنا للخصوم والأعداء، يجهر به غير حافل بأي خطر يتهدده ما دام مطيعا لأمر الله، ولْيفعلِ الكفار والمشركون والحاقدون والحاسدون والرافضون والكارهون بعد ذلك ما يشاؤون، لأن الأمر كله من الله ولله أولا وأخيرا. ليس له إلا أن يمتثل ويبلغ، كي تتضح المحجة وتبرأ الذمة، ولا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة.

كان هذا شأن جميع الرسل عليهم السلام، وكذلك كان تبليغهم رسالات ربهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الأحزاب 39، وإنما يدخل الخلل إلى عقيدة الناس عادة عن طريق ورثة الرسالة من الأحبار والرهبان والعلماء، إذا ما استسلموا لأهوائهم أو خضعوا لطواغيتهم، لذلك حرص الوحي على أن يؤدب الرسول صلى الله عليه وسلم بما أدب به غيره من الرسل، وأن يحضه على التبليغ الدقيق للرسالة نصا قرآنيا وبناء تربويا وأسوة سلوكية، وكان الخطاب له أيضا خطابا ملزما لورثته من العلماء، كيلا يرتكبوا ما ارتكبه أحبار بني إسرائيل ورهبان النصارى مما قصه تعالى من أخبارهم فيما سبق من آيات سورة المائدة وذكر فيها اجتراءهم عليه، وتبديلهم كتابه وتوثبهم على أنبيائه، وعدم تورعهم عن خبيث الأموال والمطاعم، وإعراضهم عن إقامة ما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل إلى قوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة 66، ثم اتجه الوحي الكريم مخاطبا رسول صلى الله عليه وسلم يحضه على تبليغ رسالة الإسلام والمداومة على أدائها والصمود في وجه أعدائها ومثبطي الهمم عن تقبلها فقال :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وتصدير هذا الخطاب بحرف النداء يراد به إثارة الاهتمام وشد العقول والنفوس والإرادة إليه، كما أن قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ﴾ يعني الأمر الحاسم الجازم بوجوب أداءِ الرسالة إلى من أرسِلت إليهم كاملة مستوفاة، وتربيتِهم عليها بالقول والعمل والقدوة. لذلك كانت هذه الآية من أشد ما سمعه أهل الكتاب وهم في حالة من الاعتزاز بباطلهم والاستعلاء بفاسد عقيدتهم، والعدوانية الناتجة عما يشعرون به من الإحباط عقب فتح مكة والتمكين للإسلام في أرجاء الجزيرة كلها، ولعل ذلك مما خشي معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ردود فعلهم الشريرة، فأُمِر بالتبليغ الحاسم غير هياب ولا متردد أو عابئ بما يكيدون ويمكرون.

إن التبليغ كان مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ ابتعث، فقد أُمِر به في أول الفترة المكية بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر 1-2، إلا أنه في الفترة المدنية وقد نصره الله تعالى في مواطن كثيرة، وخصومه من أهل الكتاب والمشركين يلعقون جراحهم ويتنمَّرون وتغلي صدورهم بالحقد والضغينة، كان يستشعر وقع ما كلف بتبليغه على نفوسهم من وحي يكشف خواء ما هم عليه، ويحذَر ردود فعل منهم للانتقام طائشة، لا سيما والمجتمع الإسلامي الجديد يفاصل أهل الجاهلية مفاصلته الحاسمة، وقد كانت هذه الآية وما بعدها من أقوى ما خوطب به أهل الكتاب، وكان الأمر بالتبليغ فيها والتثبيت عليه والحض على مواصلته من أشد ما كلف به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما فحوى الرسالة التي يجب تبليغها مستوفاة كاملة فقد تضمنها القرآن الكريم، والسنة النبوية قولا صحيحا وتطبيقا دقيقا وأسوة حسنة منه صلى الله عليه وسلم، وكان تبليغه صلى الله عليه وسلم للناس إما مباشرا لمن رآه وسمعه، أو بإرسال بعض صحابته إلى القبائل، أو ببعث الرسائل إلى ملوك الأرض كالمقوقس وكسرى وقيصر، كما أن في ورود هذا الأمر عقب تنديد الآيات السابقة بعلماء أهل الكتاب إشارة واضحة إلى واجب علماء المسلمين بصفتهم ورثة علم النبوة وأمناء دعوتها.   
ولئن كان صلى الله عليه وسلم معصوما عن الهوى والتحريف وخطإ التبليغ عمدا أو سهوا كما قال عنه تعالى:﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم 2- 4، فمن البديهي الذي يقتضيه فحوى الخطاب أن في الآية إشارة إلى ما يجب على علماء الأمة من أمانة التبليغ ودقته، يؤكد ذلك ورود هذه الآية مباشرة عقب ذكر ما عليه علماء أهل الكتاب من إعراضٍ عن إقامة التوراة والإنجيل وتحريفٍ لتعاليمهما. وكذلك الأمر في كل آية جاءت بمثل هذا المعنى ومثلِ هذا السياق كما في قوله تعالى:﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الحاقة 44-48، إذ الأنبياء كلهم معصومون عن التقول على الله، وورثتهم من العلماء غير معصومين والتهديد في الآية موجه بفحوى الخطاب إليهم.

إن البلاغ الحق كما أمرت به الآية الكريمة، وكما فعله جبريل عليه السلام إذ بلغ الرسالة كاملة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقلها إلى الناس كما تلقاها، ورباهم عليها وتعبدهم بها ولم يعبأ بمكر اليهود ولا بكيد المنافقين والمشركين ولا بتردد ضعاف النفوس، يقتضي من علماء الأمة أيضا أن يبلغوها كما تلقوها من غير تحريف، تبليغا متكاملا مجردا عن أهواء الرهبة والرغبة، وبما يحقق المقصد الشرعي من نزولها، قال صلى الله عليه وسلم: (نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه)، فإن بلغوها ناقصة أو محرفة أو مشوبة بأي نحلة غريبة عنها مسايرة لها أو خاضعة لها أو في خدمتها، ديمقراطية كانت هذه النحلة أو اشتراكية أو قومية أو عرقية أو ليبرالية فقد زيفوها ولم يبلغوها، وكانت شهادتهم عليها زورا وبهتانا.

إن البلاغ الحق لرسالة الإسلام وإن اقتضى أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة كما ورد في قوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل 125 ، فإنه كذلك لا بد أن يميز أهله عن غيرهم في العقيدة والشعور والتصرف تميزا يظهر أثره ولاءً لله ولرسوله والمؤمنين لا تنفصم عراه، وتمسكا بالحق تصورا وسلوكا وتبليغا لا يقبل المداهنة وأنصاف الحلول لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 42

ولئن جاءت الرسالة لتغيير حياة الناس بما تقتضيه عبوديتهم لله تعالى فإن تبليغها مروَّضةً بأهوائهم أو مداهِنةً لمناهجهم الأرضية في السياسة والاجتماع والاقتصاد، أو ملبيةً لأهدافهم ومقاصدهم في الجاه والسلطة والمتع الوضيعة لا يعد أداء لها بقدر ما هو تحريف لها وكذب على مبلغها صلى الله عليه وسلم، ولذلك عقب الحق سبحانه على هذا التحذير بقوله:

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقد ورد لفظ ﴿رِسَالَتَهُ﴾ في قراءة نافع وأبي بكر ويعقوب وأهل الشام بالجمع:﴿رِسَالاتِه﴾ على أن رسالة الإسلام أحكام كثيرة وأن القرآن نزل منجما، وكل آية منه رسالة، فحسن لفظ الجمع. كما ورد لدى الباقين بالإفراد ﴿رِسالَتَهُ﴾ على أن الدين شرع واحد وكتاب واحد. والمعنى أنك إن تركت تبليغ بعض الرسالة أو غيرت بعضها فإنك لم تبلغ شيئا، لأن تارك البعض بالحذف أو التغيير عمدا أو سهوا بمنزلة تارك الكل، كما أن من جحد آية من كتاب الله تعالى صار جاحداً للجميع، ولا شك أن في الآية شدة على الرسول صلى الله عليه وسلم وتحذيرا من التقصير في التبليغ، كما لا شك أن مهمة التبليغ شاقة وعسيرة لأن مجابهة الكافرين والجاهلين والحانقين على الدين الحق عقيدة وتصورا ومنهج حياة تستفزهم وتستثير عدوانيتهم، إلا أن الصبر على ذلك من صفات أولي العزم من الرسل، وبذلك استحق محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم مرتبة الخاتمية والسيادة والدرجة الرفيعة، ولذلك أُمر في آية أخرى بقوله تعالى:﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأحقاف 35.

وقد روي عن جندب بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، فإن كنتم تعلمون أني قد قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي فأخبروني حتى أبلغ رسالات ربي كما ينبغي لها أن تبلغ)، فقام الناس فقالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حَدّثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من الوحي فقد كذب. ثم قرأت ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

ثم عقب الحق تعالى بما يدل على أنه حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحميه في جميع مراحل دعوته، فلم يكتم شيئا ولم يستطع أعداؤه منعه من التبليغ، فقال عز وجل:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ولفظ: ﴿ يَعْصِمُكَ﴾ مأخوذ من عِصام القربة، وهو رباطها الذي تُوكَأُ به فيمنع سيلان الماء منها، وقوله تعالى﴿ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يحميك عند التبليغ ويدفع عنك مكر الناس جميعا، كيدَهم وتآمرَهم وعدوانَهم ومحاولاتِهم صرفَك عن رسالتك، وما جبلوا عليه من الأهواء المؤدية للتغيير والتبديل والتحريف. لذلك لم يثنه عليه الصلاة والسلام عن تبليغ رسالته ما أصابه في مواطن كثيرة، كما في الطائف إذ رموه بالحجارة حتى دميت قدماه، أو يوم أحد إذ شج وسقطت رباعيته، ولم يفلح أحد في قتله أو في إغرائه بالمال والجاه، أو في استدراجه للفتنة والمداهنة.

ولئن وردت في الآثار أسباب كثيرة لنزول هذه الآية، منها أنها نزلت في فضل علي رضي الله عنه، إذ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده لما نزلت وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: "هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة"، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي، ومنها ما رواه أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: (انصرفوا فقد عصمني الله من الناس)، ومنها أنها نزلت في الجهاد لأن المنافقين كانوا يكرهونه فكان صلى الله عليه وسلم يمسك أحيانا عن حثِّهم عليه، ومنها أنها نزلت في ما كان يفعله اليهود من استهزاء بالدعوة الإسلامية والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ساكت عنهم، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية التخيير وهي قوله تعالى:﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ...﴾ الْأَحْزَابِ 28، فلم يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا، فنزلت. إلا أن هذه الروايات على كثرتها تجعل معنى الآية منقطعا وبعيدا عما قبلها وما بعدها، لا سيما والسياق القبلي والبعدي لها كله حديث عما يكنه أهل الكتاب من نقمة وحقد على المسلمين وما يبيتونه للإسلام من مكر وكيد ومحاولة طمس وتحريف، وما يقومون به في دينهم من كذب على الله وتغيير لكتابيه التوراة والإنجيل، ولذلك عقب تعالى على تصرفاتهم بقوله:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى سبيل لقتله أو إعاقته عن تبليغه، كما لا يهديهم إن ماتوا على الكفر إلى طريق الجنة، وفي الآية إشارة أخرى للنبي صلى الله عليه بأن ليس عليه إلا التبليغ، وأن الهداية من أمر الله تعالى، وهو ما قاله له أيضا في سياق آخر:﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة272، وَقَالَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾الرَّعْدِ 40.

لقد نزلت هذه الآية الكريمة وقد دانت لرسول صلى الله عليه وسلم جزيرة العرب، ورُفع لواؤه فيها ولم يبق مستعصيا عليه إلا فئة من أهل الكتاب كانوا يستعلون على غيرهم بدعوى أن لديهم علما من السماء وأنهم أتباع أنبياء وأصحاب كتاب كما قال تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ البقرة 89، ولذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغهم حقيقة أمرهم وسفاهة ما هم عليه، وتفاهة استعلائهم بالباطل، وأنهم لا يرتفعون عن مستوى غيرهم من المشركين والوثنيين إلا إذا أقاموا في أنفسهم ومجتمعهم منهج الإسلام الحق كما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن فقال عز وجل:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين امتدت أيديهم إلى كتبهم بالتغيير والتبديل: لستم على شيء من الدين أو شيء من الحق والصواب والعقل والحكمة ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ والإقامة الحقيقية للإنجيل والتوراة تعني العمل بما فيهما قبل أن يحرفهما الأحبار والرهبان، والإيمان بما بشرا به من نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن، أي وحتى تقيموا القرآن الكريم، الذي صدقهما وأثبت ما فيهما من أركان الاعتقاد والتوحيد ومن بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم اسما صريحا وصفات واضحة، ونسخ ما اقتضت حكمة الله تعالى نسخه من أحكامهما. وفي التعبير عنه بأنه "ما أنزل إليهم من ربهم" دلالة على أنه أنزل أيضا إليهم ولأجلهم وأنهم مخاطبون به، وهو ما يعنيه قوله صلى الله عليه وسلم: (إنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني).

وحيث إن الكفار ليسوا على درجة واحدة من الطغيان والكفر، إذ منهم قلة يكفرون لِمجرد جهلهم بما أوحى به ربهم، ومنهم كثرة كافرة أُشرِبتْ قلوبهم الحقد واللَّدَد والضغينة والكراهية للمؤمنين، فقد أخبر الحق سبحانه عقب ذلك بما يكون عليه حال الفريقين إذ يَجْبَهُهُم الوحي بحقيقة كونهم ليسوا على شيء فقال تعالى عقب ذلك:﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من هذه الفئة الحاقدة المغتاظة ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من آيات تكشف خواء ما هم عليه ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ عزة بالإثم واستعلاء بالباطل وكفرا بالحق بعدما تبين لهم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفعل: "تَأْسَ" مضارع حذف منه حرف العلة لأنه مجزوم بحرف"لا" الناهية، من الأسَى وهو الحزن، والفعل منه: أَسِيَ يَأْسَى أَسىً، أي: فلا تحزن ولا تجزع لمصير هذه الطائفة في النار.

وكما هو أسلوب الوحي الكريم في المقابلة بين الأضداد والمصائر المتعارضة وقد ذكر مصير هذه الفئة الضالة، فقد عرض لمصير أربعة أصناف من التوابين الأوابين للحق في كل عصر ومن كل دين فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ والصنف الأول في هذه الآية هم المنافقون كما في قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ المائدة 41. والصنف الثاني هم اليهود وتسميتهم يهودا كانت لقولهم:﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾الأعراف 156، والصنف الثالث هم الصابئون، من فعل "صبأ" إذا ارتد عن الدين، وهم قوم كانوا قديما قد عدلوا عن ديانة نوح وموسى وعيسى عليهم السلام وعبدوا الملائكة، وحديثا قد يشمل هذا الصنف المرتدين من المسلمين سرا وعلانية، وقد ورد لفظ﴿الصَّابِئُونَ﴾ مرفوعا على أنه مبتدأ خبره محذوف تقديره ( والصابئون كذلك) للتنبيه إلى خطورة حالتهم ردة وشركا. أما الصنف الرابع وهم النصارى فقد سموا بذلك على الأرجح من نصرة الحواريين للمسيح عليه السلام في قوله تعالى:﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران 52.

هذه الأصناف كلها يبشرها الحق تعالى بسلامة المصير إن هم أدركوا رسالة الإسلام وآمنوا بها واستقاموا على أحكامها بقوله عز وجل:

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي كل من تاب من هذه الأصناف الأربعة توبة نصوحا، بأن اتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فآمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من عبادات مفروضة ومعاملات محمودة فلا خوف عليهم من عقاب على ما سبق من ذنوبهم ولا مؤاخذة عليهم فيما فرط من سيئاتهم، لأن الإيمان يجبّ ما قبله من كفر، لكنه الإيمان المقرون بالاستقامة على نهج الإسلام كما في قوله تعالى:﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾هود 112، وقوله عز وجل:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف 13. والإيمان المقرون بالإصلاح والتقوى لقوله تعالى:﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأنعام 48، وقوله عز وجل:﴿ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأعراف35.

وبعد أن فتح الله تعالى باب التوبة والنجاة أمام هذه الأصناف الضالة كلها، عقب بما دأب عليه أكثرهم من إعراض، وضرب المثل بأشدهم عتوا واستخفافا بالحق من بني أسرائيل، وقد أقام عليهم الحجة ومهد لهم من سبل الإيمان ما لم يمهد لغيرهم فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والميثاق هو ما أخذه الله تعالى عليهم من عهد على إخلاصِ التوحيد وعَمَلِ ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه، وقد دأب الوحي الكريم على التذكير به وتأكيده والتحذير من نقضه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، لأنه الوثاق الدائم بين الله عز وجل وبين جميع الأنبياء والرسل، وبينه وبين جميع الأمم، منها قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ..الآية﴾ البقرة 83، وقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ المائدة 12، وقوله عز وجل﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الرعد 19- 20.

ثم ليسهل عليهم القيام بمقتضى هذا الميثاق والعمل به أرسل إليهم الرسل والأنبياء فقال عز وجل:  
﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ويعني لفظ الرسل في هذه الآية الكريمة من جاء إليهم بشرع وكتاب ومن جاء معزِّزا للشرع مبينا له، والرسل الذين أرسلوا إليهم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هم موسى وهارون ومن جاء بعدهما مثل يوشع وأشعيا وأرميا وداوود وسليمان وعيسى عليهم السلام.

وأما معاملتهم للرسل فقد أجملها الحق تعالى عقب ذلك بقاعدة كلية لسلوكهم فيها بقوله:

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف أهواءهم وشهواتهم﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ جماعة من الرسل كذبوهم ورفضوا دعوتهم وكفروا برسالتهم ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وآخرين من الرسل قتلوهم مثل يحيى وزكرياء عليهما السلام، وآخرين منهم مثل عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم حاولوا قتلهم فلم يفلحوا. بل بلغ بهم والغرور والاعتزاز بالإثم أنهم أصبحوا يعتقدون أنْ لا ضير عليهم فيما يفعلون، وأن نبوة أسلافهم تدفع عنهم العقاب، وقالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة 18، وقالوا:﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ آل عمران 24، فأدى بهم التجبر الاغترار بما زُيِّن لهم من الدنيا إلى نسيان سنن الله تعالى في اختبار عباده وفتنتهم، مع ما يستتبعه ذلك من صمم عن سماع الحق وعمىً عن رؤيته، ولذلك عقب تعالى على حالهم هذا بقوله عز وجل:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ظنوا ظنا أقرب إلى اليقين أنهم آمنون من عقوبة جرائمهم فلا تنالهم فتن بسببها، والفتنة في هذا السياق تعني الاختبار بالشدائد والمحن، فكان عاقبة هذا التقديرِ الفاسد منهم والجهلِ بسنن الله تعالى أن سقطوا في الفتنة ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عموا عن رؤية الحق وصموا عن سماع ما أنزل إليهم، وعما يحدثهم به الرسل والأنبياء والناصحون من العلماء ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كما وقع إذ ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه فعبدوا العجل وقال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾البقرة 54.

ثم طال عليهم الأمد واستفحل اغترارهم بأنفسهم أيضا﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ عمي وصم أكثرهم عن الحق وارتكبوا ما ارتكبوا من الآثام فحلت بهم وبدارهم الفتنة، لأن البلاء يصيب الكافة إذا كثر الفساد كما قال تعالى:﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾الأنفال 25، وقال صلى الله عليه وسلم عندما سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث).

وزيادة في التحذير مما ارتكبه بنو إسرائيل وما قد ترتكبه الأمة الإسلامية الوارثة ختم الحق سبحانه هذه التذكرة بقوله:﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يسمع أقوالهم ويبصر أعمالهم ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ 3.

لقد أوجز الحق تعالى في هذه الآيات الكريمة مسيرة بني إسرائيل في التعامل مع الرسالة الإلهية ورسلها وأنبيائها أبلغ إيجاز، وبين فيها بأدق عبارة وأوفاها ما مردوا عليه من النكول عن ميثاقهم مع الله، وعدوان على أوليائه من الأنبياء والدعاة، وفصَّل بأبلغ عبارة ما نالهم من عقاب وعذاب، وذلك ما ينبغي أن يعتبر به أولو النهى في الأمة الإسلامية، وقد لاحت في مجتمع المسلمين حاليا بوادر ما انتهى إليه بنو إسرائيل حين طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما في دينهم وقست قلوبهم فتوالت عليهم ضروب الفتن والمحن، لا سيما والقرآن الكريم في عدد من سوره حذر من ذلك، قال تعالى:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ الأعراف 169، وقال:﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ مريم 59. والرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر أو ذراعا بذراع حتى لوسلكوا جحر ضب لسلكتموه قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟).

التوحيد ونبذ الغلو جوهر دعوة موسى وعيسى عليهما السلام

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)﴾ المائدة |

على النهج القرآني الذي تتساوق فيه التربية العقدية المباشرة بالأحكام العملية وتجارب الأقوام السالفة والمعاصرة في تعاملها مع الإسلام تصديقا وامتثالا أو كفرا وتمردا أو تحايلا ونفاقا، وبعد أن وصف الحق سبحانه حال بني إسرائيل فيما انتهى إليه أمرهم من جحود ونكول عن الحق وقسوة قتلوا بها أنبياء الله تعالى وتآمروا عليهم وتحالفوا مع الظالمين والوثنيين ضدهم، فكان نصيبهم غضب الله تعالى ولعنته وسوء الدار في الدنيا والآخرة، وعلى ما سار عليه الأسلوب القرآني بخطابه المباشر في سورة المائدة بصفتها آخر ما ينزل لإكمال الدين وإتمام النعمة، كي تستقيمَ الأمة الإسلامية على ما أمرت به وتقتدي بمن سبقها من الصالحين أتباع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتعتبرَ بما آل إليه حال العصاة والخائنين والمعتدين، فتحفظَ عهدها مع ربها وتثبتَ على الحق وتتمسكَ بما استُحْفِظت عليه من الكتاب والسنة، وتقيمَ بمنهج الإسلام أمرَ رشد في شأنيها الخاص والعام، اجتماعا واقتصادا وسياسة وعدلا ومساواة وعبودية خالصة لربها، على هذا النحو من التربية والتعليم يواصل الوحي الكريم سعيه لترشيد الأمة المسلمة ودعوتها للاعتبار بحال طائفة من أتباع عيسى عليه السلام انحرفت عن عقيدة التوحيد وتفرقت شيعا ومذاهب ونحلا وذهبت في الكفر مذاهب شتى فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في مستهل هذه الآية الكريمة يبين الحق جل جلاله كفر طائفة من أتباع عيسى بن مريم عليه السلام، وقد فتنوا بما رأوا على يديه من المعجزات التي أخبر بها القرآن بقوله تعالى:﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران 49. هذه هي الصورة الأولى من صور الكفر الذي تصدَّت الآية لبيانه، وقد أكده تعالى بثلاثة مؤكدات هي القسم المقدَّر، واللام، و"قد" للتحقيق بقوله:﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ..﴾ الآية، مثلما أكدوا هم أنفسهم اعتقادهم الفاسد بالجملة الإسمية وحرف "إنَّ" والضمير "هو" الذي استعمل لتأكيد المقولة وحصر ألوهية الله عزّ وجل وربوبيته في المسيح بقولهم:﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-.

وهذه الآية مثل أختها التي سبقتها في أوائل سورة المائدة وهي: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة 17، إلا أن هذه سيقت لبيان قدرة الله ومالكيته للكون وضعف عيسى وأمه ومن في الأرض جميعا وافتقارهم إليه بقوله تعالى في تتمتها﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولفظ "المسيح" يطلق في القرآن الكريم على عيسى بن مريم لكونه كان يمسح على المريض فيشفى بإذن الله، كما يطلق لقب "المسيح الدجال" على عدو من أعداء الله تعالى لكونه ممسوح العين اليمنى، يدعي الألوهية في آخر الزمان، حذر من فتنته الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:( إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال) وبين صفته بقوله: (إن الله لا يخفى عليكم، إن الله تعالى ليس بأعور، وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية)، وميز بينه وبين المسيح عيسى عليه السلام بقوله: (أراني اللّيلةَ عند الكعبةِ، فرأيتُ رجُلاً آدمَ، كأحسنِ ما أنتَ راءٍ من أُدمِ الرِّجالِ، له لِمَّةٌ كأحسنِ ما أنتَ راءٍ من اللِّمَم، قد رجَّلَها فهي تقطُر ماءً، متكئاً على رجُلين أو على عواتق رجلينِ، يطوفُ بالكعبةِ، فسألتُ: من هذا؟ قيل: هذا المسيحُ ابنُ مريمَ، ثمّ إذا أنا برجلٍ جَعدٍ قطَطٍ، أعور العينِ اليمنَى، كأنّها عِنّبةٌ طافية، فسألتُ: من هذا؟ فقيل لي: هذا المسيحُ الدّجالُ).

لقد كان أول خلل دخل عقيدةَ النصارى أن نسبوا الألوهية للمخلوق، وفي ذلك إنكار لوجود الخالق الحق وتبرير لعبادة غيره، لذلك تبرأ عيسى من مقولتهم واعتقادهم بما ذكره تعالى عنه بقوله:﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾فأثبت عليه السلام الألوهية والربوبية لله تعالى وجعل نفسه معهم في مرتبة واحدة من العبودية، ثم بين لهم عاقبة التمرد والشرك والجحود بقوله:

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ لأن الجنة دار للموحدين مختصة بهم ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ لأن النار هي مثوى المشركين ومقام الهالكين.

ثم عقب الحق سبحانه على ما قرره لهم من هذا العذاب بقوله:﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: وليس لهم إذ ظلموا بالشرك وإنكار الألوهية والربوبية ناصر ينصر حجتهم أو شفيع يشفع لهم بين يدي الله تعالى لينقذهم من النار.

لقد مرت العقيدة المسيحية بمرحلتين أولاهما من بعثة المسيح عليه السلام إلى مجمع نيقية المنعقد في 20 مايو 325 م، والثانية من مجمع نيقية إلى ما بعد ذلك، واحتفظت في مرحلتها الأولى لدى المتمسكين بتعاليم الإنجيل قبل تحريفه وضياع أصله بعقيدة التوحيد والإيمان ببشرية عيسى ونبوته، والاعتقاد بأن ما ظهر من شأنه وعلى يده معجزات كمعجزات غيره من الرسل عليهم السلام ، ومن آخر رموز هذه المرحلة "بولس الشمشاطي" في أنطاكية مع أصحابه، وعقيدتهم أن عيسى عبد الله ورسوله وواحد من أنبيائه عليهم السلام، وكذلك "أريوس" المولود في قورينا(ليبيا حاليا)[[[63]](#footnote-63)] الذي آمن بوحدانية الله تعالى، ومخلوقية عيسى، وقاوم في سبيل ذلك كنيسة الإسكندرية فيما كانت تدعو له من الاعتقاد بألوهية المسيح وبنوته لله تعالى، وأنكر ما جاء في الأناجيل من العبارات الموهمة بذلك، إلا أن أخطر حدث كرس عقيدة تأليه المسيح في هذه الفترة كان على يد قسطنطين إمبراطور الرومان في مجمع نيقية، إذ أمر بأن يعقد مجمع ديني يضم ممثلي جميع الكنائس في العالم المسيحي للفصل في أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه، وكان من مقررات هذا المجمع أن اعتمد عقيدة تأليه المسيح وتكفير أريوس وكل من يؤمن ببشرية عيسى، وتحريم قراءة جميع الكتب التي تنكر ألوهيته وتحريقها، وهو ما أدى إلى اضمحلال الاتجاه التوحيدي وتناقص أتباعه وانقراضه تماما في أواخر القرن الخامس الميلادي. ثم بعد ذلك تفرقت السبل بين المسيحيين وذهبوا مذاهب شتى وشيعا متنافرة أشار إليها القرآن الكريم عند تحذيره المسلمين من الاختلاف والفرقة بقوله تعالى:﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران 105.

أما المرحلة الثانية فهي التي تسرب فيها إلى النصرانية شرك الفلسفات الشرقية والديانات القديمة بالبلاد التي اعتنق أهلها المسيحية.

ولئن كانت فرقهم التي نشأت في هذا الاتجاه كثيرة فإن أهمها ثلاث:

أولها الذين يزعمون أن المسيح هو الله، وأن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - ويستدلون على دعواهم في هذا المذهب من الاتحاد والتجسيد بما ورد في إنجيل يوحنا من قول: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا). وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أما الطائفة الثانية فهم الذين عنتهم الآية القرآنية بعدها بقوله تعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والإله عندهم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس، ضمن تأويلات كنسية كثيرة لم تفلح في تجاوز الشرك، ولذلك رد الله عز وجل على هذا الزعم الضال بقوله:﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ليس من معبود لجميع الخلق إلا معبود واحد لم يلد ولم يولد وهو خالق الوالد والولد ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وإن لم يتوقفوا عن هذا القول ويرجعوا عن هذا الاعتقاد ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ ليصيبن كل من كفر بأي وجه من أوجه الكفر:﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، والوعيد بالعذاب الأليم في هذه الآية يعم جميع طوائف المسيحيين بجميع تأويلاتهم للشرك في معتقداتهم.

أما الطائفة الثالثة من النصارى فمعتقدها أن عسى وأمه عليهما السلام إلهان من دون الله، وإليها يشير قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ المائدة 116. والآية تبين أنهم اتّخذوا مريم وابنها إلهين وحدهما، لاعتقادهم أنها لم تلد بشرا، وإنما ولدت إلها فصارت مثلَه تُعْبَد معه، أما طقوس عبادتهم لها فصلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع، وصيام يسمى باسمها وينسب لها، واعتقاد بأن لها سلطة غيبية تضر بها وتنفع في الدنيا والآخرة. إلا أن هذا الاتجاه في عبادة إلهين – عيسى ومريم – انقرض بتغلب عقيدة التثليث عليه، وإن بقي المثلثون يعبدون مريم عليها السلام، باستثناء طائفة البروتستانت التي أنكرت ألوهية مريم عليها السلام منذ انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر.

وبعد أن استوفى الحق سبحانه أوجه الكفر لدى المسيحيين دعاهم إلى التوبة والاستغفار وفتح لهم باب الرحمة بقوله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ أفلا يعودون إلى الحق الذي نزل إليهم من ربهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ يسألونه مغفرة ما ارتكبوه من شرك الاعتقاد والقول والعمل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب من استغفره من عباده ويدخلهم الجنة برحمته. وورود هذه الآية الكريمة بصيغة الاستفهام ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ يقصد به توبيخهم على ما كان منهم من كفر، والتعجب من حال إصرارهم على ما لا يقبله عقل ولا يقره منطق، ثم تحريضهم على التوبة إلى الله والرجوع إلى ما تقره العقول السوية، وتذكيرهم بسعة رحمة الله تعالى ومغفرته للتوابين من عباده مهما أسرفوا على أنفسهم، قال تعالى:﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر 53.

ويمضي السياق القرآني في حثِّ جميع طوائف المسيحيين على العودة إلى العقل السوي الذي غاب عنهم والمنطق السليم الذي افتقدوه فيقرر لهم حقيقة عيسى وأمه عليهما السلام بقوله عز وجل:﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إن عيسى عليه السلام مجرد عبد رسول كمن سبقه من الرسل، ولد من غير أب إظهارا لقدرته تعالى على الخلق، كما خلق من قبل آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ لأنها آمنت بالله وصدقت بكلماته وكتبه وكانت من القانتين كما هو شأن مؤمنات أخريات مثل أخواتها خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وامرأة فرعون، قال تعالى:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم 11-12، وقال صلى الله عليه وسلم: (خير نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون).

ثم ذكرهم الحق تعالى بأبسط ما يُستدَل به على فساد قولهم وهو حاجة عيسى ومريم كسائر الأحياء في الأرض إلى الطعام والاستقواء به فقال:

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كانا محتاجين إلى الطعام وإلى ما في حكمه من ماء وهواء، ومن كان كذلك ليس إلها، لأن الإله لا بد أن يكون غنيا غِنىً مطلقا.

ويختم الحق سبحانه هذا التقرير المنطقي لبشرية عيسى ومريم بمخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم يثير تعجبه من عمائهم عن هذه الحقائق التي لا تخفى على العقلاء بقوله:

﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ انظر واعجب يا محمد لعمائهم عن الحق وإصرارهم على الباطل وقد بينا لهم أدلة فساد معتقداتهم وآيات الصدق فيما دعوناهم إليه، ثم هم لا يتوبون ولا يرتدعون ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ثم اعجب كيف يُصرفون عن الحق وكيف يضلون عن الهدى.

ولما نفى الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام وأمه الصلاحية للألوهية من حيث افتقارهما إلى حاجات الجسد طعاما وغيره، أتبع ذلك بنفي هذه الصلاحية من حيث صفاتهما ضعفا وعجزا فقال:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ كيف تعبدون من دون الله ما ليس بيده لكم أو لغيركم نفع ولا ضرر ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالكم كفرا كانت أو إيمانا، ويعلم سركم وجهركم خيرا كان أو شرا، ويحاسبكم بما خفي وظهر من تصرفاتكم.

وكما هو منهج القرآن الكريم في التوجيه والإرشاد وعلاج الأنفس والمجتمعات بوصف الداء وبيان أصل نشأته وطريقة علاجه، يختم الحق تعالى بيانه لمواطن الخلل في إيمان المسيحيين ويحصر ذلك في عاملين هما رأس الزاوية في كل انحراف: الغلو في الدين واتباع الهوى، ويدعوهم إلى استئصال دواعي ذلك من مكامنه في أنفسهم ومجتمعهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى لليهود والنصارى أصل الداء لديهم جميعا ويحصره في آفتين هما: الغلو في الدين واتباع الأهواء، أهوائهم الذاتية أو أهواء من سبقوهم من الأحبار والرهبان وفلاسفة اليونان وديانات الهند.

والغلو في اللغة هو مجاوزة الحد في كل شيء، في المحبة وفي الكراهية وفي الفعل والترك والإقبال والإعراض والأخذ والعطاء والمنع، أما الغلو في الدين فهو تجاوز الحد الشرعي في الاعتقاد والعمل، وهو ما وقع فيه اليهود بتعصبهم لما حرفه أحبارهم من التوراة وتمسكهم بما ابتُدِع في دينهم من أحكام، وموقفهم من مريم عليها السلام إذ قذفوها وأنكروا صدِّيقيَّتَها، وجحدوا رسالة عيسى عليه السلام وحرضوا عليه وحاولوا قتله، وما وقع فيه النصارى بتجاوزهم الحد في محبة عيسى عليه السلام وأمه بتأليههما، وما وقع فيه بعض المسلمين إذ تجاوزوا الحد الشرعي في محبة الإمام علي رضي الله عنه وغالوا فيها، أو وقع فيه بعض مبغضيه إذ غمطوا قدره وحطوا من شأنه، ممن أشار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام علي كرم الله وجهه إذ قال: "دعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: (إنَّ فيكَ مِنْ عيسى مثَلًا، أبغضَته يهودُ حتى بَهتوا أمَّه، وأحبَّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلِ الذي ليسَ بهِ)، ألا وإنَّهُ يهلِك فيَّ اثنان محبٌّ يقرِّظُني بما ليس فيَّ، ومبغضٌ يحملُه شنآني على أنْ يبهتَني، ألا إني لستُ بنبيٍّ ولا يُوحى إليَّ، ولكني أعملُ بكتابِ الله وسنةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما استطعتُ، فما أمرتُكم من طاعةِ اللهِ فحقٌّ عليكم طاعتي فيما أحببتُم وكرِهتُم". وهو حاليا ما يقع بين سنة المسلمين وشيعتهم من غلو في التباغض بلغ حد التناحر والقتال وسفك الدماء، في حروب يذكيها ويمولها ويسلحها ويستفيد منه خصوم السنة والشيعة معا.

لقد بين لنا الحق سبحانه في القرآن الكريم نماذج من غلو أهل الكتاب يهودا ونصارى، تحذيرا من هذه الآفة في الاعتقاد والقول والعمل تصريحا وتلميحا، كما أن السنة النبوية بينت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم:(هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون)، والمتنطع هو المغالي المجاوز للحد في الشيء قولا أو فعلا أو اعتقادا، وقوله:(إن الدين يسر، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه)، وقوله: (عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، وقوله: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق)، وقوله: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف).

أما اتباع الأهواء الذاتية أو أهواء السابقين، فهو السوس الذي ينخر العقيدة ويفسد الأعمال ويهدم الحصون من داخلها، لأن المرء إن اتبع هواه أحدث فسادا، وإن اتبع هوى غيره راكم فسادا على فساد، وهو ما وقع لبني إسرائيل إذ راكموا فساد كل جيل منهم على فساد من سبقهم فضلوا وأضلوا، وما ارتكبه النصارى إذ يفعلون نفس الفعل في مجامعهم الكنسية المتعاقبة، ويستحدثون في كل مجمع أحكاما جديدة بالفعل والترك والاعتقاد، إلى أن تفرقوا طرائق قددا، وهو ما يعاني منه المسلمون منذ بداية الانحطاط وتراكم الغلو بالإفراط والتفريط إلى أن سقطت بلاد المسلمين كلها تحت سنابك الغزاة منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وما زال أمرهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري بيد غيرهم لحد كتابة هذه السطور بفعل أهواء حكامهم وفساد علمائهم وضلال عامتهم.

ولما كان الغلو في الدين واتباع الأهواء أصل فساد العقيدة والعمل في كل أمة وفي كل عصر فلا جرم أن يكون أشدَّ عقوبة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة ولذلك عقب الحق سبحانه بعد أن حذر أهل الكتاب من الغلو واتباع الأهواء فقال عز وجل:﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله تعالى في الزبور على لسان داوود وفي الإنجيل على لسان عيسى.

لقد كان بنو إسرائيل في مبدأ العهد الموسوي وكان مَنْ آمن منهم بعيسى عليه السلام بعد ذلك على المحجة البيضاء التي سلكهم فيها الأنبياء والرسل عليهم السلام، ثم ما لبثوا أن جنحوا بالتدريج للفساد الاعتقادي والعبادي والسلوكي والغلو في الانحراف إلى أن حلت بهم اللعنة، وكل انحراف يبدأ بسيطا متخفيا وتظهر أعراضه في المجتمع حالات فردية ثم تنتشر، فإن لم تعالج هذه الأعراض حال ظهورها شاعت وتجذرت واستعصى استئصالها، والفساد ما لم تَقتحِمْ عليه دارَه اقتحم عليك بيتك وأسرتك، لذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شريعة الرسل والأنبياء في جميع الرسالات، وذلك ما غفلوا عنه فتراكم لديهم الفساد بالمعصية والعدوان وكان سبب اللعنة التي حلت بهم لقوله تعالى عقب ذلك:

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ ذلك اللعن عليهم كان بما عصوا الله تعالى وأطاعوا أهواءهم ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وبما كانوا يعتدون على حق الله تعالى بتحريف دينه وجحود وحدانيته وشريعته، وتكذيب أنبيائه ورسله وقتل أوليائه.

وكان مبدأ الفساد الذي أدى إلى اللعن أنهم لم يبادروا بإصلاحه حال ظهور بوادره في الفرد والمجتمع، ولذلك قال تعالى عقب ذلك:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كان بعضهم يرون غيرهم على منكر من القول والفعل فلا ينهونهم، فألِفَ العامة الفواحش معايشة ورؤية وارتكابا، وألِفَ العلماء غض الطرف وصرف النظر عنها، واستطاب الحكام إلهاءَ شعوبهم بها، فراجت أخبارها دون حرج في المجالس والطرقات، وزالت وحشتها وتقلص استقباحها في الأنفس والمجتمعات، فانهارت الأخلاق وانكفأ الدين، ولذلك علق الوحي الكريم بقوله عز وجل:﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ساءت أفعالهم اعتقادا وقولا وعملا وتصرفا فساءت أحوالهم معيشة ومآلا في الدنيا والآخرة. قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليوشكَنَّ اللهُ أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)، وقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النور 19.

لقد ذكر الحق سبحانه في هذه الآية أمرين جعلهما سببا للعن والطرد وموجبا للسخط والمقت، أولهما الانهماك في المعصية والعدوان، وثانيهما انعدام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، ثم عقب بسبب ثالث أشد خطورة هو فساد العقيدة بموالاة الكفار ومودتهم. وذلك لأن المرء المنتسب إلى هذا الدين في أي عهد من عهود الأنبياء والمرسلين إذا تراكم على قلبه فساد العقيدة والفعل، أسَرَهُ هواه ففقد بوصلة التوجه، ومقاييس الصواب والخطأ، ولم يعد يميز بين حلال وحرام، أو مصلحة ومفسدة، كما هو حال بني إسرائيل إذ اختفى من مجتمعهم الأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وتحكم فيهم فسقة الحكام والعلماء، ولم يعد للعقيدة عليهم سلطان، ودفعت بهم أمزجتهم المريضة وما ظنوه مصلحة إلى موالاة أعداء الدين والاستنصار بهم على الأنبياء والرسل والمصلحين، مما حفل بذكره تاريخ الصراع بين الحق والباطل وأشار إليه قوله تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة 87، ولذلك مضي السياق القرآني شارحا للرسول صلى الله عليه وسلم أصل الداء في مواقفهم وتصرفاتهم إذ ساد فيهم الفساد وتسيَّد، وتغولت لديهم الأنانية والعزة بالإثم بقوله تعالى:

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أنت ترى يا محمد كيف أن ولاءهم لله اختل باختلال تصورهم الإيماني وأصبحت مصالحهم الموهومة وأمزجتهم السائبة هي الموجهة لهم والحاكمة المتحكمة فيهم، فوالوا أعداء عقيدتهم من الكفار والمشركين والملحدين وأعانوهم واستنصروا بهم على أولياء الله من الرسل والأنبياء والصالحين، وذلك أسوأ ما يقدمونه لآخرتهم من أعمال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ساء ما قدموا أمامهم للآخرة ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أن ادخروا لأنفسهم سخط الله عليهم وغضبه ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وهم بذلك مخلدون في العذاب.

لقد كان ينجيهم من هذا المصير البئيس إيمان صادق يثمر ولاء حقا لله تعالى ورسوله ورسالته فيعصمهم من موالاة الكفار وأعداء الدين: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي حق الإيمان ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لما والوا أعداء دينهم، لأن الولاء لغير الله محرم في شرائع جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ولكن كثيرا منهم فاسقون عن أمر ربهم، وخاضعون للفسقة من قومهم.

إن هذه الآيات الكريمة بوصفها حال اليهود والنصارى وتفصيلها ما وقعوا فيه، تكشف للمتدبر البصير عن سنة من سنن الله تعالى في نهوض الأمم وسقوطها، وذلك عندما يتسلل الفساد إلى حصون الأمة صغيرا خجولا لا يعبأ به، فإن استُصْغِرَ أمرُه تضخم وتغوَّل وغالَبَ لتكون له الكلمة العليا والأمر المطاع، وذلك حال الأمة الإسلامية المعاصرة إذ اختل التصور الإيماني لدى القادة والعامة إلا من رحم ربي، وغاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجههما الصحيح، وافْتُقِدَ التمييز بين الحق والباطل، وبين العدو والصديق، وبين الصادق والكاذب، فتسيَّد الفساد وتأمَّر الانحطاط، وشاعت الفاحشة، وذَرَّ قرن الفتن تنقدح شراراتها في كل قطر، يأطرها الهرج والمرج واستنصار كل فئة بعدوها على قتل أبناء دينها وقومها ووطنها، مصداقا لما رواه أبو موسى قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن بين يدي الساعة لهرجا) قال قلت: يا رسول الله ما الهرج؟ قال: (القتل)، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله إنا نقتل الآن في العام الواحد من المشركين كذا وكذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس بقتل المشركين ولكن يقتل بعضكم بعضا، حتى يقتل الرجل جاره وابن عمه وذا قرابته)، فقال بعض القوم: يا رسول الله ومَعَنا عقولُنا ذلك اليوم؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا، تُنْزَع عقولُ أكثر ذلك الزمان، ويخلف له هباءٌ من الناس لا عقول لهم)، ثم قال الأشعري: "وايم الله إني لأظنها مدركتي وإياكم، وايم الله ما لي ولكم منها مخرج إن أدركتنا فيما عهد إلينا نبينا صلى الله عليه وسلم إلا أن نخرج كما دخلنا فيها".

موقف أهل الكتاب والمشركين من المسلمين

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86) |

تبنى العلاقات عادة بين الأمم والأقوام سلبا أو إيجابا على مبدأ دفع المضار وجلب المنافع، من غير إغفال لضرورة سبر النوايا والمقاصد والأهداف البعيدة والقريبة وما جبلت عليه النفوس من عدوانية أو مسالمة، أو ميل للتعاون والتآزر والتفاهم، وهذا يقتضي أن يعرف المؤمنون مشاعر غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وطبيعة أهدافهم ومراميهم، كي يعدوا لكل حال ما يناسبه، من غير أن يُخلُّوا بالأصل الرباني الحاكم في الأمر كله وهو سلامة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، أو بقاعدتي الإحسان والقسط اللتين تبنى عليهما العلاقات الإنسانية مطلقا مع غير المسلمين، لذلك بعد أن وصف الوحي الكريم في الآيات السابقة حال أهل الكتاب وما أدت إليه مغالاتهم في الحب والبغض من فساد عقيدة وعدوان على الصالحين وولاء لأعداء الدين وإعراض عن الحق المبين، كشف سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين مشاعر طوائف الكفر وما تكنه لهم من بغض أو مودة أو معاداة أو مسالمة، أو وفاء أو غدر، كي تتضح معالم العلاقات وتبنى على أسس سليمة لا غبن فيها ولا غش ولا خيانة.

وبما أن هذه الطوائف في كل عصر ثلاث فرق، نصارى ويهود ومشركون، فقد بدأ الحق تعالى بأشدهم عداوة وخطرا، كي يكون الحذر منهم أشد والإعداد لدفع شرهم أقوى فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وحرف اللام في قوله تعالى:﴿لَتَجِدَنَّ﴾ للتأكيد والتوطئة للقسم، والنون للتوكيد، والآية بذلك مؤكَّدة بثلاث: بالقسم المقدر الذي دلت عليه اللام، وباللام والنون، والخطاب فيها للرسول صلّى الله عليه وسلّم ولكل من يتوجه إليه الخطاب من أتباعه، تنبيه وإخبار بمن سيجدونهم في واقع التجربة والمعاملة وتبليغ رسالة الإسلام أشد عداوة لهم، وهم المشركون واليهود، مصداق ذلك أن مشركي مكة منذ بزوغ فجر الإسلام أيقنوا أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تهدد نفوذهم وسلطتهم فاضطهدوه وطاردوه وكادوا يقتلونه، وأن اليهود أيقنوا كذلك أنها تهدد سيادتهم الروحية والمالية والاقتصادية في الجزيرة. فكانوا رأس حربة لكل مؤامرة حيكت للمكر بصاحبها وعرقلة مسارها، منذ محاولتهم اغتياله وتأليب القبائل عليه، وتحالفهم مع مشركي مكة في غزوة الأحزاب، وتزكيتهم للشرك على حساب عقيدة التوحيد التي أتى بها نبيهم موسى عليه السلام فيما ذكره القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ النساء 51. وحين يستعرص المسلم الواعي مواقف اليهود من المسلمين في كل عصر يزداد يقينا من هذا التقرير الإلهي، وتتضح له معالم شدتهم وقسوتهم ومكرهم على مر الحقب وتعاقب الأجيال، إذ لا تكاد تقع فتنة إلا وراءها يهود، من محاولتهم الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن وحدهم الإسلام، إلى تأليبهم الرعاع في فتنة مقتل الإمامين عثمان وعلي رضي الله عنهما، إلى محاولاتهم تمزيق وحدة المسلمين بإثارة النعرات العرقية والمذهبية وإفساد العقيدة الإسلامية ودس الأخبار الكاذبة والأحاديث الموضوعة، وإقحام التصورات المجوسية والوثنية في معتقدات حديثي العهد بالإسلام كما فعله عبد الله بن سبأ ومن على شاكلته، وكما تمارسه حاليا منظمات مشبوهة عالمية تنشر الفواحش والخلاعة وتشجع على التحلل من القيم الدينية والإنسانية.

وأما الذين أشركوا ومنهم عبدة أهوائهم من الملحدين والوثنيين، فقد كانوا في جزيرة العرب مع اليهود يدا واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بعيدا عنا في عصرنا هذا ما قام به حكام الهند الوثنيون من عدوان على باكستان وبنغلاديش وكاشمير، وما ارتكبته رئيسة الهند السابقة أنديرا غاندي في حق المسلمين من جرائم إذ قررت تعقيم ذكورهم كي لا يتكاثروا ونكلت بعلمائهم الذين قاوموا قرارها، وما يرتكبه البوذيون حاليا في ميانمار من مجازر في حق المسلمين، لذلك لا يبدو من تقديم اليهود في الآية الكريمة على المشركين أن أحدهما أشد على المسلمين عداوة من الآخر، لأن الجمع بينهما في الآية بحرف الواو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا.

وبعد أن حذر الوحي الكريم من طائفتي اليهود والمشركين مضى السياق لذكر حال الطائفة الثالثة من النصارى أتباع عيسى بن مريم عليه السلام وموقفهم من الإسلام والمسلمين بقوله تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ واللام في أول الآية تأكيد وتوطئة للقسم كما هو في الآية السابقة، والنون للتأكيد كذلك، ولفظ "المودة": ضد العداوة، على وزن "مفعلة"من ودَّ الشيء مَوَدةً، يوَدُّه وَدّا ووُدّا ووِدّا، يطلق حسب سياق الكلام على المحبة والمصادقة والمخاللة ولين الجانب ولطافة المعاملة. والمعنى أن الله تعالى يقسم أن الرسول صلى الله عليه وسلم عند دعوته إلى الدين الحق سيجد الذين انتسبوا للنصرانية أقل عداوة من اليهود والمشركين، وأقرب مودة وألين جانبا وألطف معاملة للمسلمين.

وقد اختلف في تعيين صنف النصارى الذين ذكرتهم الآية بالثناء، وهم مذاهب كثيرة، نظرا لاختلاف روايات أسباب النزول: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي نزلت في النجاشي عندما بعث وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم فأسلموا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، ولما رجعوا إلى النجاشيّ أخبروه فأسلم ولم يزل مسلمًا حتى مات ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ أخاكم النجاشيَّ قد مات فصلُّوا عليه) فصلَّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

وقال قتادة هم قوم من أهل الكتاب كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى عليه السلام، يؤكد هذا المعنى موقف ورقة بن نوفل إذ عرف نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم من قرائن أحواله الأولى، فقال له: "هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أوَ مُخْرِجِيّ هم؟) فقال ورقة: "نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا". وقال بعضهم هم نصارى زمن البعثة النبوية مطلقا، لأنهم كانوا أقل عداوة للمؤمنبن وأسرع استجابة للإسلام. وذهب رأي آخر إلى أنهم عموم النصارى في كل عصر، لِما يبدو في سلوك بعضهم من أخلاق التسامح والتراحم والعفو، كما ورد فيما رواه المستورد القرشي عند عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس)، فقال له عمرو: "أبصر ما تقول"، قال: "أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم"، قال: "لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك". وهي كلها أخلاق مشتركة بين سائر الأنبياء والرسل، بشر بها المسيح عليه السلام وأكدها الإسلام وألحّ على التمسك بها. إلا أن هذا الرأي يدفعه ما شاهدناه من الحروب الصليبية التي قادتها الكنيسة على بلاد المسلمين عقودا طويلة، ومن احتلالهم بلاد المسلمين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وما نراه حاليا من اكتساح للشعوب الإسلامية ونهب لثرواتها وتقتيل لرجالها وتنكيل بنسائها وصبيتها.

وقال أكثر المفسرين: إن المقصود بالثناء في هذه الآية هم النصارى الذين أسلموا زمن البعثة، وكانوا أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم، كلهم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا، إلا أن التقييد بزمن البعثة فيه تضييق لواسع، لأن الآية مطلقة في كل النصارى الذين يحتفظون ببقايا من انتساب للمسيح عليه السلام وأخلاقه، ويتصفون بما ذكرته الآيات بعدها، ويكونون أقرب مودة للمسلمين وأسبق إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيضاعف لهم الأجر مرتين إن أسلموا، وفيهم وفي اليهود الذين أسلموا[[[64]](#footnote-64)]مثل عبد الله بن سَلَام وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ، وَأُسَيْد بْنِ سَعْيَةَ، وَأَسَد بْنِ عُبَيْدٍ نزل قوله تعالى:﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران 199، وقوله عز وجل:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ القصص 52 - 54، وفيهم قال صلى الله عليه وسلم:(ورجل آمن بالكتاب الأول ثم جاء الكتاب الآخر فآمن به فذلك يؤتى أجره مرتين).

ثم شرح رب العزة علة قرب مودتهم للمؤمنين ولخصها في خمس خصال يتميزون بها، أولها انقطاع أصحاب الأمر فيهم للعبادة وانصرافهم عن الدنيا فقال:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ والقسيس في المصطلح الكنسي هو كبير رهبان النصارى وإمامهم في عباداتهم، ومن له صلاحية إقامة مناسكهم، جمع قسيسين وقُسُس وقساوسة، أما الرهبان فجمع راهب، من فعل:"رهب يرهب" على وزن:"منع يمنع" أي خشي وخاف، والرهبة هي طول الخوف ودوامه وشدته، قال تعالى:﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ الأنبياء 90، وقال:﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ النحل 51.

لقد انتحلت النصرانية الرهبنة في نظامها الكنسي عبر حلقات متتالية من التغيير والتبديل في معتقداتها وتشريعاتها وأساليب عملها، وقد عَنَتْ في مبدأ أمرها التفرغَ للآخرة والانقطاع للعبادة والانصراف عن الدنيا في الخلوات بعيدا عن أنظار الخلق، من غير أن تكون من صميم العقيدة المسيحية ولا من تشريعاتها، ابتدعها بعضهم التزاما ذاتيا ونذرا نذروه على أنفسهم في ظروف القمع والاضطهاد، هروبا من حكام ظلمة لم يتركوا لهم إلا خيارين لا ثالث لهما، الكفر أو المواجهة، فاستحدثوا نهجا وسطا، لا كفر فيه ولا مواجهة، بل فرار بالنفس وهجرة بالدين وتفرغ للعبادة في المغاور والكهوف. ولكنهم غالوا في ذلك فكان الاختبار الإلهي لهم بتقريرهم عليه وحثهم على حسن رعايته، قال تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد 27، وليس هذا الابتداع من الخلق والتقرير من الخالق غريبا في شرائع الأنبياء، فقد نذر يعقوب عليه السلام أن يحرم على نفسه وبنيه لحوم الإبل وألبانها إن شفاه الله من مرض ألم به، فكان تقرير الله تعالى إياه على ذلك بقوله:﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران 93. كما أن النذر في الإسلام معروف ومشروع بقيود معينة، ومعناه إلزام المكلف نفسه شيئا لم يكن واجبا عليه أو مطلوبا منه، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنه بقوله:(إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل). كما نهى عن الرهبنة والغلو في الدين بقوله:(لا تُشدِّدوا على أنفسِكم فيُشدِّد اللهُ عليكم، فإن قومًا شدَّدوا على أنفسِهم فشُدِّد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامعِ والديارِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾).

ولا شك أن الرهبنة في أولها لم تكن نظاما كهنوتيا كما هو معروف حاليا، وإنما ابتدعت لها معتقدات منحرفة وطقوس شركية ومراسيم وثنية بالتدريج في المجمعات الكنسية المتعاقبة، ومع ذلك أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بأهلها خيرا، وحذر من المساس بهم أو التدخل في شؤونهم، كما ورد في كتابه صلى الله عليه وسلم لوفد نجران من الأساقفة والرهبان، وفيه[[[65]](#footnote-65)]: (من محمد النبي، للأسـقـف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جوارُ الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبدا ما أصلحوا ونصحوا عليهم، غير مبتلين بظلم ولا ظالمين) وفي رواية: (لايحَرَّكُ راهبٌ عَنْ رَهبانيتِهِ، وَلَا يُغَيَّرُ وافِهٌ[[[66]](#footnote-66)]عَنْ وَفْهِيَّتِهِ، وَلَا قِسِّيسٌ عَنْ قسِّيسِيَّتِهِ).

ثم ذكر الحق سبحانه الخصلة الثانية التي يتميزون بها وقال:

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يستكبرون عن سماع الحق والامتثال له، ولا عن استماع النصح والعمل به، ولا عن العبادة التي يؤمرون بها، ولا يتعالون على خلق الله تعالى، وتلك سنة الأنبياء والرسل عليهم السلام، سنة يشتركون فيها وعقيدة واحدة يبلغونها وأخلاق واحدة يبشرون بها، قال صلى الله عليه وسلم (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ)، وقال عن عيسى عليه السلام:(رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ بَصَرِي)، وقال عنه وعن أبي ذر رضي الله عنه:(مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى تَوَاضُعِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي ذَرّ). ولئن كان عيسى عليه السلام في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مريم 30-32، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان لا يأنَفُ ولا يستكبرُ أن يمشيَ مع الأرملةِ والمسكينِ والعبدِ، حتى يَقضيَ له حاجتَه)، وقال عن نفسه: ( لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)، وأمر أمَّته بالتواضع فقال: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، وَلَا يَبْغِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)، وقال: (مَن تواضعَ للَّهِ درجةً رفعَهُ اللَّهُ درجةً ومَن تكبَّرَ درَجةً وضعَهَ اللَّهُ درجةً حتَّى يجعَلهُ في أسفلِ سافلينَ).

ثم ذكر الحق سبحان الخصلة الثالثة فقال:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وتلك طبيعة الفطر السليمة التي لم يلوثها التعلق بالدنيا، إذا انتبهت للحق أو نُبِّهت له عرفته فاستنارت منه النفوس، ولانت له القلوب وانشرحت به الأفئدة، وفاضت دموع الفرح بالإيمان من الأعين فأعلنوه بألسنتهم قولا صادقا وعزما على أداء الشهادة عملا وتبليغا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ربنا آمنا بما أنزلت من الكتاب والسنة، وعزمنا على العمل بهما، فاجعلنا في الأمة الوسط ممن عنيتهم بقولك: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة 143. وكان النجاشي وأصحابه خير مثال لهذه الفئة من المؤمنين في العهد النبوي إذ قرأ عليهم جعفر الطيار سورة مريم فأخذ النجاشي تِبْنَة من الأرض وقال: والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، وما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة.

وذكر الصفة الرابعة وهي النفس اللوامة فقال:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ والاستفهام الإنكاري التعجيبي في هذه الآية لوم لأنفسهم إذ ترددوا في الإيمان بالحق الذي بلغهم وعرفوه، وهو لوم يوحي بأن عائقا من أنفسهم أو من غيرهم أخر اعتناقهم الإسلام فنبذوه وسفهوه ولاموا أنفسهم على التردد في الإيمان، كما هو ديدن النفوس الحية اللوامة التي تبحث عن الحق وتخشى أن تضل عنه أو تتأخر عن اتباعه، وهي بذلك دائمة الخوف من الذنب والحذر من المعصية، مواظبة على مراجعة المشاعر والنوايا، وتفحص التصرفات وتصحيح الأخطاء وتقويم الأعمال، تلوم صاحبها وتصده عن فعل الشر كما تلومه على ترك الخير وتحثه على فعله، لكرامتها أقسم الحق تعالى بها وقال:﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ القيامة 1- 2، قال الحسن: "إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا، يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام"، وقال غيره: "هي نفس المؤمن توقعه في الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فوات شهوة محرمة أو مكسب خبيث".

ثم ذكر الحق تعالى الخصلة الخامسة وهي ثقتهم بالله وتعلق رجائهم به فقال:

﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ والطمع في هذه الآية بمعنى الرجاء، يرجونه تعالى أن يجعلهم من أهل العمل الصالح كما اصطفاهم وجعلهم من أهل الإيمان، وهم في حالهم هذا ما بين نفس لوامة خائفة وقلوب راجية طامعة، قال تعالى:﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ السجدة 16. ولذلك كان ما أعده الحق سبحانه لهم أكثر مما رجوا وطمعوا، قال عز وجل:

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾ جزاهم الله ﴿بِمَا قَالُوا﴾ بما أعلنوا من إيمان صادق وعزم على العمل الصالح ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلودا في الجنة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أحسنوا القول والعمل وأخلصوا الخوف والرجاء وسألوا أن يكونوا من الصالحين والشاهدين فجعلهم الله تعالى من المحسنين المجيدين المتقنين، قال تعالى:﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن 60. أما غيرهم من الكفار والمشركين والمكذبين على اختلاف أصنافهم ومعتقداتهم ومواقفهم فليس لهم عند الله تعالى إلا ملازمة الجحيم والخلود فيه:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

مطاعم ومشارب ومكاسب محرمة توقع العداوة والبغضاء

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)﴾ سورة المائدة. |

التكامل بين الاعتقاد والقول والعمل والقلب واللسان والجوارح أبرز خاصية في التربية الإسلامية، على أساسه تؤسس شخصية المسلم ويبنى المجتمع، وعلى أساسه يكون الفلاح في الدنيا والحساب اليسير في الآخرة، ولذلك قال تعالى:﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة 9، وقال صلى الله علي وسلم:(إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)، ولئن كانت هذه الخاصية محور ما نزل به القرآن الكريم كي ينشئ بها رجالا على الاستقامة ومجتمعا على النظافة والسواء، وأمة وسطا شاهدة ودولة عادلة محسنة، فإنها قد برزت بوضوح في سورة المائدة وهي آخر سورة نزلت، وبها انقطع الوحي وكمل الدين وتمت النعمة. إذ تجلى فيها صفاء التصور الإيماني السليم واتضحت فيها الحاجةُ إلى تخليص هذا التصور من بقايا شوائب المعتقدات والعادات والعبادات والعلاقات الموروثة، وَضرورة وَصْلِه وصلا محكما بالجانب العملي من حياة المؤمن، تفصيلا للأحكام الشرعية في الحلال والحرام، مآكل ومشارب ومناكح ومناسك، وروابطَ اجتماعية وعلاقاتٍ بغير المسلمين، لا سيما وقد أقبل العرب على الإسلام بعد فتح مكّة إقبالا شديدا كما قال تعالى:﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ النصر 2، وكان قِصَرُ مدة أداء مناسك الحج، واتّساعُ مكان انتشار الحجاج في مكة وما حولها يقتضيان المبادرةَ بترسيخ ما بقي من الشرائع، وكفَّ المسلمين عن عادات وتقاليد ما زالت فاشية في بعضهم، في زمن هو أهم مفاصل تبليغ رسالة الإسلام، إعدادا لإتمام الرسالة، وتأهبا لانتقال رسولها صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

على هذا النهج العام وفي سياقه تمضي السورة وقد جُودِل فيها المشركون واليهود والنصارى حول فساد ما يعتقدونه وما يحلونه وما يحرمونه، وما يغالون في إباحته أو تحريمه ومحبته وكرهه، لتُبيِّن لمن تاب منهم ولكافة المؤمنين بقية من الأحكام التشريعية العملية في حياتهم الخاصة والعامة بدءا بطيبات من الحياة التي كان بعضهم يحرمها، ثم بعادات سيئة كانت محمودة في مجتمعهم كالعدوان حمية أو فتوة وجسارة أو جشعا ومباهاة، وذلك بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي لا تمنعوا أنفسكم ما طاب ولذ مما سخره الله لكم وجعله حلالا، ولا تحرموه على أنفسكم مبالغة منكم في التزهد أو التعبد أو التقشف، لأن الطيبات المباحة وجه من أوجه نعم الله تعالى الكثيرة في الحياة الدنيا ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل 18، جعلها عز وجل قواما للناس بَرِّهم وكافرِهم، ووضع لها من الأحكام ما يتيح الاستفادة منها ويقي شر إساءة استعمالها، وأنار بها طريق معرفته وسبل الإيمان به والاهتداء إلى دينه فقال عز وجل:﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ النحل 72، لذلك كان من الإثم الكبير الاعتداء على هذه الطيبات بتحريم نافعها الذي أحله الله تعالى أو بتحليل ضارها الذي حرمه، أو الخوض في التحليل والتحريم بالكذب على الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ النحل 116.

لقد كان المشركون في الجزيرة العربية يحرمون من أموالهم أشياء كثيرة أكد الله عز وجل أنها ليست حراما، مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحام بقوله:﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ المائدة 103، وقوله:﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ المائدة 140.

كما كان اليهود يحرمون على أنفسهم لحوم الإبل وألبانها مع أنها لم تحرم عليهم في التوراة، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها فلست على ملته"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام)، فقالوا: "كل ما نحرمه اليوم كان ذلك حراما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا"، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران 93، أي: أن كل الأطعمة كانت حلالا لبني إسرائيل، وأن التوراة لم تنزل بتحريمها.

أما النصارى وقد جاءت الآية الكريمة تفريعا لما تقدّمها من الثناء علبهم، وكان من سنّتهم المبالغة في الزهد والرهبانية والانقطاع في الأديرة والكنائس والصوامع، والامتناع عن الزواج والتقلل في تناول الأطعمة الطيبة والأشربة اللذيذة تقشفا ورغبة عن الدنيا، فاقتضى المقام التنبيه إلى أنّ الثناء السابق على بعض خصالهم لا يعني اطّراده على جميع أحوالهم، لا سيما وقد طمحت نفوس بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التقلّل من بعض لذائذ العيش والتنافس في الزهد مثلهم، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأقوم الليل لا أنام، وقال الآخر: أمَّا أنا فأصوم النهار، وقال آخر: أمّا أنا فلا آتي النساء، فبلغ خبرُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم فقال:(ألَمْ أُنَبَّأ أنَّكم قلتم كذا؟)، قالوا : بَلَى يا رسول الله وما أرَدْنا إلاّ الخَيْر، قال:(لَكِنِّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي). كما رُوي أنّ ناساً منهم أبو بكر وعليّ وابن مسعود وابن عُمر وأبو ذرّ وسالم مولى أبي حذيفة والمقدادُ بن الأسود وسلْمان الفارسي ومعقل بن مُقَرّن اجتمعوا في دار عثمان بن مظعون واتّفقوا على أن يرفُضوا أشغال الدنيا، ويتركوا النساء ويترهّبوا. فقام رسول الله فغلّظ فيهم المقالة، ثم قال:(إنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شَدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع). وفي رواية: أنّ ناساً قالوا: إنّ النصارى قد حرّموا على أنفسهم فنحن نحرّم على أنفسنا بعض الطيّبات، فحرّم بعضهم على نفسه أكل اللحم، وبعضهم النوم، وبعضهم النساء؛ وأنّهم ألزموا أنفسهم بذلك بأيمان حلفوها على ترك ما التزموا تركه. فنزلت هذه الآية منبهة إلى هذا الخلل في التوجه باعتباره عدوانا على شرع الله وتدخلا فيما هو خاص به سبحانه بقوله تعالى عقب ذلك:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ والاعتداء افتعال العدْوِ وهو الظلم. ذُكِر النهي عنه عقب النهي عن تحريم الطيّبات للدلالة على أنّ المراد النهي عن تجاوز حدّ الإذن المشروع في كل شيء كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ البقرة 229.

ولئن كان سياق هذه الآية يحصر العدوان بتحريف الشريعة في تحريم ما أحل الله تعالى للناس وكان مفهوم المخالفة فيها يحرم تحليل ما حرم الله تعالى فإن قاعدتها الكلية تقتضي اعتبار كل مس بالشريعة الإسلامية بالزيادة أو النقص أو الإهمال أو الإغفال أو التشكيك في جدواها أو ادعاء عدم صلاحيتها لزمان أو مكان عدوانا على الدين وأهله ومنزِّلِه، لذلك عقب تعالى بالتحذير منه بقوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ومن لا يحبه الله تعالى فقد أبغضه، ومن أبغضه الحقُّ كانت النار مثواه.

ثم عقب عز وجل بدعوة الناس إلى مائدته في الأرض دعوة كريمٍ غنيٍّ فقال:﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ما عليهم من حرج في الحلال الطيب، وليس لأحد من الخلق أن يحرمه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف 32، ذلك لأن الله عز وجل إذ خلق الخلق قدر له أقواته ووفر له حاجاته وما كان عنه غافلا :﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾المؤمنون 17، كل ما في الأرض من الطيبات مباح، والأصل في الأرزاق الإباحة إلا ما حرم بنص، وللمؤمن على تمتعه بالمباحات أجر امتثاله لأحكام الشريعة فيما يناله منها، لذلك ذكَّره الحق سبحانه بالتقوى في ما يأخذ ويطلب وما يذر ويترك فقال عز وجل:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾أنتم مؤمنون بالله تعالى، ومقتضى هذا الإيمان أن تتقوه وتخافوا عقابه وتجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية من طاعة وشكر وامتثالِ أوامرَ واجتناب نواهٍ، وإحسانِ عبادة، ومن الإيمان ألا تحرموا ما أحل الله تعالى، ومن الإيمان ألا تقسموا على الامتناع عن المباح من الطيبات، كما فعل بعض الصحابة.

ثم بالتفات لطيف إلى بعض المسلمين الذين أقسموا على تحريم بعض ما أبيح لهم من الأطعمة والأنكحة تزهدا وغلوا في التعبد أو مجاراة لليهود والنصار والمشركين، بين لهم الحق سبحانه تَحِلَّةَ أيمانهم وكفارتها وما هو منها لغو وما هو منعقد فقال سبحانه مبتدئا بلغوها:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ولفظ "اللغو" من فعل: لَغَا الْإِنْسَانُ يَلْغُو، ولَغَى يَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى لغوا، إِذَا ألقى الكلام عفوا وخلط فيه أو نَثَرهُ من غير قصد، واللغو ما يورده صاحبه من غير روية أو فكر، وما لم تنعقد عليه النية والقصد، ومنه ألغى الشيء إذا أسقطه أو أبطله. أما لفظ "الأَيْمان" فمفرده "يمين" وهو القسم، وكان العرب إذا تحالفوا أَو توافقوا على شيء ضرب كل امْرِئ مِنْهُم يَمِينه على يَمِين صَاحبه، فَيُقَال لأحدهم اذا فعل ذَلِك أَخذ يَمِينه أو أخذ صفقته، ثمَّ قيل للحلف بِاللَّه أو بِكُل مَا يُحلَف بِهِ يَمِين، وعدّوه قاطعا في بيان الحق من الباطل كما قال زهير: وإنَّ الحقَّ مَقْطَعُه ثلاث ... شُهُودٌ أو يَمِينٌ أو جلاءُ.

ثم لما نزلت الشريعة جعلته أحد شرطين في إثبات الحقوق ونفيها وقال صلى الله عليه وسلم: (المدَّعَى عليه أولى باليمين إلا أن تقوم عليه البينة).

أما اللغو في اليمين الذي لا مؤاخذة فيه ولا يتعلق به حكم فمنه ما يجري على الألسنة من قولهم: لا والله، وبلى والله، من غير اعتقاد في ذلك، وقد قالت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عنه: "هو قول الرجل: لا والله، بلى والله"، ومنه أيضا عند الفقهاء أن يحلف الرجل على الشيء يراه كذلك وليس كذلك، أو يحلف على أمر ماض وهو يظنّ أنّه حقّ والأمر بخلافه، كأن يقول والله لقد فعلت، معتقدا أنّه فعل وهو لم يفعل، أو يقول والله ما فعلت، معتقدا أنه لم يفعل وهو قد فعل، وَقِيلَ: هُوَ الْيَمِينُ فِي المعصية يقسم الرجل أن يرتكبها، أو هو اليمين فِي المِرَاء أو الهَزْل، وقيل هو اليمين في حالة الغضب كما نسب لابن عباس رضي الله عنه. إلا أن هذا الصنف من الأيمان وإن لم لكن فيه مؤاخذة ولا كفارة لا يجوز التمادي فيه، لأن تعوده قد يقود إلى الأيمان المحرمة المؤاخذ عليها. ولذلك عقب الحق تعالى بالأيمان المؤاخذ عليها بقوله عز وجل:

﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾وهذه الأيمان تُدْعَى المنعقدةَ والمعقودةَ، من عَقْدِ القلب الذي هو العزيمة والقصد إلى اليمين، يقسم فيها المرء حرا غير مكره على فعل أو ترك في المستقبل، كما في قوله تعالى أيضا:﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة 225، أي: لا يؤاخذكم الله أيها المؤمنون بما لغوتم فيه من أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما أوجبتموه منها على أنفسكم، وعُقِدَتْ عليه قلوبكم. ويترتب عليكم بذلك إما البر بالقسم، وإما الحِنْث وفيه الكفارة، ومن ذلك مثلا أن يحلف المرء على أن يفعل شيئا أو أن لا يفعله، فلا يوفي بما حلف عليه فعلا أو تركا، أو يحلف على شيء ثم يرى غيره خيرا منه فيختاره، وفي الحالين تَجُبُّ الكفارة إثْمَ الحنث، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على شيء فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر) لأنه تعالى غفور حليم.

أما كفارة الحنث في هذه الأيمان فيفصلها قوله تعالى عقب ذلك:

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾أي: فكفارة الحنث في الأيمان على ثلاثة أصناف حسب استطاعة الحانث، أولها: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ بحيث يكون طعام كل مسكين منهم مثل متوسط ما يطعم به الرجل أحد أفراد أسرته ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ كذلك بمتوسط ما يكسو به واحدا من أهله ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وتعني تحرير أسير من أسرى الجهاد الشرعي. ثم بين تعالى حكم من لم يجد ما يكفر به فقال:

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فمن لم يجد ما يطعم به المساكين أو ما يكسوهم به، ولم يستطع تحرير الرقبة فيكفيه صيام ثلاثة أيام ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، هذا مجمل كفارة الأيمان إذا حنث فيها المرء، على خلاف بين فقهاء الأمصار يرجع إليه في كتب الفروع.

إلا أن من الأيمان ما ليست بلغْوٍ مُعْفىً عنه، ولا بمعقودةٍ لها كفارتها، وهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، وقد نص فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وابن حزم وابن تيمية رحمهم الله على أن المراد باليمين الغموس اليمين التي يحلفها المرء كاذبا متعمدا على أمر ماض، ويدخل فيه من باب أولَى اليمينُ التي يحلفها كاذباً ليقتطع بها مال غيره أو يظلمه. وفي الحديث الصحيح أن أعرابيا جاء إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: يا رسولَ اللهِ، ما الكبائرُ ؟ قال: (الإشراكُ باللهِ)، قال: ثم ماذا؟ قال:(ثم عقوقُ الوالدَينِ)، قال:ثم ماذا ؟ قال (اليمينُ الغموسُ) . قال: وما اليمينُ الغموسُ؟ قال: (الذي يقتطعُ مالَ امرئٍ مسلمٍ، هو فيها كاذبٌ) وفي رواية أخرى: (الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس). وهي يمين لا كفارة لها لعظم الذنب فيها، قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران 77. وقال صلى الله عليه وسلم: (من حلف على منبري هذا بيمين آثمة تبوأ مقعده من النار). ولذلك ختم الحق سبحانه أحكام الأيمان لغوا أو معقودة أو غموسا محذرا من إهدارها أو التلاعب بها فقال:

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ احفظوها من تسيب الألسنة ومن النسيان ومن الاستهانة بخطر نتائجها في العلاقات الإنسانية والاجتماعية وبين يدي الله في الآخرة ﴿كَذَلِكَ﴾ بمثل هذا البيان المفصل لأحكام الكفارات ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يبين الله تعالى لكم دائما أعلام شريعته وأحكام دينه وسبيل نيل رضاه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون نعمه وفضله وعنايته بعباده المؤمنين.

وفي سياق معالجة آثار ما قد يتسرب إلى المجتمع الإسلامي الجديد من رواسب الديانات وفاسد الأعراف والتقاليد، وعملا على تطهيره من عوامل الضعف والاستهتار التي قد تعصف به يأتي القول الفصل في تحريم مشارب ومطاعم ومكاسب كانت مباحة لدى اليهود والنصارى ومشركي الجاهلية العربية بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وجدير بالذكر أن هذه الآفات الاجتماعية كانت سائدة في المجتمعات العربية مشركة ويهودية ونصرانية، وفي ذروة الإقبال على الإسلام خلال السنة الأخيرة من الهجرة النبوية كان موضوع حليتها وحرمتها يثار كلما دخل في دين الله فوج جديد، فأصبح ضروريا أن يحسم الوحي في أمرها وقد آذن بالانقطاع في آخر سورة تنزل، بعد أن سار التدرج التشريعي نحو هذه الغاية خطواته الأولى من قبل بقوله تعالى:﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ البقرة 219، ثم بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء 43، وما صاحَبَ ذلك أو تلاه من نهي للسنة النبوية عنها وتنفير منها، ثم نزلت هذه الآيات من سورة المائدة حاسمة جازمة لا تقبل تأويلا أو تهاونا، ووصف الحق تعالى هذه الآفات بحقيقة أمرها فقال إنها:﴿رِجْسٌ﴾، والرجس لغة هو كل ما يُستقذَر ويُستخبَث، يطلق على كل نجس وكل محرم، كما يطلق على الشرك والنفاق في قوله تعالى:﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة 125، وعلى العذاب في قوله عز وجل:﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ 125.

ثم زاد الحق تعالى أمر هذا التحريم شدة ووضوحا بقوله:

﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: إن شربكم الخمر، وقماركم، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام مما لا يعمله إلا الشيطان وأولياؤه، وليس مما نَدَبكم إليه الله تعالى ولا مما يرضاه لكم ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فاتركوه وارفضوه ولا ترتكبوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا وتفوزوا بخير الدنيا والآخرة.

ثم بين عز وجل بعضا من حكمة هذا التحريم على الصعيدين الاجتماعي والديني فقال تعالى:  
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ إن الشيطان يتوسل بهذه الموبقات ليزرع العداوة والبغضاء والكراهية والاختلاف والفتن في الصف المسلم ويصرف المؤمنين عن عباداتهم التي تقربهم إلى ربهم.

ثم ختم الحق سبحان بعتاب ليِّن لمن يجادلون في حرمتها بقوله تعالى:﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقالوا:"انتهينا".

وبعد هذا العتاب الخفيف ختم تعالى بالقاعدة الأصيلة في علاقة المؤمن بربه تذكيرا وتحذيرا فقال عز وجل:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، إذ بدون هذه الطاعة يكون المرء خارج دائرة الإسلام، ﴿وَاحْذَرُوا﴾ احذروا عصيان أمر الله والتهاون في العمل بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾عن الطاعة وعصيتم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ اعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة واضحة تامة وحملكم مسؤولية العصيان وحدكم ولم يترك لكم حجة بين يدي الله تعالى يوم العرض والحساب.

ولما كان تحريم هذه الموبقات قد نزل متدرجا ليسهل تخليص من ابتلي بها بيسر وسهولة، وتأخر الامتناع عنها من قِبَل من كان يرتكبها إلى أن ماتوا أو استشهدوا قبل تحريمها فقد تساءل ناس عن عاقبة أمرهم وقالوا: "يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان؟". فنزل جوابا لهم قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ ليس على من مات منهم قبل نزول التحريم إثم فيما شربوه أو أكلوه أو كسبوه ، وكذلك من بلغهم التحريم وهم أحياء لا ينالهم إثم ما سبق مما طعموا ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ إذا ما كفوا وابتعدوا عن هذه المحرمات واجتنبوها وامتنعوا عن تعاطيها طاعة لله واتقاء لغضبه ﴿وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وجمعوا بين صحيح الإيمان وصالح الأعمال ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ ثم واظبوا على التقوى والإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ ثم ثبتوا على التقوى إلى أن بلغوا مرتبة الإحسان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن أحبه الله فقد فاز، وفي الحديث الصحيخ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه).

بهذا الأسلوب اللين الهادئ، والمنهج التربوي الرصين تدرج الإسلام في إعادة تربيته للمسلمين على الطهر والخلق الرشيد، وإشاعة التصافي والتعاون والتكافل والجدية في التصرف والمعاملة فجنبهم ما يعكر صفو الأمن في علاقاتهم ببعضهم وعلاقتهم بغيرهم، أو يصرف الجهود الفردية والجماعية عن بناء القوة والدفاع عن الإسلام وأرضه، وتَحقَّق لأول مرة في تاريخ البشرية مجتمع مثالي لا عداوة فيه ولا بغضاء ولا رجس من مطعم أو مشرب أو ميسر أو أزلام أو فساد.

ميزان القيم الإنسانية في المجتمع الإسلامي الرشيد

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) ﴾ المائدة |

على إيقاع انسكاب نصر الله المؤزر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخول الناس في الدين أفواجا، واقتراب موعد التحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، في السنة العاشرة للهجرة، وعلى جبل الرحمة في حجة الوداع، اقتضت حكمة الله تعالى أن تنزل ما بقي من أحكام شرعية تُتم الدين وتُكمل النعمة، وتُطهر المجتمع الإسلامي من رجس المآكل والمشارب والتصرفات، لا سيما وقد آمن بالإسلام واندمج في مجتمعه أفواج من كل أطراف الجزيرة العربية، كانوا مشركين ويهودا ونصارى، يحتفظ بعضهم برواسب عادات وتقاليد ومعتقدات وشرائع جاهلية لم يكن ليتأخر بيان وجه الشرع فيها، وحجة الوداع آخر فرصة لاستكمال الدين، وحكمة الله تعالى اقتضت أن تكون سورة المائدة آخر ما ينزل من الذكر الحكيم.

ولئن حفلت هذه السورة الكريمة من مبدئها إلى منتهاها بالأحكام الشرعية التي لم يعقبها نسخ، وكانت آيات الحلقة السابقة متعلقة بالمحرمات المستقذرة في نفسها وما تؤدي إليه، خمرا وأزلاما وميسرا وأنصابا، فإن الشريعة الغراء قد أوردت بعدها محرمات أخرى الأصل فيها الإباحة، لأنها ليست مستقذرة في ذاتها، والتحريم لها مؤقت لسبب خارج عنها متعلق بحال المرء أو مكانه وظروفه، ولئن كان هذا الصنف من المحرمات لغيرها يغطي مساحات كبيرة من النشاط الإنساني الذي تحكمه المروءات أو تضبطه النصوص كما في تحريم الكلام بغير الذكر المأثور في الصلاة مثلا، وتحريم مباشرة الزوجة في حال الظهار قبل أداء الكفارة كما قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ المجادلة 2، فإن الحق سبحانه خص آيات هذه الحلقة بأحكام متعلقة بتعظيم حرماته في البيت العتيق والأشهر الحرم وما يجب على من انقدح نور الإيمان في قلبه وامتلأت جوانحه بالبر والتقوى فقال عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم تعالى بصفة الإيمان لأن من مقتضياته الاستماع والطاعة، ثم رحمة بهم وتلطفا وتربية متدرجة لعزائمهم وتنمية لقدراتهم الذاتية بين لهم وجه الأمر في هذا التكليف فقال مؤكدا بلام القسم ونون التوكيد:﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ لَيختبرنَّ الله تعالى طاعتكم من معصيتكم، وليبلونَّ عزائمكم ومدى صبركم على ما تشتهيه أنفسكم أثناء إحرامكم للحج أو العمرة، وذلك بأن يسوق في طريقكم شيئا ولو قليلا من صيد البر﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ يسهُل عليكم أخذُه، إما بأيديكم كبيض الطيور البرية وفراخها وما لا يستطيع أن يفر من الحيوانات، وإما بإصابة النَّبْل والرماح كالحمر الوحشية والبقر والظباء والوعول.

ثم لمزيد من إظهار رحمة الله ولطفه بهم ساعدهم على تجاوز هذا الابتلاء بنجاح فبيين الحكمة منه بقوله عز وجل:

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ولا شك أن الله تعالى يعلم خبيئة نفوس من يخافونه بالغيب ومن لا يخافونه، إلا أنه سبحانه لا يحاسبهم بما يعلمه عن قلوبهم، وإنما بما ينكشف في حياتهم العملية مما تخفيه قلوبهم وضمائرهم، وبما يعملونه في الواقع وما يسعون فيه، ليتميز بذلك الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق وتكون الحجة عليهم أو لهم يوم القيامة أبلغ وأثبت ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن أصر على تجاوز حدود ما أنزل من الشريعة، واعتدى بالصيد بعد هذا البيان والاختبار كان عذاب الدنيا والآخرة مآله وعاقبة أمره.

لقد تميز هذا الاختبار الإلهي لأفواج المقبلين على الحرم المكي للحج والعمرة ولكافة المسلمين في كل عصر بثلاثة أمور تبدو بسيطة ميسرة، ولكنها في حقيقة أمرها شاقة على النفوس الضعيفة التي لا تستطيع مقاومة شهواتها وملذاتها وما نشأت عليه من عادات.

أولها إخبارهم ابتداء بأنه مجرد ابتلاء من أجل كشف النوايا ودواخل النفوس والقلوب، وتعويدهم على السمع والطاعة في المنشط والمكره والسر والعلن، وأن العبرة بما يظهره هذا الاختبار من خبء الضمائر وخلفيات الظواهر في الأعمال والتصرفات، وتلك سنة إلهية في ابتلاء من سبق من الأمم المسلمة، كما في قوله تعالى عن جنود طالوت:﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِه﴾البقرة 249.

والأمر الثاني أن مقدار ما يبتلون به قليل عبَّرَ عنه تعالى بقوله:﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي: بمقدار قليل أو تافه مما يصاد، يستصغره المرء ولا يلقي له بالا فيتجرأ على المعصية ويهلك، وقد قال صلى الله عليه وسلم عن محقرات الذنوب: (إياكم ومحقرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه).

والأمر الثالث أن سهولة تناول الصيد بالأيدي والرماح تغري الآخذ المتهور المتعجل وتحرضه على الفعل المخالف من غير تثبت أحيانا. وقد ذكر في الأثر أن المسلمين في عمرة الحديبية كان الصيد وحشا وطيرا يغشاهم في رحالهم بكثرة لم يعهدوا مثلها قط فيما مضى، ولما نهاهم الله تعالى عنه وهم محرمون امتثلوا ولم يرتكبوا ما ارتكبه بنو إسرائيل في يوم سبتهم كما قال تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف 163.

وبعد أن بين الحق تعالى حكمته في هذا الابتلاء، أعاد تأكيد حرمة قتل الصيد في حال الإحرام بالحج أو العمرة بأسلوب غير قابل للتأويل فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾والصيد كل حيوان وحشي بري حلال كالظباء والأرانب وغيرها، يحرم على المحرم اصطياده وقتله بمباشرةٍ أو بِتَسبُّبٍ، أو إعانةٍ على قتلهِ أو دلالةٍ عليه أو إشارةٍ إليه أو مناولةِ سلاحٍ لصيده، لمطلق النهي في هذه الآية الكريمة على ذلك، ولِما تقدمها في أول سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ المائدة 1، وقوله عز وجل:﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ المائدة 2.

أما الوحشي مما لا يحل أكله كما هو حال كل ذي ناب من الوحش وكل ذي مخلب من الطير فالأصل فيه عدم قتله إلا دفعا لصائله أو مُضرِّه، وأما ما ورد النص بإباحة قتله فقد ورد به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خَمْسٌ لَا جُنَاحَ عَلَى من قتلَهُنّ فِي الْحل وَالْإِحْرَامِ: الْفَأْرَةُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ﴾، وللفقهاء في اعتبار توحش الصيد قولان، أولهما أنه الذي توحش سواء كان مباح الأكل أو غير مباحه، والمحرم إذا قتل ما لا يجوز أكله من السباع عليه الضمان ولا جزاء[[[67]](#footnote-67)]، وهو قول أبي حنيفة، والثاني ما ذهب إليه الشافعي وهو أن الصيد ما يباح أكله وفيه الجزاء، ولا ضمان مطلقا ولا جزاء في قتل ما يحرم أكله، على خلاف بين فقهاء الأمصار في تفصيل ذلك يرجع فيه إلى فقه الفروع.

وعلى هذا فالمحرم إن قتل ولو حمامة متعمداً فعليه جزاؤها، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي ففديته وكفارته تكون من الأنعام ضأنا أو معزا أو إبلا أو بقرا، ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ يحدد هذا الجزاء ويفصل في أي خلاف حوله حكمان عدلان من رجالكم (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ بحيث يدخل المحرم بهذا الهدي من الحل إلى الحرم في مكة أو منى فيذبحه ويوزعه على الفقراء ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أو يقدر الحكمان ثمن الهدي طعاما يتصدق به على المساكين ﴿أَو عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً﴾ أو أن يصوم يوما عن كل مد من الطعام المقدر للفدية، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ كي يذوق مرارة ما ارتكب ويشعر بثقل عدوانه ووخامة فعله، لأن الوبال في اللغة هو الشدة والثقل والمكروه كما في قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ الطلاق 9، وقوله عز وجل:﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾16. وقد سمى الله تعالى الجزاء وبالا، لأنه تضمن أحد ثلاث عقوبات ثقيلة، هي الفدية بالمثل، أو الإطعام، أو الصوم. قال عبد الله بن أبي زيد القيرواني في الرسالة [[[68]](#footnote-68)]: (ومن أصاب صيدا فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل من فقهاء المسلمين، ومحله منى إن وقف به بعرفة وإلا فمكة، ويدخل به من الحل، وله أن يختار ذلك، أو كفارة طعام مساكين، أن ينظر إلى قيمة الصيد طعاما فيتصدق به، أو عدل ذلك صياما، أن يصوم عن كل مُدٍّ يوما، ولكَسْرِ المُدِّ يوما كاملا). وكسر المد هو المد الناقص يصوم له يوما كاملا.

ثم بين الحق سبحانه أن نتيجة تقديم المحرم جزاء صيده هي العفو عما صدر منه فقال عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَف﴾ عفا الله عما سلف مما صيد في الجاهلية، وعما سلف مما صيد في الإسلام قبل التحريم، وعما سلف مما ارتكبتموه لأول مرة عند التحريم وأديتم جزاءه، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ومن عاد لقتل الصيد مرة أخرى فلا كفارة له بل ينتقم الله منه.

وأما الأكل من الصيد للمحرم فهو على ثلاثة أوجه: ما قتله المُحرِمُ أو شاركَ في قتله فأكْلُه حرامٌ على المحرم وغيره. وما صاده غير المحرم بإعانة المُحرم، مثل أن يدله المُحرم على الصيد، أو يناوله آلةَ الصيد، فهو حرامٌ على المُحرمِ دون غيره. وما صاده غير المحرم للمحرمِ فهو حرامٌ على المُحرِمِ دون غيره، لقول النبي صلى الله عليه وسلّم:( صيد البرِّ لكم حلالٌ ما لم تَصيدوه أو يُصَدْ لكم). وعن أبي قتادة رضي الله عنه أنه صاد حماراً وحشيًّا، وكان أبو قتادة غيرَ محرمٍ وأصحابه مُحرمين، فأكلوا منه، ثم شكوا في أكلهم، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلّم؟ ،فقال: (هل أشار إليه إنسانٌ أو أمره بشيء)، قالوا: لا، قال: (فكلوه(.

ولما حرم الحق سبحانه صيد البر على المحرم بقوله عز وجل: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أتبعه رحمة ولطفا وكرما بإحلال صيد البحر وقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ والبحر يشمل كل مجمعات المياه أنهارا وبحيرات وخلجانا وبحارا ومحيطات، أما صيده فهو ما يصاد من كائناته الحية، وطعامه ما جفف منها أو علِّب طريا أو غير طري، سواء صيد للمحرم أو غير المحرم أو صاده المحرم بنفسه، ثم بين علة هذا الإحلال فقال تعالى:﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ تمتيعا لكم سواء كنتم مقيمين أو مسافرين ﴿ولِلسَّيَّارَةِ﴾ وتمتيعا للقوافل أنى اتجهت برا أو بحرا.

وكما ذكر الحق تعالى تحريم صيد البر في هذه السورة ثلاث مرات بقوله في أولها﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ المائدة 1، وقوله:﴿ وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا﴾ المائدة 2، وقوله:﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ المائدة 95، أكد هذا التحريم للمرة الرابعة كيلا يختلط الأمر على السامع مع آية إباحة صيد البحر وطعامه، فقال تعالى:

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ورد التحريم هنا مقرونا بالحث على التقوى وارتقاب يوم الحشر والحساب زيادة في التحذير من المخالفة والتخويف من عذاب يوم الدين.

إن هذا التركيز على تحريم صيد البر يبدو للمتعجل مبالغة وتشددا، ولكن المتبصر لأحوال الناس وعاداتهم وطباعهم سرعان ما تنكشف حكمته، على الصعيد التربوي والاجتماعي والاقتصادي.

أما على الصعيد التربوي فلأن الصيد بعد أن كان مجرد سعي للقوت اليومي أصبح لدى بعض المجتمعات هواية وبطولة زائفة يفاخَر بها ويُتنافَس من أجلها، وتختل بها العلاقات الإنسانية الطبيعية، وتحول لدى مجتمعات أخرى عبثا أهوج يبيد الطير والوحش والحَشَر، ويختل به التوازن الطبيعي الذي خلقه الله تعالى للكائنات البرية.

وعلى الصعيد الاقتصادي صار الصيد البري إتلافا للثروة الحيوانية التي هي ملك للأمة، وإتلافا للبيئة الغابوية التي ينبغي أن تصان وتستثمر، وصرفا لجهود هواة الصيد عن الخدمات الاجتماعية الهادفة المنتجة والأعمال النافعة لبلادهم ومجتمعاتهم.

وعلى الصعيد الاجتماعي انصرف المبتلون بهواية الصيد عن القيام بواجباتهم اليومية وخدمة أسرهم وأبنائهم كلما غابوا له، وانشغلوا بعد عودتهم منه بذكر مغامراته وطرائفه وأصناف طرائده، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن)، وقال حسين بن عاصم: سألت ابن القاسم عن صيد الحيتان لذوي المروءات، هو أخف عندك أم صيد البر؟ قال: "لا أرى لأحد صيدَ البر إلا لأهل الحاجة إليه الذين عيشُهم ذلك، وصيد البحر والأنهار عندي أخف من ذلك"، وكأني رأيته لا يرى بأسا في صيد الحيتان. وقال محمد بن رشد: كره مالك الصيد على وجه التلهي به إلا لمن اتخذه مكسبا، أو رجلٍ قَرِمٍ إلى اللحم غنيا كان أو فقيرا. وكان الليث يكره التلهي به أيضا ويقول: ما رأيت حقا أشبه بباطل منه، يعني أنه حق لحلاله، وأنه يشبه الباطل لما فيه من اللهو والطرب. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ ما يَلهُو به الرجلُ المسلِمُ باطِلٌ إلا رَمْيَهُ بِقوسِهِ وتَأدِيبَهِ فَرَسَهُ ومُلاعَبَتَه أهلَهُ فإِنَّهُنَّ من الحقِّ).

وكما جعل الله تعالى البيت الحرام وفترة الحج والعمرة سببا لأمن الحيوان وحشا وطيرا وحرم قتله وقرر عقوبة الاعتداء عليه، جعل ذلك سببا لأمن الناس وسلامتهم فقال:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ وقد ذكر الحق سبحانه الكعبة من قبل وقصد بها حرمها وجوارها الذي تؤدى فيه المناسك ويذبح فيها الهدي، ثم ذكر الكعبة في هذه الآية وبين أنها البيت الحرام والبناء الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما سبق بيان ذلك في سورتي البقرة وآل عمران. أما جعلها قياما للناس في قوله تعالى:﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ فلفظ القيام أصل الياء فيه واو قلبت ياء لانكسار ما قبلها، أي ما يقوم به أمر الناس حجاجا ومعتمرين ومجاورين، وما يتحقق به أمنهم ومصالحهم ومنافعهم ويسود به فيهم التصافي والتعافي وينصرفون به عن العدوان، وتنجذب به أفئدتهم نحو الخير والبر، وتجلب به إليهم الثمرات والأرزاق على ندرة زرعه وقلة أمطاره وجفاف طقسه، تلبيةً لدعوة إبراهيم عليه السلام بقوله فيما ذكره القرآن الكريم:﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم 37.

وعزز الحق سبحانه هذا الجعل بإنزاله التشريعات الملزمة بتوقير البيت وتعظيم حرماته وتأمين من قصده أو أقام فيه فقال عز وجل:﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾البقرة 125، وقال صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القتالُ فيهِ لأحدٍ قبْلي وَلم يحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا).

أما الشهر الحرام فيقصد به جنس الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال ويعمها الأمن وهي رجب وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. والتعبير عنها بالشهر الحرام باعتبارها كيانا واحدا فى حرمة القتال فيها وإن تفرقت أزمانا واختلفت أسماء. قال تعالى:﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ التوبة 36.

﴿وَالْهَدْيَ﴾ هو ما يهدى في الحرم من الأنعام التي توزع على فقرائه.

(وَالْقَلَائِدَ) يقصد بها البُدْن[[[69]](#footnote-69)] ذات القلائد أي: النوق التي كانوا يقلدونها إذا ساقوها هديا، وقد خصت بالذكر هنا لعظم شأنها كما سبق شرحه في أول سورة المائدة.

وتعني الآية الكريمة في مجملها أن البيت الحرام والأشهر الحرم وما يساق من الهدي والقلائد حرمات الله التي يجب أن تعظم وتوقر ولا يعتدى فيها أو عليها، وفي ذلك تأديب للناس وإعادة لتربيتهم على رعاية حرمات الله تعالى وشعائره، وعلى الأمن والسلام والمودة والتقوى والبر والإحسان، قال تعالى:﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الحج 30، وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج 32).

ثم علل الحق سبحانه جَعْلَه هذه الحرمات قياما وإصلاحا للناس ومعلمة من معالم تقوى القلوب بقوله:

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ جعل الله تعالى تشريعه لاستتباب الأمن في الأشهر الحرم والبيت الحرام وسلامة العاكفين والبادين فيه، وتعظيم حرماته أرضا وسماء ونفوسا وطيرا ووحشا ونباتا، كي تعرفوا مدى إحاطة علمه بكل شيء في السماوات والأرض، وتتدبروا جميل صنعه في رعاية خلقه، ويتضح لكم بالغ حكمته وعلمه بكل ما يصلح لكم ويقيم أمركم، قال عز وجل:﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ 3.

ولئن سُوِّلَ لبعض النفوس المريضة الاستهانةُ بأحكام الله تعالى وشريعته فلا يغيبن عن أحد ما يُعِده تعالى من عذاب شديد للمخالفين: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كما لا يغيبن عن النادمين أن باب التوبة مفتوح ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأن الله غفار للذنب رحيم بالعباد، وهذه الآية متضمنة للترهيب والترغيب، والوعيد والوعد، وعيد للمخالفين ووعد لمن آمن وعمل صالحا وامتثل أوامر الشرع ونواهيه، قدم فيها تعالى الوعيد على الوعد لأن العصاة قد يتوبون فينتهي أمرهم إلى المغفرة والرحمة، لا سيما والتوبة تجب ما قبلها، قال تعالى:﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الفرقان 70، وقال صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله عز وجل يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)، ورحمة الله تعالى ثابتة بالأصالة وقد سبقت غضبه، قال تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾الأنعام 54، وقال صلى الله عليه وسلم: (كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق: رحمتي سبقت غضبي).

ولما زجر الحق سبحانه عن المعصية ورغب في الطاعة وحث على التوبة وبين أن العقوبة والعفو والرحمة والمغفرة بيده وحده لا يشاركه فيها عبد من عباده جنا أو إنسا أو ملاكا أو رسولا، أتبع ذلك ببيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل:﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تبليغ رسالة الإسلام عقيدة وتشريعا، وقد أبلغكموها تامة كاملة، فلم يبق لكم حجة عليه، ولا لكم ما تجادلون به يوم القيامة بين يدي الله تعالى﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يعلم دوافع تصرفاتكم وحقيقة معتقداتكم ونواياكم المعلنة والمضمرة.

ثم ختم الحق سبحانه بقاعدة تلُمُّ جزئيات هذه الأحكام الشرعية والتوجيهات الربانية في كلية جامعة مانعة هي ميزان القيم الإنسانية الراقية في المجتمع الإسلامي الرشيد فقال تعالى:

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المؤمنين ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ والخبيث هو كل ما حرمته الشريعة من نية أو قول أو عمل أو شيء مستقذر، إما لأنه في ذاته قذر تعافه النفوس والطبائع السليمة، وإما لأن سبب الحصول عليه خبيث أو محرم، وإما لأنه مخل بالمروءة، أما الطيب فهو ما لم تحرمه الشريعة من الحسن في ذاته وفي طريقة كسبه، وفي رضا النفوس التقية والعقول المدركة السليمة به.

إن الطيب والخبيث لا يستويان في ميزان الله تعالى، والبون بينهما بعيد لا يسمح باجتماعهما لدى النفس التقية، ولئن أبدت الشهوات والأهواء أن الخبيث كثير ومحبب للنفوس، وأنه قريب من الطيب بنوع من التأويل المجحف أو القياس الفاسد الضال، فإنما ذلك من تلبيس الشياطين والأبالسة والعقول المريضة، وليس للمؤمن إلا أن يلزم الطيب ويجتنب الخبيث في أمره كله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾فاتقوا غضب الله وعقابه يا أصحاب العقول السوية، واعبدوه حق عبادته كي تفلحوا في الدنيا وتفوزوا في الآخرة.

ثلاثة أحكام هي لبنات إكمال الدين

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108) ﴾ المائدة |

تميزت سورة المائدة بكونها آخر سورة نزلت بمكة في حجة الوداع وأنها اشتملت على آخر ما نزل من الأحكام الشرعية القرآنية، لم ينزل معها أو بعدها بقليل في وسط أيام التشريق إلا سورة النصر التي نعت للرسول صلى الله عليه وسلم نفسَه، وبذلك جعل الله تعالى حياته عليه السلام موقوتة بإتمام رسالته، وإذ كمل الدين عقيدة وشريعة ومنهاجا ونزلت الآية من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ كان ذلك إيذانا بقرب التحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى.

وقد استوعب صلى الله عليه ما تشير إليه سورتا المائدة والنصر من دنوِّ أجله فجلس على المنبر بعد عودته من الحج وقال لأصحابه: (إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده)، فبكى أبو بكر حينما سمع هذا الكلام وقال: "يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا". وكان ما قدره الله تعالى أمرا واقعا إذ لم يُعمَّر النبي صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع إلا واحداً وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل في الشريعة بعد المائدة زيادة ولا نسخ ولا تبديل. وما كاد شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ينتهي حتى اعتل عليه الصلاة والسلام ومرض ثم توفي يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول، وعمره ثلاث وستون سنة على أرجح الروايات، صلى الله عليه وسلّم أزكى ما تكون الصلاة وأطيب ما يكون التسليم.

ولئن قرن الله تعالى إكمال الدين في سورة المائدة وتبليغ الرسالة بتمام عمره صلى الله عليه وسلم في الحياة، وجعل لذلك معالم من التنزيل الحكيم والإشارات النبوية، فإن في السياق العام لآيات سورة المائدة أيضا إشارة لكل متبصر ومتدبر، ذلك أننا إذا استعرضنا الأحكام الشرعية الواردة فيها وقد أتمت بيان ما سبق منها في القرآن، وأضافت ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها علمنا أن الدين قد كمل، وأن النبوة قد أتمت مهمتها، وإذا استعرضنا ما بقي مما لم نشرحه من أحكامها تبين لنا أنه ثلاث لبنات هنَّ أساس في بناء الدين لا غنى عنها للمؤمن. ولذلك صيغت كلها مبدوءة بالنداء الرباني الخالد:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأعقب كل نداء منها أمر إلهي يتضمن حكما شرعيا ينير جانبا كان مظلما في حياة المؤمن المقبل على ربه.

أول هذ النداءات قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ والآية نهيٌ منه تعالى للمؤمنين عن سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور لم يأت بها تكليف ولم يؤمروا بالبحث عنها، وإرشادٌ إلى أدب سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: لا تكثروا مسألة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أشياء من أمر الدنيا يكون جوابها مساءةً لكم، أو عن أشياء متعلقة بأحكام الدين سكت عنها القرآن والسنة فينزل فيها تكليف شرعي يُعنِتكم ويشِق عليكم وتعرِّضوا أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيه. وذلك مثل ما روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ) فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أكلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَسَكَتَّ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: (لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالهُمْ وَاخْتِلَافهمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءِ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

ويبدو من سياق أحداث حجة الوداع وما بلغنا من أحاديث صحيحة تقوي أخرى ضعيفة أن الناس استشعروا قرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فأكثروا سؤاله عما خفي عنهم من أمور دنياهم وآخرتهم مما قد تضرهم أو تحزنهم معرفته، من ذلك ما رواه أنس أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرج حين زاغت الشمس فصلَّى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورا عظاما، ثم قال: (من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا) . قال أنس : فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقول: (سلوني). قال أنس: فقام إليه رجلٌ فقال: أين مدخلي يا رسولَ اللهِ ؟ قال: (النار)، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسولَ اللهِ؟ قال: (أبوك حذافة). قال: ثم أكثر أن يقول: (سلوني، سلوني) . فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رسولا. قال: فسكت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قال عمر ذلك، ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ( أَوْلَى[[[70]](#footnote-70)]، والذي نفسي بيده، لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط وأنا أصلي، فلم أر كاليومَ في الخير والشر). وفي رواية لأبي هريرة قال: خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو غضبانُ مُحمارٌّ وجهُه حتى جلَس على المِنبرِ، فقام إليه رجلٌ فقال: أين أبي؟ قال: (في النارِ)، فقام آخرُ فقال: مَنْ أبي؟ قال: أبوك حُذافةُ)، فقام عمرُ بنُ الخطابِ فقال: رضينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيًّا، وبالقرآنِ إمامًا، إنا يا رسولَ اللهِ حديثو عهدٍ بجاهليةٍ وشركٍ، واللهُ يعلمُ مَنْ آباؤُنا، قال: فسكَن غضبُه ونزلتْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم﴾.

لذلك كان من أهداف هذه الآية الكريمة تربية المسلمين على أدب مخاطبة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعدم سؤاله عما قد يسوؤهم العلم به من الغيب، أو ما قد يُرتِّب عليهم تكاليف شاقة لا يطيقونها، أو يُضيِّق ما وسع الله به عليهم.

ثم بعد أن أرشدهم تعالى إلى أدب السؤال وموضوعه هداهم إلى حسن اختيار مناسبته وظروفه فقال عز وجل:

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ ولكن إذا نزل القرآن وابتدأكم بأمر أو نهي فلكم حينئذ أن تسألوا عن بيان ما نزل وعن تفصيل العمل به ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ عفا الله عما سلف من أسئلتكم هذه، وعن إغضابكم رسول الله وإلحاحكم عليه في المسألة، لأن الله غفور رحيم يعاملكم بلطفه ورحمته ولا يحملكم ما لا طاقة لكم به ولا يعاجلكم بالعقوبة فيما فرط منكم.

ثم لتوعيتهم بما قد يؤدي إليه سلوكهم هذا ضرب لهم الحق سبحانه المثل بأمم قبلهم أُعطوا ما سألوا فكان العطاء وبالا عليهم فقال:﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، وقد ذكر القرآن الكريم ممن سألوا أنبياءهم أشياء فكانت وبالا عليم قوم ثمود:﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ الشعراء 153- 157، وقوم موسى إذ سألوا أن يروا الله جهرة:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة 55، وبنو إسرائيل من بعد موسى عليه السلام﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ البقرة 246،

ولما نهي الحق تعالى الناس عن الخوض بالسؤال عما لم يؤمروا به، منعهم عن السؤال عما أبيح لهم، وكانوا يسألون عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ويتشاءمون من المس بأعراف الجاهلية فيها كما روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس، فقال تعالى مصححا عقيدتهم ومبينا ضلال الجاهلية في الأمر:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي: ما أنشأ الله تعالى شرعا تحريميا في شيء من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، وهي على أصل الإباحة كسائر الأنعام الأخرى.

والبحيرة كما قال الراغب الأصفهاني هي الناقة التي تلد عشرة أبطن فيَبْحَرون أذنها أي يشقونها، وتترك فلا تركب ولا يحمل عليها.

والسّائبة هي البعير يسيّب بنذر يحمِّله الرجل نفسَه إن سلّمه الله من مرض أو حقق له رجاء.

و الوصيلة من الغنم هي الشاة التي ولدت سبعة أبطن، فينظرون إن كان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم. وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: قد وصلت أخاها فلم تذبح وكان لحمها ولبنها حراما على النساء. إلا أن يموت أحدهما فيأكله الرجال والنساء.

و الحام هو الفحل الذي رُكِب ولدُ ولدِه. أو هو الذي نتج من صلبه عشرة أبطن فيقولون: "قد حمى ظهره" فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.

وقد ذكر في الأخبار أن عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي كان أول من أتى بالأوثان من الشام إلى مكة وشرع البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ونسب ذلك لله تعالى كذبا وبهتانا، وغيَّر دين إسماعيل الذي كان سائدا حينئذ، وإليه وإلى من سار على طريقته يشير قوله تعالى بقوله عقب ذلك:

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولكن رؤساء الكفر ينسبون كذبا هذه الأباطيل الزائفة والعبادات الفاسدة إلى الله تعالى، والكذب عليه سبحانه شر أصناف الكذب، ويتبعهم في ذلك كثرة من الجهلة والعوام الذين لا يعقلون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ إذا ما دعوا إلى الحق الذي أنزله الله تعالى على رسوله قالوا يكفينا ما ورثناه عن آبائنا من المعتقدات الفاسدة والشرائع الباطلة.

ويعقب الوحي الكريم على جوابهم هذا تسفيها لعقولهم وتتفيها لتفكيرهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هل تتبعون آباءكم حتى لو كانوا جهلة بالحق ضالين عن الصراط المستقيم؟ إن الضال لا يهتدي بالضال، والجاهل لا يجوز أن يقلد الجاهل، الاقتداء يكون بالعالم الورع الرباني إن ملك الدليل من الكتاب والسنة.

لذلك كان المؤمنون وهم يحاولون إرشادهم إلى الحق يجزعون ويحزنون لإصرارهم على الباطل وتعلقهم بجاهليات آبائهم وإعراضهم عن دعوة الخير، فكان النداء الثاني لهم مخففا عنهم ثقل مسؤؤولية النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوم مصرين على الضلالة بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يا أيها المؤمنون اهتموا بِأطْرِ أنفسكم على الحق، وصونوها عن التقليد من غير تفكير أو دليل، واجتنبوا ما وقع فيه المشركون من اتباع جهالات آبائهم والتعصب لها واهتدوا بهدي الكتاب والسنة، وأعرضوا عن الجاهلين، فإن فعلتم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لايضركم في الآخرة ضلالهم لأنكم بذلتم الوسع في هدايتهم ونصحهم وأقمتم عليهم الحجة، كما لا يضركم في الدنيا كيدهم وعداوتهم، لأن الباطل دائما زهوق أمام الحق، قال تعالى:﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران 139، وقال صلى الله عليه وسلم: (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه). فإن غاظكم ما ترون منهم فإنما ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فسوف تعودون إلى الله عز وجل جميعا فيجازي المحسن منكم ويعاقب المسيء وينبئكم بمن تكون له عاقبة الدار.

قد يُتَوَهَّمُ من هذه الآية جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مادام ضلال الغير لا يضر المؤمن، كما تأول ذلك بعض المسلمين في عهد أبي بكر رضي الله عنه، فقال لهم:" إنكم تقرؤون هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب)، وسئل أبو ثعلبة الخُشَني: كيف تصنع في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟، فقالَ: أما واللَّهِ لقد سألتَ عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : (بلِ ائتَمِروا بالمعروفِ وتَناهوا عنِ المنكرِ، حتَّى إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وَهَوًى متَّبعًا ودُنْيا مؤثَرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ، ورأيتَ أمرًا لا بدَّ لَكَ منهُ فعليكَ بنَفسِكَ، وإيَّاكَ وأمرَ العوامِّ، فإنَّ مِن ورائِكُم أيَّامَ الصَّبرِ، صبرٌ فيهنَّ علَى مثلِ قبضٍ على الجمرِ، للعاملِ منكم يومئذٍ كأجرِ خمسينَ رجلًا يعمَلونَ مثلَ عملِهِ).

وخلاصة الحق في هذه القضية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مؤمن لأنه أهم صفة من صفات خيرية الأمة الإسلامية بعد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران 110. والناس من ذلك على مراتب أدناها عند الضعف واشتداد الفتن وطغيان العزة بالإثم فيكون الإنكار بالقلب وإرشاد القابلين للنصح من غير ضجيج أو إثارة، وأعلاها أن يصدع المرء بالحق آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر طبقا لما أرشد إليه نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم إذ قال:(أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) وقال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله).

أما النداء الثالث للمؤمنين في هذا الدرس وهو آخر نداء في سورة المائدة بصيغة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فكان موضوعه حفظ مال من حضره الموت، سواء كان المحتضر مقيما أو مسافرا أو مغتربا، وهي لحظات حاسمة في الحياة لمن أراد أن يتحرر من تبعات ما للخلق عليه، أو يؤدي ما في ذمته من واجبات أو يوصي بصدقة أو قربى، لحظات لا ينفع المؤمن فيها إلا الصدق مع الله ومع الناس، قال تعالى:

﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وهذه الآية الكريمة تعد تكملة لأحكام الوصية التي وردت مقدمتها في سورة البقرة بقوله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة 180، ولئن كانت آية سورة البقرة قد أوجبت الوصية بالمعروف للوالدين والأقربين عند حضور الموت، فإن آية سورة المائدة أيضا قد أقرت الوصية في تلك اللحظة من العمر في حالتي الحل والترحال، مقاما بين الأهل أو اغترابا وضربا في الأرض، ولكنها جعلتها أولا مطلقة تشمل كافة الحقوق والواجبات، وبينت ثانيا مسطرة توثيقها في السفر والمغترب لتسلم من التزوير والتحريف أو الكتمان، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أيها المؤمنون: إقامة الشهادة بينكم في حال الشك أو التنازع ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ عندما يحتضر أحدكم وتأخذه أسباب الموت وأعراضه ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ حين ينوي المحتضر أن يوصي ﴿ اثْنَانِ ﴾ يَشهد على وصيته اثنان﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين تتوفر فيهما شروط العدالة ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أو يشهد للضرورة شاهدان من غير المسلمين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سفرا أو اغترابا في غير دار الإسلام ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فحلت بكم مصيبة الموت.

ثم لتوثيق شهادتهما باليمين قال تعالى:﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ توقفون الشاهدين وتستوثقون منهما وتقدمونهما للحلف بعد صلاة العصر كما فعل النّبي صلّى الله عليه وسلّم في مثل هذه الحالات، وكان هذا الوقت عندهم معهودا للقضاء وفصل الدعاوى والتحليف ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فيُستقسمان بالله قسما موثقا عند الارتياب في شهادتهما بقولهما: إننا ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نسعى بما شهدنا به إلى تحصيل مكسب دنيوي ولا نبتغي به إلا وجه الله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان المشهود له أو عليه قريبا لنا أو صديقا، أو لنا فيه منفعة أو مضرة ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ ولا نكتم الشهادة التي أضافها الله إلى نفسه تشريفا لها وتعظيما لأمرها، وأوجب علينا حفظها من وقت تحملها إلى حين أدائها، وحرم علينا كتمانها وتزويرها بالنقص أو التحريف أو الزيادة، فإن كان منا أي إخلال بها ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ فإننا إذا مستحقون الإثم ومتلبسون به.

{فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ} وفعل "عثر" في الآية يعني الوقوع على أمر لم يكن معلوما، يتعلق بحالة المورِّث الذي يموت في سفر أو هجرة، وليس للورثة سبيل إلى معرفة ما ترك ولا بماذا أوصى إلا شاهدان يحضران مماته، فيقيمان شهادتهما عليه، وعلى ما كان معه عند الموت من مال، ثم يتبين من قرائن الأحوال أنهما لم يقيما الشهادة على حقها وهو قوله تعالى:{ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا} أي فإن علم أنهما استحقا إثم خيانة الشهادة بما يضيع حقوق الورثة، فالقول قول مستحقي الميراث (فَآخَرَانِ) شاهدان من أولياء الميت أو من الورثة أو الموصىَ إليهم (يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا) في أداء اليمين وبيان مال المتوفى وماذا أراد بتركته {مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ} أي من الورثة الذين كاد ينزل بهم ظلم شاهدي الزور السابقين وإثمهم وهم المجني عليهم من أهل الميت وعشيرته ووارثيه {الأَوْلَيَانِ} الأحَقَّان بالشهادة من بين الورثة أو الموصَى إليهم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيحلفان بالله أن شهادتهما أحق وأصدق من يمين الشاهدين السابقين، وأنهما لم يعتديا في الحكم عليهما بالخيانة، وأنهما لمن الظالمين إن كان ردهما للشهادة السابقة من أجل الحصول على ما ليس لهما. قال مجاهد في معنى الآية:: " هُوَ أَنْ يَمُوتَ الْمُؤْمِنُ فَيَحْضُرَ مَوْتَهُ مُسْلِمَانِ أَوْ كَافِرَانِ فَلَا يَحْضُر غَيْرُهُمَا، فَإِنْ رَضِيَ وَرَثَتُهُ بِمَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ تَرَكَتِهِ فَذَلِكَ، وَيَحْلِفُ الشَّاهِدَانِ أَنَّهُمَا لَصَادِقَانِ، ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: وُجِدَ لَطْخٌ أَوْ لَبْسٌ أَوْ تَشْبِيهٌ، حَلَفَ الْأَوْلَيَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ، وَاسْتَحَقَّا، وَأَبْطَلَا أَيْمَانَ الشَّاهِدِينَ الْأَوَّلَيْنِ".

إن موضوع هذه الآيات الكريمة من أدق التشريعات في باب إثبات الحقوق المتعلقة بالوصية في حال الاحتضار والموت في السفر أو الاغتراب بغير أرض الإٍسلام، وقد عمد الشرع الحكيم إلى اعتماد أول طرق الإثبات في الإسلام وهو الشهادة، لقوله تعالى:﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ البقرة 282، وقوله صلى الله عليه وسلم: (شاهداك أو يمينه)، وقوله لمن سأله عنها: (ترى الشمس؟) قال: نعم، فقال: (على مثلها فاشهد أو دَعْ). وقد كانت مسطرة الإثبات في هذه الحالة التي ساقها القرآن الكريم مراعية لكافة المحاذير المرتقبة، كما كان حرص الشريعة قبلها شديدا على أن يكتب الموصي وصيته في حال من القوة الجسدية والعقلية، حتى إن عبد الله بن عمر ليقول:(لا يحل لمؤمن إلا أن يبيت ووصيته مكتوبة قد وضعها تحت وسادته). ولذلك ختم الوحي الكريم تشريعه في هذه الحالة منبها إلى أن هذه المسطرة الإثباتية الموثقة باليمين واليمين المضاد هي الأقرب إلى الحسم في إقرار الحقوق وفض المنازعات عند حصول الوفاة في السفر أو الغربة وعدم توثيق الوصية كتابة فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ ذلك الأسلوب في التحري والاستقصاء والتثبت أبعد عن الظلم وأقرب إلى إثبات الحقوق لأهلها، لأن الشهود تحت هذا الإجراء بين أمرين: أن يؤثروا الحق لذاته فيؤدوا الشهادة على وجهها، وبين أن يخافوا أن ترد أيمانهم بالأيمان المضادة فيفتضح كذبهم وتكشف خيانتهم ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

ونظرا لأن الموضوع متعلق بالتنازع على المصالح المادية وهي محببة للنفوس الضعيفة فإن الحق سبحانه ختمه بأمرين أولهما عام هو التقوى التي تجعل المرء حريصا على صفاء سريرته وصواب عمله، وثانيهما لا تستقيم التقوى إلا به وهو السمع والطاعة لما نزل من الحق على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾. ثم حذر من الإصرار على المعاصي والركون للدنيا وغمط الحقوق لأن ذلك مدعاة للفسق المبعد عن الهداية والمركس في النار فقال تعالى:﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

إطلالة على الغيب: التوحيد أول ما يُسأل عنه والرسلُ أولُ من يُسأل

|  |
| --- |
| قال الله تعالى:﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)﴾ المائدة |

الغيب حقيقة ربانية لا يتم إسلام المرء إلا بالإيمان به، ولا يُقبل عمل لمن أنكره، قصُرت العقول عن إدراكه، وكلَّت الأفهام عن اقتحام مكنونه، من جحده رَدِيَ ومن ادعى الاطلاع عليه هلَك، ومن شك فيه أو تلجلج على خطر عظيم، ومن اطمأن قلبه به على بوابة من الهدى، فليتق الله فيما بقي من أركان الإيمان وبواباته. لذلك تقدم ذكره على الصلاة والزكاة في أول سورة البقرة إذ قال تعالى:﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ البقرة 3 .

ولئن كان أشد الغيوب خطرا على الإنسان هو ما غُيِّب عنه من مصيره يوم الحشر بين يدي الله تعالى، فإن دون ذلك ثلاث مغيبات أخرى لا بد أن يلقاها قبل أن ينعم بسعادته الدائمة أو يعيش شقاوته المخلدة، ثلاث مغيبات هن الموت ثم البعث ثم الحشر للحساب.

أما الموت فلا يُدرَى متى ولا أين ولا كيف يأتي:﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ق 19، وأما البعث فله نفختان: نفخة الصعقة ونفخة القيام:﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر 68. وأما الحشر بين يدي الله تعالى فذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبا من شدة هوله وكربه:﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ النبأ 38- 39.

إن الناس من هذا اليوم العصيب فريقان: فريق يخاف ويرجو ويتصوره على حقيقته التي ذكرها القرآن الكريم فيتقيه ويجدّ السير نحوه في مرضاة ربه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذينَ يَخَاْفُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأنعام: 51، وآخرون لاهون عنه عابثون لا يبالون:﴿اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحيَاة الدُّنْيا﴾ الأنعام: 70، إنه يوم الفصل الذي أعد له الأتقياء عدته ونسي منه الأغبياء شدته:﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الدخان 40- 42. يوم العدل الأكبر السريع تغشاه رحمة الله للذين سبقت لهم منه الحسنى:﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ غافر 17، ومن عدله سبحانه وتعالى أن يقيم موازينه صارمة دقيقة: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء 47، ومن عدله عز وجل أن يؤقِّت لرسله عليهم الصلاة والسلام هذا اليوم يقيمون فيه الشهادة على أقوامهم:﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ المرسلات 11-13. كما أن من تمام إقامة حجته على العباد أن يريهم للتذكير والتحذير مشهدا من عدله في محاسبة رسله وهم أفضل خلقه، ومن رحمته الواسعة وعدله المطلق أن يفتح لهم في الدنيا من جدار الغيب نافذة قرآنية يطلعهم منها على جانب من يوم الفصل الرهيب كي يتعظوا ويأخذوا الأمر مأخذ الجد، ومن عدله وحكمته ورحمته أن يختم بمشهد هذا اليوم آخر سورة تشريعية نزلت من القرآن هي سورة المائدة، فيبقى صداه في القلوب الوجلة، وجَرْسُه في الأفئدة الخاشعة المخبتة، ورهبتُه في جوانح الذين يخافون من ذنوبهم ألا تغفر، كما يخافون على طاعاتهم أن لا تقبل، إنه مشهد محاسبة الرسلِ، أولِ الشهودِ وصفوتِهم عليهم الصلاة والسلام، يحاسبهم بصفتهم عبيدا كلفوا بتبليغ أمانة الإسلام وعقيدة التوحيد، يشهدون على أنفسهم أنهم بلغوها، وعلى أقوامهم أنها بلغتهم تامة مستوفاة، ويُسألون عن عقيدة التوحيد كيف بلِّغتْ وكيف دخَلَها التحريفُ والشرك لدى من انحرفوا أو أشركوا أو ألحدوا. يطلعنا رب العزة تعالى على هذا المشهد الرهيب كي نتَّقِيَه قبل أن نَرِدَه ونستعدَّ له قبل أن نُقحَم فيه، ونعمل له في الدنيا قبل أن نُغَصَّ به في الآخرة فيقول سبحانه:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وهذه الآية الكريمة مرتبطة ومتممة لآية قبلها هي قوله تعالى:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة 108، أي: اتقوا الله واسمعوا وَعْظه إياكم وتذكيرَه لكم، واحذروا يَوْما يَجْمع فيه الرسلَ للشهادة وتُدعَوْن أنتم بعدهم للحساب، فتجزون ما عملتم، تصديقا وإيمانا أو جحودا وكفرانا، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية 28.

يقول عز وجل في هذا اليوم لرسله عليهم السلام:﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ بماذا أجابكم أقوامكم إذ دعوتموهم إلى الحق؟، وهو تعالى يعلم ما أجيبوا به، والرسل عليهم السلام يعرفون بِمَ أجيبوا، فمنهم من لم يتبعه أحد، ومنهم من اتبعه الرجل أو الرجلان كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: (عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي يمر ومعه الثلاثة والاثنان، والنبي يمر ومعه الرجل الواحد، والنبي يمر وليس معه أحد، إلى أن رُفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي، قيل: ليس بأمتك، هذا موسى وقومه. إلى أن رفع لي سواد عظيم قد سد الافق، فقيل: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب).

ولما كان سؤال الله تعالى للرسل يتضمن معنى التوبيخ والتهديد لمن أعرض عن دعوتهم وكفر بهم أو حاربهم أو طاردهم أو قتل بعضهم، وكان مقام الرهبة بين يدي الله لا يجيز أن ينبئوه تعالى بما يعلم في السماوات والأرض فقد وكلوا الأمر إلى علمه عز وجل وإلى إحاطته بمواقف أقوامهم، وذلك أقوى شهادة على الكفار وأعظم بلاء لهم وأشد نكاية بهم وأبلغ شكوى إلى الله بعدوانيتهم وظلمهم إذ كان جوابهم:

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قالوا لربهم: هم أقوامنا عبادك وتعلم ما في قلوبهم من الكفر أو الإيمان، أو الجحود أو الإحسان، وتعلم من أجاب دعوة التوحيد مخلصا ومات عليه ثابتا، ومن أجابها نفاقا ثم ختم عليه بتوبة أو إصرار، وتعلم من حاربها واعتدى على أنبيائها ورسلها ومن نصرهم وعزرهم وجاهد تحت رايتهم، وتعلم ما كان من أمرهم بعدنا وما لهم من رحمتك وما عليهم من عقوبتك، ونحن عبيدك ورسلك لا نتألى عليك أو ندعي علما غائبا عنك وإنما هو منا العلم بالظواهر ظنا وأنت أعلم بالسرائر حقا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ علام ما غاب عن جميع المخلوقات، علمك شامل مطلق:﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إبراهيم 38.

ولئن كان هذا الحوار مجرد توبيخ عام وتهديد شامل للكفار من أقوام الرسل عليهم السلام افتُتِح به موقف المحاسبة هذا، فإنما هو مقدمة لسؤال كل الأمم، أمةً أمةً، كل أمة تدعى إلى كتابها وتجيب عن نفسها بحضرة رسولها الذي يشهد عليها، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ النساء 41 – 42، وقال:﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ النحل 84. فإن أنكرت أي أمة على رسولها التبليغ وجحدته، استُشهِدت أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن من الخصائص الأخروية للأمة المحمدية أن تشهد لكل نبي أنكر قومه تبليغه الرسالة إليهم، تشهد له بأدائها فيقبل الله شهادتها، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك وأقل. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم ؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه). قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾) البقرة 143. وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: (يُدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغتَ ما أُرسِلت به؟ فيقول: نعم. فيقال لقومه: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا ممن نذير، فيقال له: من يعلم ذاك؟ فيقول: محمد وأمته. فهو قوله:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة143. أما شهادة محمد صلى الله عليه وسلم على أمته فيوضحها قوله تعالى:﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ النساء 41، وقوله عز وجل في شهادته على من هجر القرآن من أمته:﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ الفرقان 30.

ولئن كان سؤاله عز وجل لرسله عليهم السلام:﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ تعريضا بمن تمرد على دعوتهم وتوبيخا لهم وتهديدا بسوء مصيرهم، فإن أشد الأمم استحقاقا لذلك هم من كفر بدعوة المسيح عليه السلام بعد أن رفعه الله إليه، لأن غيرهم من الأمم طعنوا في الرسل وجحدوا محتوى الرسالة، أما النصارى فقد طعنوا في المرسِل سبحانه، فوصفوه بما لم يصفه به عاقل ودخلوا بذلك في الكفر من شر أبوابه إذ ادَّعَوْا له الزوجة والولد، قال تعالى:﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ مريم 90-91. لذلك خصهم الحق تعالى بالتوبيخ والتقريع لجراءتهم وشركهم وسوء مقالتهم وجحودهم نعم الله عليهم وعلى رسولهم عيسى بن مريم عليه السلام، وخاطبه بمحضر جميع الرسل عليهم السلام وكافة من حشر وعلى مسمع من قومه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ في ذلك اليوم الذي جمع فيه الرسل:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾يذكره الحق سبحانه بنعمته عليه إذ اختاره من بين خلقه للنبوة، وخصه بالفضل والتكريم والمعجزات الظاهرة، وما كان التذكير أيضا إلا للمبطلين الذين جحدوه وحاربوه وحاولو قتله، تأكيدا لصدق رسالته إليهم وعلو منزلته عند ربه.

﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ ونعمه على أمه مريم عليها السلام إذ اصطفاها عز وجل من قوم مصطفين أخيار أطهار، وكفَّلها نبيا هو زكرياء عليه السلام، وخاطبتها الملائكة حتى قيل إن فيها نبوة ولم يُعلَم أن أنثى كانت من الأنبياء، قال عز وجل:﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران 42- 43. ومعلوم أن إنعام الله تعالى عليه وعلى أمه يعد أيضا تكريما لأتباعه يوجب عليهم الحمد والشكر وحسن الاتباع بدل الشرك والكفر والعدوان.

ثم أخذ السياق القرآني في تعداد النعم الأخرى بقوله تعالى:

﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ اذكر يا عيسى إذ قواك الله وأعانك بروح القدس، مَلَكِ الوحي جبريل عليه السلام، الذي يؤيد الحقُّ تعالى به الرسلَ فيعلمهم ويثبتهم في مواطن الشدة، فكلمتَ الناس قبل موعد الكلام في المهد صبيا وبرأتَ أمك من الشبهة التي أثارتها ولادتك على غير مثال، ثم كلمتَهم نبيا إذ اكتملت كهلا، ودعوتَهم إلى الله وبينتَ لهم حقيقة التوحيد وأحكام العبادة وبلغتَهم الإنجيل.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ علمتك الكتابة فصرت كاتبا وقارئا بعد أن كنت أميا ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي التفكير السليم الذي يعرف دوافع التصرفات والأقوال ظاهرها وباطنها ومآلاتها، ويكشف سرائر النفوس فيوجهها إلى الخير ومكارم الأخلاق ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ التي أُنزل على موسى عليه السلام ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ الذي أنزل عليك.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ واذكر إذ أذنتُ لك أن تصوغ من الطين أجسادا على هيئة الطير ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وأذنتُ لك أن تنفخ فيها فتصير طيرا حقيقيا بأمري وقدرتي وتخليقي.

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وتشفي بإذني الأكمه الذي ولد أعمى، والمصاب بالبرص بدون معالجات طبية أو أدوية.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ وكان عليه السلام يخرج الموتى من القبور أحياء بعد الدفن عندما يدعوهم للخروج منها بإذن الله، ويحييهم أيضا بعد موتهم وقبل دفنهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ آل عمران 49.

وقد كان مقتضى هذه الآيات البينات والمعجزات الباهرات القاهرات أن يؤمن بنو إسرائيل بعيسى عليه السلام، ويُسلموا للحق الذي جاء به، إلا أن استكبارهم بالباطل وتشبثهم بما ألفوه من عناد وجحود وحرص على المتاجرة بالدين، واستغلال للعامة واستغفال لهم، أدى بهم إلى الشطط والغلو والفجور في معاداة عيسى عليه السلام ومطاردته ومحاولة قتله، فكانت نعمة الله الأخرى عليه إذ أنجاه من مكرهم وكف أيديهم عنه كما هو سياق هذه الآيات بقوله عز وجل:

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ واذكر يا عيسى إذ صرفت شر بني إسرائيل عنك ومنعتهم من الإضرار بك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ إذ أتيتَهم بالآيات الواضحة الدالة على نبوتك وبلغتَهم رسالة الإسلام وصححتَ لهم ما حرفوا من الشريعة فقال كفارهم إن ما أتيت به من معجزات مجرد سحر واضح بَيِّن.

ويمضى السياق القرآني في ذكر نعم الله على عيسى بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ولفظ الحواريين لغةً من فعل حار يحور حورا، أي رجع ودار، ومنه: يقال حوَّرتَ الخبزة تحويرا إذا أدرتَها لتَضعها في الفرن، ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي ظن أن لن يرجع إلى الآخرة. أما في المصطلح القرآني فالحواريون لقب لأصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا جماعة مر بهم في سياحته ودَعَاهم إلى اتباع ملَّته ونصرته، فحاروا إلى الحق ورجعوا إليه ولازموه واحتضنوه، وداروا معه حيث دار ونصروه في كل مضمار، يقول تعالى: واذكر يا عيسى يوم ألهَمت الحواريين أن يؤمنوا بي وبرسولي عيسى فآمنوا وأشهدوني على إسلامهم [[[71]](#footnote-71)].

ويستطرد السياق في عرض فضل الله ونعمه بذكر معجزة أخرى تاسعة هي المائدة التي طلب الحواريون من عيسى إنزالها من السماء فسألها ربه تعالى فأنزلها لهم دليلا على قدرته وتصديقا لنبيه، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة لغة وعرفا هي الخِوان عليه الطعام، فإن لم يكن طعام لا تسمى مائدة، من فعل "مادَ" ضيفَه إذا أطعمه وأعطاه. وأما قولهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ففي قراءته خلاف بين القراء أدى إلى خلاف في التفسير. ذلك أن الكسائي قرأ:﴿هَلْ تسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاء في يستطيع، وبفتح الباء في ربك، وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي هل تستطيع يا عيسى أن أن تسأل ربك. وقرأ الآخرون:﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ لا شكا في قدرة الله ولكن بمعنى: هل ينزِّل ربك مائدة أم لا؟ كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، أو على اعتبار أن فعل"أطاع" واستطاع بمعنى واحد وأن المعنى: هل يطيعك ربك بإجابة سؤالك؟. إلا أن إجراء المعنى على الظاهر يقتضي أن الحواريين أخطؤوا بسؤالهم هذا لبشريتهم ولحداثة عهدهم بالإٍسلام، ولذلك استعظم عيسى عليه السلام قولهم ورد عليهم:

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ استعظم عيسى هذا القول منهم وأمرهم بالتوبة والإقرار بقدرة الله على كل شيء وبصدق نبيه فيما أخبرهم به، وقال لهم: اتقوا الله ولا تشكوا في قدرته وكرمه إن كنتم مؤمنين به حق الإيمان.

وكأنما أرادوا تبيان حسن نيتهم ومقصودهم من السؤال: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ نريد أن تنزل علينا المائدة من السماء فتكونَ آية سماوية مع الآيات الأخرى التي شاهدناها منك، وأن نتناول طعامها ونتذوقه حسا مباشرا لا تصورا وتخيلا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فيزداد يقيننا وطمأنينتنا باستجابة الله دعاءك وقبوله منك.﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ويقوى تصديقنا برسالتك وبما ذكرت لنا من أخبار الغيب والآخرة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ونكون على هذه الواقعة إن ذكرناها لمن لم يحضرها من بني إسرائيل شاهدين بما رأته عيوننا وتناولته حواسنا على قدرة الله وكرامة نبيه لديه.

حينئذ توجه عيسى عليه السلام بالدعاء إلى الله مناديا:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقيَّد دعاءه بثلاث صفات للمائدة، أولاها ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ يكون نزولها عيدا نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا، وثانيتها: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ وتبقى فينا آية ودليلا على قدرتك ووحدانيتك وصدق نبيك، وثالثتها:﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ واجعلها فاتحة رزق دائم لا ينقطع لأنك خير من يرزق.

واستجاب الحق سبحانه دعوة عبده الصالح وجاء الرد مؤكَّدا بحرف "إن" والجملة الإسمية:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وَعْدٌ حق منه تعالى لا يُخلف، يوجب الاعتقاد بأن المائدة قد نزلت عليهم، خلافا لمن زعم من بعض المفسرين أنها لم تنزل.

ثم كيلا يصبح طلب الخوارق أو الكفر بها بعد نزولها أو وقوعها تسلية ولهوا أو تلاعبا وسخرية، أعقب الله تعالى هذا الوعد بقوله لهم مهددا متوعدا ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فمن يكفرْ بَعْدَ نزول هذه الآية يعذبه الله بما لم يعذب به أحدا من الخلق. قال ابن عمر: "إنَّ أشدَّ الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون".

وإمعانا يوم القيامة في توبيخ من كفر من النصارى وتقريعهم أراد الله تعالى أن يشهد عيسى على نفسه بالعبودية على مرأى ومسمع منهم ليظهر كذبهم عليه، فكان حوار على الملأ بين الرب الحكيم الرحيم والعبد الصادق الأمين:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يا عيسى هل أنت من أمر الناس بالانصراف عن عبادة الله إلى عبادتك وعبادة أمك؟، وهو سؤال تقريع لأصحاب هذه المقولة وتوبيخ، لا سؤال اتهام لعيسى العبد الصالح الذي اختاره ربه للرسالة عن علم وتقدير.

فلما سمع عيسى خطاب الله تعالى أجابه بمنتهى الخشوع والرهبة والاستنكار لمقولات مشركي النصارى فيه:

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لربه وتعظيما لشأنه ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لا يجوز لي أن أتطاول بهذه الأقاويل الباطلة، وليس من حقي أن أفتريها، وليس من العدل أن يعبدوا غيرك. ثم استطرد:﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ إن كان هذا الافتراء قد صدر مني ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فلا بد أنك علمته، لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ تعلم ما أبدي من نفسي وما أخفيه، ولا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولا أعلم عنك إلا ما علمتنيه من توحيدك وإخلاص العبادة لك ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لم أقل لهم إلا ما أمرتني بتبليغه لهم وهو أن يعبدوا الله ربي وربهم وأن يوحدوه ويطيعوه.﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ وكنت شاهدا على ما يعتقدونه ويفعلونه عندما كنت معهم وفيهم، ولا أدري ماذا أحدثوا بعدي. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلما توفيتني ورفعتني إليك كنت أنت الشاهد الرقيب عليهم العليم بأحوالهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وأنت عالم بكل شيء وشاهد على كل شيء صدر مني ومنهم ومن غيرهم، تجازي المحسن وتعاقب المسيء﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ هم عبادك إن تعذبهم فبِعَدْلك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وإن تغفر لهم فبعزتك وحكمتك.

وقد ورد في فضل هذه الآية الكريمة ما رواه النَّسائي، وابن ماجة بسند صحيح، والإمام أحمد: أن أبا ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ليلة من الليالي يقرأ آية واحدة الليل كله، حتى أصبح، بها يقوم وبها يركع، وبها يسجد، قال القوم لأبي ذر: أي آية هي؟. قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة 118، وفي رواية للإمام أحمد: فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد؟. قال: (إني سألت ريى الشفاعة فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً)، ولمسلم عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إبراهيم 36، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة 118 فرفع يده وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى.فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله. فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال. فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

في هذا الجو الرهيب يوم الحشر، والخلائق يشهدون سؤال رب العزة تعالى عبده الصالح عيسى عن أخطر فرية ابتلي بها من قومه، فرية نسبت له ظلما أخطر صفات ربه وهي الألوهية، ونفت عنه أشرف صفة يتحلى بها وهي عبوديته لربه، وهو قائم بين يدي الله يسفه معتقدات قومه ويقيم عليهم الشهادة ويتبرأ مما نسبوه له في غيبته، ويحتج بعلم الله على براءته مما يقولون.

في هذا اليوم الرهيب وقد سأل الحق تعالى أكرم خلق الله عليه، أنبياءَه ورسلَه، فتبرؤوا من الشرك والمشركين، فما عسى أن يجيب به من سواهم وقد شهدت عليهم الأرض التي عصوا الله عليها، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ الزلزلة 1 – 5، وقال صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة، بما عمل على ظهرها، أن تقول: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهو أخبارها).

وشهد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة 143، وقال:﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ النساء41- 42﴾.

وشهد على كل فرد منهم المَلَكان:﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق 21-22.

وشهدت عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم:﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فصلت21- 22

في هذا المحفل الهائل المهيب ينادي عز وجل بكلمة الحق المبين مزكيا عبده عيسى وجميع رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ينادي بكلمة الفصل تكريما للصادقين وتبكيتا للمكذبين والمفترين:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الصادقين الذين صدقوا الله ورسوله في الدنيا إيمانا واحتسابا، وصدقوا عباد الله حسنَ معاملةٍ ورعايةَ عهودٍ وحفظَ ذممٍ وحرماتٍ. يصدقون في السر والعلن فينفعهم صدقهم وينالون خير جزائه في الآخرة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ خلودا في جنات تجري من تحتها الأنهار﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لعطائه لهم وفضله عليهم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ولا أعظم من الفوز العظيم إلا رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم، قال صلى الله عليه وسلم: [[[72]](#footnote-72)](إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا؟ أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟، قَالَ: (فَيُرْفَعُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ) ثُمَّ تَلَا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يونس 26.

وفي نهاية سورة المائدة وهي تعرض علينا مشهدا من ضمير الغيب كما لو أننا فيه ولا بد لنا منه، ورب العزة تعالى متفرد بالألوهية والربوبية والعلم والقدرة والسلطان، وعلى أبصار الخلائق وقلوبهم غاشية الخوف والرهبة والترقب، يعلن عز وجل من عليائه أنه الملك القادر المقتدر المالك للسماوات والأرض وما فيهن: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟) فطوبى لعباده المتواضعين المخبتين الخاشعين وسُوأى لمن سواهم من المستكبرين والمتجبرين والمعتزين بغير الله.

وبعد فهذا آخر ما منَّ الله به عليَّ من تفسير سورة المائدة، تقبله الله صدقة جارية، لي ولأم البنين المهاجرة المحتسبة، ولآبائنا وأمهاتنا وذرياتنا وأرحامنا وللمؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ آل عمران 193- 194.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ غافر 7.

اللَّهُمَّ صل عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حميدٌ مجيد اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّك حميد مجيد.

بريطانيا: في يوم الثلاثاء 20 شعبان 1435 للهجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الراجي عفو مولاه: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي.

|  |
| --- |
| فهرس تفسير سورة المائدة |
| تمهيد: إكمال الدين وتمام النعمة  الولاء والوفاء قوام الشخصية المسلمة السوية  حرمات الله في دينه وعباده  من الفسق استحلال ما حرم الله  إكمال الدين وإتمام النعمة  حلال الأطعمة والأنكحة  الطهارة ورفع الحرج أصلان في التشريع الإسلامي  ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ - الأنعام 68 -  العاقل من اتعظ بغيره واستيقظ قبل أن يوقظ  أخطاء السلف عبرة وتربية للخلف  نبأُ ابنَيْ آدم وتشديد عقوبة القتل على بني إسرائيل  آية الحرابة وبنو إسرائيل  حد السرقة في الكتاب والسنة وتأويلات الفقه  الحكم بغير ما أنزل الله منه كفر ومنه ظلم  تتابع الرسالات تجديد للعقيدة وحفظ للدين  عقيدة الولاء :مبطلاتها وخوارمها  ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ البروج 8  ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ الأحزاب 39  التوحيد ونبذ الغلو جوهر دعوة موسى وعيسى عليهما السلام  موقف أهل الكتاب والمشركين من المسلمين  مطاعم ومشارب ومكاسب محرمة توقع العداوة والبغضاء  ميزان القيم الإنسانية في المجتمع الإسلامي الرشيد  ثلاثة أحكام هي لبنات إكمال الدين  إطلالة على الغيب: التوحيد أول ما يُسأل عنه والرسلُ أولُ من يُسأل |

1. - صحيح الألباني. [↑](#footnote-ref-1)
2. - أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأشهلية، "أم سلمة"، كانت فيمن جهز عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزفها، وكانت تخدم النبي، وبايعته، وشهدت اليرموك. [↑](#footnote-ref-2)
3. - من كتاب:رغائب القرآن لابن حبيب السلمي الأندلسي. [↑](#footnote-ref-3)
4. - هو عمرو بن شرحبيل الهمداني أبو ميسرة الكوفي محدث من الطبقة الأولى من التابعين. كان من أهل العبادة والزهد، حدث عن عمر وعلي وابن مسعود وغيرهم وحدث عنه أبو وائل والشعبي والقاسم بن مخيمرة وأبو إسحاق ومحمد بن المنتشر. قال إسرائيل بن يونس كان أبو ميسرة إذا أخذ عطاءه تصدق منه فإذا جاء أهله فعدوه وجدوه سواء فقال لبني أخيه ألا تفعلون مثل هذا فقالوا لو علمنا أنه لا ينقص لفعلنا قال إني لست أشترط على ربي. روى عاصم عن أبي وائل قال ما اشتملت همدانية على مثل أبي ميسرة قيل ولا مسروق قال ولا مسروق. [↑](#footnote-ref-4)
5. - المائدة:3 [↑](#footnote-ref-5)
6. - المائدة:4 [↑](#footnote-ref-6)
7. - المائدة:5 [↑](#footnote-ref-7)
8. - المائدة: 5 [↑](#footnote-ref-8)
9. - النساء الآية 43 وهي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [↑](#footnote-ref-9)
10. - المائدة: 6 [↑](#footnote-ref-10)
11. - المائدة: 38 [↑](#footnote-ref-11)
12. - المائدة: 95 [↑](#footnote-ref-12)
13. - المائدة: 103 [↑](#footnote-ref-13)
14. - المائدة: 106 [↑](#footnote-ref-14)
15. - المائدة: 58 [↑](#footnote-ref-15)
16. - وذلك أن رجلاً من بني زبيد من مذحج قدم مكة بسلعة فباعها من العاص بن وائل وكان شريفاً فظلمه ثمنها، وأبت الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمح أن يعينوه عليه فأوفى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش حول الكعبة فأعلن مظلمته، فقال الزبير بن عبد المطلب: ما لهذا مترك، فاجتمعت زهرة وتيم وأسد في دار عبد الله ابن جدعان وصنع لهم طعاماً فتحالفوا ليكونن يداً على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه، وعلى التأسي في المعاش، فقالت قريش: قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم أتوا العاص بن وائل فانتزعوا سلعة الزبيدي من يده فدفعوها إليه. [↑](#footnote-ref-16)
17. - شِمْر بن عطية الأسدي الكاهلي الكوفي، من الذين عاصروا صغار التابعين، روى عن أبي وائل شقيق بن سلمة وسعيد بن جبير والمغيرة بن سعد بن الأخرم وهلال بن يساف. وروى عنه أشعث بن إسحاق القمي وبدر بن الخليل الأسدي وعاصم بن بهدلة وفطر بن خليفة وغيرهم. وثقه النسائي وابن معين والدارقطني وغيرهم. قال ابن حبان: مات في ولاية خالد بن عبد الله على العراق. وقال ابن حجر: صدوق من السادسة. وذكره الذهبي في تاريخه ضمن الطبقة الرابعة عشرة [↑](#footnote-ref-17)
18. - هو حرب بن أبى العالية، الشيخ المحدث أبو معاذ البصري، من الطبقة السابعة، من كبار أتباع التابعين، روى له مسلم والنسائي، رتبته عند ابن حجر: صدوق يَهِمُ. [↑](#footnote-ref-18)
19. - صحيح الألباني، والفتك: قتل الغفلة والغَرَر، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم:(الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ) أنَّ الإيمانَ يَمْنَع عن الْفَتْك، كما يَمنعُ القَيْدُ عن التَّصَرُّف، فكأنه جَعل الفَتْك مُقَيَّدًا. [↑](#footnote-ref-19)
20. - "مَتَرْسٌ" بفتح الميم والتاء وسكون الراء كلمة فارسية معناها: لك الأمان فلا تخف. [↑](#footnote-ref-20)
21. - أي: إن ما تتلفه بغير تفريط من مالكها هَدَر، فإن كان معها مالكها أو سائقها أو راكب ما، وجب الضمان في مال من معها، سواء كان مالكا أو مستأجرا أو مستعيرا أو غاصبا أو مودَعا أو وكيلا أو غيره، إلا أن تتلف آدميا فتجب الدية والكفارة. وهو ما يسمى في القانون الوضعي المسؤولية التقصيرية. [↑](#footnote-ref-21)
22. - الْحِمَى: ما لا يرضى المرء بانتهاكه أو العدوان عليه، من: أحْمَيْت المكان إذا جعلته حِمىً لا يُقْرَب،

    وحَمَيْتُه حِماية إذا دَافَعْت عنه ومَنَعْت منه مَنْ يقربه. [↑](#footnote-ref-22)
23. - العتق لغة الخلوص، ومنه عِتاق الخيل وعِتاق الطير أي: خالصها وأحرارها، وسمي البيت الحرام عتيقًا لخلوصه من أيدي الجبابرة. [↑](#footnote-ref-23)
24. - أي: أباح لنفسه القتال في مكة مستشهدا بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه عند فتح مكة. [↑](#footnote-ref-24)
25. - صلح الحديبية كان في ذي القعدة سنة ست للهجرة، وعمرة القضاء أو عمرة القضية كما تدعى أيضا كانت في ذي القعدة سنة سبع، وفتح مكة كان في السنة الثامنة للهجرة، وتحريم الحج على المشركين كان في السنة التاسعة، وحجة الوداع في السنة العاشرة، ثم التحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بعدها باثنين وثمانين يوما أو ثلاثة وثمانين يوما. [↑](#footnote-ref-25)
26. - يقال: عاقره أي فاخره أيهما يعقر من الإبل أكثر من الآخر يتباريان بذلك في الجود والكرم، وفي حديث ابن عباس: لا تأكلوا مِنْ تعاقر الأعراب، فإني لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله. [↑](#footnote-ref-26)
27. - هِجِّيرَى الرجل: كلامُه، ودَأْبُه، وشأنُه. [↑](#footnote-ref-27)
28. - عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان) صحيح الألباني. [↑](#footnote-ref-28)
29. - خالية يسمع فيها دَوِيُّ الرياح. [↑](#footnote-ref-29)
30. - بين ابن رشد الجد بتفصيل فرائضَ الوضوء وسننه ومستحباته في المقدمات الممهدات التي وضعها لمدونة الإمام مالك بن أنس الأصبحي ج1 ص 83. [↑](#footnote-ref-30)
31. - إشارة إلى الحديث النبوي الصحيح (إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لـَمَّةً ولِلمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإيعادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فإيعادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ قَرَأَ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء .... **﴾**الآية البقرة 268. [↑](#footnote-ref-31)
32. - لفظ السبط في اللغة يطلق على ولد الابن أو ولد الابنة، ولكن غلب على ولد البنت، مقابل الحفيد الذي غلب على ولد الابن، والجمع أسباط. [↑](#footnote-ref-32)
33. - نيقية مدينة بيزنطية تقع في الشمال الغربي لآسيا الصغرى، وموضعها حاليا قرية أسنيك التركية. [↑](#footnote-ref-33)
34. - ومن المفسرين من يذهب إلى أنه هو المراد بقوله تعالى:﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ الآية...البقرة 259. [↑](#footnote-ref-34)
35. - عظم أو مفصل. [↑](#footnote-ref-35)
36. - الفتك هو القتل غيلة، الاغتيال، القتل غدرا. [↑](#footnote-ref-36)
37. - أورد الطبري في تفسيره رواية عن ابن عباس أنها نزلت في أهل كتاب كانوا أهل مودَاعةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنقضوا العهد، وأفسدوا في الأرض، وأخرى في نفس المعنى عن الضحاك، وأخرى عن قتادة عن أنس أنها في رهط من عكل وعرينة، ثم رجح بين الروايات فلم يجزم بأنها في العرنيين بقوله:" وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال: أنزل الله هذه الآية على نبيِّه صلى الله عليه وسلم، معرِّفَةً حكمه على من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادًا، بعد الذي كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرنيِّين ما فعل. وذكر الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" لسبب النزول أوْجُهاً منها أنها في الكفار، ومنها أنها في قطاع الطريق من المسلمين، ومنها أنها في فساق المسلمين، ومنها أنها في قوم من عرينة، وأنها في قوم أبي برزة الأسلمي إذ مر بهم وهو غائب عنهم قومٌ من كنانة فقتلوهم، ومنها أنها في هؤلاء الذين حكى الله تعالى عنهم من بني إسرائيل أنهم بعد أن غلظ الله عليهم عقاب القتل العمد أسرفوا في الفساد والعدوان والقتل فأنزل تعالى جزاءهم في هذه الآية، أما ابن كثير فذكر رواية عن أبي داود والنسائي أنها نزلت في المشركين وأخرى عن ابن عباس أنها في قوم من أهل الكتاب وأخرى عن أنس أنها في عرينة. [↑](#footnote-ref-37)
38. - كانت أبوال الإبل في الطب القديم تعالج بها أمراض الكلى والمثانة والجهاز الهضمي. انظر: كتاب الحاوي في الطب، باب تجارب المارستان، لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة 313هـ. [↑](#footnote-ref-38)
39. - المـُـثْـلَة من فعل: مَثَلَ بالقتيل يمْثُل ومثَّل به إذا نَكَّل به فقطع أطرافه قبل القتل أو بعده. [↑](#footnote-ref-39)
40. - لما استولى السلطان رشيد مؤسس الدولة العلوية بالمغرب على مدينة مراكش في 28 صفر سنة 1079 هـ ـ / 7 غشت 1668م، قتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وكافة أقاربه، ثم استخرج والده وجميع أموات الشبانيين من قبورهم فأحرقهم. عن كتاب الإعلام، الجزء 1 ص 218 - 219. [↑](#footnote-ref-40)
41. - عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم بن سليمان الميداني الحنفي، ولد في الشام سنة ألف ومائتين واثنتين وعشرين، له من المؤلفات: الشرح المسمى باللباب على متن القدوري وقد طبع مرتين لكثرة طالبيه، وشرح المراح في علم الصرف، وشرح رسالة الطحاوي في التوحيد، ورسالة وشرحها في الرسم، ورسالة سماها إسعاف المريدين لإقامة فرائض الدين وقد شرحها ولده الشيخ إسماعيل، وسل الحسام على شاتم دين الإسلام، ورسالة في صحة وقف المشاع، ورسالة في مشد المسكة، ورسالة في رد شبهة عرضة لبعض الأفاضل، ورسالة سماها كشف الالتباس في قول البخاري. توفي رحمه الله تعالى رابع ربيع الأول سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين. [↑](#footnote-ref-41)
42. - في كتابه اللباب في شرح الكتاب ص: 3/211. [↑](#footnote-ref-42)
43. - في المقدمات الممهدات على مدونة مالك 3/232 و: 3/233. [↑](#footnote-ref-43)
44. - هو أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، القرشي التيمي المنكدري مولاهم، المدني، الأعمى، الفقيه المالكي؛ تفقه على الإمام مالك، رضي الله عنه، وعلى والده عبد العزيز وغيرهما. وقيل إنه عمي في آخر عمره، وكان مولعاً بسماع الغناء، قال أحمد بن حنبل: قدم علينا ومعه من يغنيه. وحدث وكان من الفصحاء، روي أنه كان إذا ذاكره الإمام الشافعي رضي الله عنه لم يعرف الناس كثيراً مما يقولان، لأن الشافعي تأدب بهذيل في البادية وعبد الملك تأدب في خؤولته من كلب بالبادية. وقال يحيى بن أحمد بن المعذل: كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك صغرت الدنيا في عيني. مات عبد الملك المذكور سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقال أبو عمر ابن عبد البر: توفي سنة اثنتي عشرة، وقيل سنة أربع عشرة ومائتين، رحمه الله تعالى. (من كتاب وفيات الأعيان). [↑](#footnote-ref-44)
45. - انظر: نصب الراية 3/371 - تفسير القرطبي 6/172. [↑](#footnote-ref-45)
46. - سنن الدار قطني 3/181. [↑](#footnote-ref-46)
47. - أعلام الموقعين 2/126. [↑](#footnote-ref-47)
48. - أذرَعات‏: بفتح الهمزة وسكون الذّال المعجمة وفتح الرّاء والعين وألف وتاء في الآخر، داخل الحدود ال[سورية](http://www.ptewiki.com/wiki/index.php5?title=%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9&action=edit&redlink=1) قرب مدينة [درعا](http://www.ptewiki.com/wiki/index.php5?title=%D8%AF%D8%B1%D8%B9%D8%A7&action=edit&redlink=1)، على أرجح الاحتمالات. [↑](#footnote-ref-48)
49. - الهيثمي في مجمع الزوائد، وحسَّنَ إسنادَه،: السيوطي في البدور السافرة وقال: إسناده حسن. [↑](#footnote-ref-49)
50. - كما قتلوا الصحابية الجليلة أم سنان رضي الله عنها وثلاث نسوة من طيء، فبعث الإمام علي رضي الله عنه إليهم رسولا لينظر صحة الخبر فيما بلغه عنهم ويكتب به إليه، فلما دنا منهم وسألهم قتلوه. [↑](#footnote-ref-50)
51. - بلغ عدد النداء بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في سورة البقرة إحدى عشرة مرة، وفي آل عمران سبع مرات، وفي النساء تسع مرات وفي الأنفال خمس مرات وفي التوبة ست مرات..الخ. [↑](#footnote-ref-51)
52. - انظر المحلى 3/319 [↑](#footnote-ref-52)
53. - أصل النُّجعة طلب الكَلَأ، ثمَّ صَار كل طَالب حَاجَة منتجعا. فيقال: انتجعت أرضَ كذا في طلب الكلأ، وانتجعت فلانا لطلب معروفه، قيل لقوم من الْعَرَب: بِمَ كثرت أَمْوَالكُم؟ فَقَالُوا: أوصانا أَبونَا بالنجع والرجع، فالنجع طلب الكلأ والرجع أَن تبَاع الذُّكُور وترتجع الإِنَاث. [↑](#footnote-ref-53)
54. - الوسق من المكاييل، حمل بعير أو سِتُّونَ صَاعا، جمعه أوسق وأوساق، وَصَاع النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الَّذِي بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعَة أَمْدَاد، والـمُدُّ رُبع الصّاع، سُمِّي مُدًّا لأنه مُقَدَّر بأن يُمدَّ الرجلُ يَدَيْه فيملأ كفّيه طَعامًا. [↑](#footnote-ref-54)
55. - القُذَّةُ: الريشة في السهم تثبت بجانب ريشة أخرى. [↑](#footnote-ref-55)
56. - العقل هو الدية. [↑](#footnote-ref-56)
57. - كَهَرَ الرجلُ زائرَه إذا استقبله بوجه عابس تهاونا به. [↑](#footnote-ref-57)
58. - حروف التصديق هي:نعم، وأجل، وبلى، وإي. نعم: تصديق لما تقدمها من كلام مثبت أو منفي، خبرا كان أو استفهاما، وأجل: يختص بالخبر نفيا وإثباتا، وبلى: إيجاب لما بعد النفي، وإي: لا يستعمل إلا مع القسم. [↑](#footnote-ref-58)
59. - جاء ضمن قرارات مجمع اللغة المصري أنه إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزاد عليها ياء النسب والتاء، وقد اعتمد مجمع اللغة المصري على هذه الصيغة اعتمادًا كبيرًا لتكوين مصطلحات جديدة تعبِّر عن مفاهيم العلم الحديث، وكان قد انتهى فريق من العلماء واللغويين إلى وجود أصل لهذه الصيغة في لغة العرب، فقد جاء في القرآن الكريم لفظ: جاهليّة ورهبانيّة، وجاء في الشعر والنثر الجاهليين كثير من الأمثلة، منها: لصوصيّة، عبوديّة، حريّة، رجوليّة، خصوصيّة، وانتهى هذا الفريق بعد دراسة أجراها على المصادر الصناعية المستعملة حديثًا إلى أنَّ المصدر الصناعي يصاغ من معظم أنواع الكلام العربيّ، ومنه ألفاظ: الإحصائية والأولية، والأنانية، والاتفاقية وغيرها. [↑](#footnote-ref-59)
60. - جامع العلوم والحكم، روي من وجوه مرسلة ومتصلة، والمرسل أصح. [↑](#footnote-ref-60)
61. - عن خَبَّاب قال:أتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متوسد بُرْدةً، في ظِلِّ الكعبة، فشكونا إليه، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! فجلس مُحْمَرّاً وَجْهُهُ، فقال:) قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ، فيُحْفَرُ له في الأرض... الحديث ). [↑](#footnote-ref-61)
62. - قيل إنهم سموا يهودا لقولهم فيما ورد من القرآن الكريم:﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾الأعراف 156، وقيل نسبة إلى أبيهم يهوذا. [↑](#footnote-ref-62)
63. - قورينا مدينة تاريخية أسسها الإغريق في الجبل الأخضر في أقصى شمال شرق ليبيا، في حدود سنة 631 ق.م. تبعد عن مدينة البيضاء بحوالي عشر كيلومترات، تسمى حاليا شحات. واسمها التاريخي هو الذي منح منطقة شرق ليبيا اسم قورينائية. تتبع المدينة حاليا محافظة الجبل الأخضر. وقد ذكرت في النسخة العربية من الإنجيل باسم القيروان، كما ذكرت بالتوراة في سفر المكابيين. [↑](#footnote-ref-63)
64. - بلغ عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة 39 رجلا، جاءت أسماؤهم وتراجمهم في: الإصابة والاستيعاب وأسد الغابة. [↑](#footnote-ref-64)
65. - ابن كثير ج 5 ص 55 - لسان العرب لابن منظور ج 13 ص 561 [↑](#footnote-ref-65)
66. -: الوافِهُ: القَيِّم الذي يقوم على بيت النصارى الذي فيه صَليبُهم [↑](#footnote-ref-66)
67. - الجزاء: من فعل جزى يجزي جزاء، أي كافأ بالإحسان أو بالإساءة، لذلك فالجزاء يكون ثوابا ويكون عقابا، وهو هنا في أحكام الصيد يعني عقوبة قتل الصيد مباح الأكل عمدا، أطلق على البهيمة التي يحكم بها الحكمان ويقدمها المحرم هديا بالغ الكعبة، وقد كثر في اللغة تسمية الشيء بعقوبته، كما في الآية الكريمة إذ سميت البهيمة جزاء.

    أما الضمان فخاص بالعقوبة عن إتلاف ما لا يؤكل مما يحرم إتلافه، وتعتبر فيه قيمته لا قيمة مثله من الأنعام. [↑](#footnote-ref-67)
68. - الرسالة القيروانية 1/77. [↑](#footnote-ref-68)
69. - البُدْن جمع بَدَنة، وهي الناقة تسمى بدنة لعظمها وسنها، لأنه لايجوز أن يساق من النوق صغارها ولا هزيلها، وكل ما أسنَّ منها وعظم وسمن فهو أفضل، وسميت قلائد لأنهم كانوا يميزونها بقلائد توضع عليها لتعرف أنها للبيت الحرام فلا يعتدى عليها. [↑](#footnote-ref-69)
70. - أوْلى: كلمة للتهديد، معناها قرب منكم ما تكرهونه، ومنه قوله تعالى: ﴿أوْلَى لك فأوْلى﴾ القيامة 35. [↑](#footnote-ref-70)
71. - لزيادة الشرح يرجع إلى تفسيري لسورة آل عمران ص 165، تحت عنوان:" فطانة الرسل بين وعي العقيدة وحس الحركة والإعداد"، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ 52-53 [↑](#footnote-ref-71)
72. - رواه مسلم. [↑](#footnote-ref-72)